جامعة تونس

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية — قسم اللغة والأدب والحضارة العربية

الفلسطيني العروبي الإسلامي
محمد علي الطاهر (1896 - 1974)

وساسة بلاد المغرب (1924 - 1974)

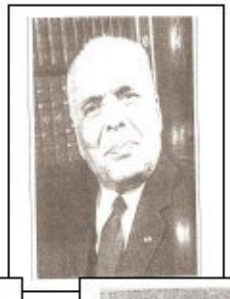

شهادة الماجستير في الحضارة
الحديثة والمعاصرة

إعداد الطالب:
محمد الضويوي

إشراف الأستاذ:
محمد الناصر النفزاوي

السنة الجامعية:
2007 - 2008

الإهداء

إلى أهل فلسطين الصامدين

"إلى التي رأت من الحياة ما رأت وبقيت على كبريائها تقاوم"

إلى من عذب عقله و تعذب بعقله تأصيلا للمعرفة

إلى كل الذين ارتكبوا" خطيئة " حب العلم و العلماء

شكر خاص

لأستاذي محمد الناصر النفزاوي، هذا "الجواد العربي الأصيل"

لسببين اثنين:

أولهما الاعتراف بفضل هذا العقل المهندس، رغم كوني أعلم علم اليقين

نفور محمد الناصر النفزاوي من المدح "نفور الصحة من المرض"

وثانيهما أنه علّمني: "شهامة وأعّلمها لنفسي لن أخفي بعد الآن الرأس في تراب أشياء السماء بل لأرفعه بحرية، حرية تخلق للأرض معنى

مقدّمـــــــــــــــــــــــــة

"الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر (1896-1974) وساسة بلاد المغرب (1924-1974) "

هذا هو عنوان البحث: لمَ هذا العنوان الذي لا يركز على العلم محمد علي الطاهر بقدر ما يركز من ناحية على تفكيره السياسي أي انتمائه إلى العروبية الإسلامية ومن ناحية ثانية على علاقته بساسة بلاد المغرب وهم شيع فكرية سياسية مختلفة بل متنافرة أحيانا وخاصة منهم الحبيب بورقيبة الألباني الطرابلسي التونسي أي الكورغلي[1] الذي كان ينفر من العروبية الإسلامية «نفور الصحة من المرض» ومع ذلك ربطته بمحمد علي الطاهر علاقة «حميمة»لا تشبهها أي علاقة ربطت هذا السياسي المغربي بأي مفكّر سياسي عربي آخر إذ هو لم يشتهر حتى عندنا في تونس قبل كل بلد مغربي أو عربي آخر[2] ؟ بهذا الوفاء الذي كثيرا ما تغنت به القصائد العربية قديما وحديثا وعدته من مقومات الإنسان العربي النفسية ولكنه حرص مع ذلك على أن يبرز صورة "وفاء لا يحد" في علاقته بمحمد علي الطاهر قبل استقلال البلاد التونسية وبعدها حتى إنّه أستقبله مرة كما يستقبل قادة الدول. وأطلق على شارع في أحد أرقى مواضع العاصمة وأثراها اسم محمد علي الطاهر؟

وللتأكد من ذلك يمكن للمرء أن يقلب النظر في شوارع البلاد التونسية وأنهجها فلن يعثر إلا فيما يشبه الصدفة على شارع يحمل اسم أحد كبار الزعماء المغاربة مثل عبد

---

[1] الكورغلي : هو من يكون من أصول غير بربرية أو حتى أعرابية نسبه إلى أعراب بني هلال مثل عطاف في الشمال الغربي ومثل الخصاخصة في جهة قفصه ولكنه من أصول عثمانية بلقانية اختلطت زواجا بالعنصرين التونسيين الأصليين البربر و الأعراب فأنتجتا عائلات مثل عائلة بورقيبة و سليم وثامر و بلخوجة إلخ ومن يقرأ كتاب سهير بلحسن وصوفية بسيس فسيقتنع بأصل بورقيبة الألباني أنظر كتاب

Sophie Bessis et Souhayr Belhassen. Bourguiba A la conquète d'un destin-1901-1957, Paris Groupe jeunne Afrique 1988

كتب أحمد توفيق المدني عن مفهوم الكورغلية: "من العناصر التي يتألف منها الجسم الإسلامي الجزائري، بعد العنصر العربي والبربري عنصر "الأتراك والكورغلية " والاتراك هم بقايا الجنود العثمانيين الذين كانوا يفدون على هذه البلاد ويستقرون بها، ويتزوجون من بنات البلاد، فيدعى أولادهم وأحفادهم " الكورغلية " [انظر أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر، دار الكتاب، ط 2 1963 ص 136]

[2] انظر شهادات: الدستورية الجديدة راضية الحداد و الدستوري الجديد سليمان ابن سليمان و الدستوري الجديد الحبيب عاشور على سبيل المثال.

الكريم الخطابي أو علال الفاسي أو عبان رمضان[1] وهذا أمر يمكن في حد ذاته أن يكون موضوع بحث في الماجستير أي يمكن تناول الفكر البورقيبي انطلاقا من هذه المسالة .

إن بورقيبة إن كان لاتيني الثقافة آخذا ببعض وجوه الحداثة فيها فهو انجلوساكسوني في ميدان السياسة إلى حد يمكن للمرء أن يصف بعض وجوه سلوكه السياسي بمثل ما وصفت به السياسة الانجليزية التي لا تقول مواصلة منه لمكيافيلية[2] الفلورنتيني ميكيافلي[3] MACHIAVEL (1469-1527) بـ «الصداقات الدائمة و لكن بالمصالح الدائمة» فما هو سرّ هذا التوافق الفلسطيني التونسي ممثلا في كل من الطاهر وبورقيبة ؟

إننا هنا لا نقتصر على طرح سؤال ولكننا ندعي أننا نطرح إشكالية problématique حقيقية نكذب إن ادعينا أن بحثنا سيضع حدا للتساؤلات المختلفة حولها.

وملخص هذه الإشكالية هو كيف وقع هذا التلاقي بين مفكرين سياسيين بهذا التنابذ الفكري السياسي أي كيف أمكن أن تلتقي العروبية الإسلامية بالوطنية التونسية في وجهها البورقيبي المتحفّظ حتى إزاء الفكرة القوميّة المغربية ؟

إن ما قدّمنا حول ما سميناه"إشكالية " فرض علينا أن نقسم بحثنا إلى قسمين كبيرين يحتوي كل منهما فصولا تفصيلية.

---

[1] عبّان رمضان (1920- 1957) لعب دورا هاما في تجميع" كل قوى " الجزائر "دون اعتبار لاختلاف الآراء" إعدادا للكفاح المسلح ضدّ فرنسا على حدّ عبارة فرحات عباس في كتابه الاستقلال المصادر، (بالفرنسية) عمل على عقد مؤتمر الصمّام في أوت 1956 الذي انتهى إلى تأكيد: أولوية العمل السياسي، أولوية الداخل (حدّا منه لنشاط ساسة المهجر) – Farhat Abbas, L'Independence confisquée, 1962 1978, Paris, Flammarion, 1984, pp 27 -38.

[2] المكيافيلة Machiavélisme نسبة إلى المفكر السياسي الايطالي مكيافلي وهي نظرية عرفت بين العلوم السياسية و الاجتماعية تدور أساسا حول الإنسان السياسي الذي يعيش في مجتمع يفرض على نفسه و على أفراده صيغة نظام معين خاصة تلك المتعلقة بالحكم والحاكم ؛ هذا سياسيا، أما من الناحية الاجتماعية فتتناول الصراع الدائر حول حقوق و واجبات الإنسان باعتباره فردا أو مواطنا ممّا يؤدي إلى تكتل في المصالح وتشكيل أجنحة في المجتمع وهو المظهر الأساسي للصراع الاجتماعي[لمزيد الاطلاع على هذه الفلسفة انظر الموسوعة الفلسفية العربية المجلد الثاني المدارس و المذاهب و الاتجاهات و التيارات، القسم الثاني ص-ي.ط 1888

[3] - ميكيافلي (1469-1527) مفكر سياسي و مؤرخ إيطالي... بدا ميكيافلي سياسيا صرفا و منظرا اهتم بكيفية الحصول على الحكم و سبل المحافظة عليه ... من أهم مؤلفاته "الأمير " انظر : "Encyclopaédia universalis corpus 14 "
ومعجم المؤلفات السياسية، ترجمة محمد عرب صا صيلا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط 2 2001.

القسم الأول منها يتعلق بمحمد علي الطاهر وبكل ما يفيد أولا أنه فلسطيني وهو الذي عاش في زمن لم تتشكل فيه حدود ما نعرف اليوم من حدود فلسطين.

وثانيا أنه عروبي إسلامي بمعنى أنه كان يقول بقومية عربية تقام على أساس من الإسلام أي تقول بالجامعة الإسلامية أي تتميز عن القومية العربية شامية المنشإ التي تغيّب العامل الديني حفاظا منها على وحدة الشوام الذين يختلفون عن سكّان بلاد المغرب مثلا الموحدين عرقيا و دينيا ومذهبيا إذ الشوام أعراق وأديان ومذاهب بل طوائف مختلفة في المذهب الواحد

وقد حدد ساطع الحصري[1] (1880-1969) مقومات هذه القومية العربية التقليدية حتى إنّه عد أبا "القومية العربية التقليدية" وقد شدّبها من خلفه من دعاة «البعوث»الشامية والعراقية و المصرية بل الليبية (معمر القدافي بعد 1969).

لقد اخترنا لبيان« فلسطينية» الطاهر و«عروبيته الإسلامية » موضوعي هذا القسم وهو، لموضوعه، موجز إذا ما قسناه إلى القسم الثاني، أن نوزع القسم إلى فصلين.

يتناول الفصل الأول المنشأ الجغرافي والانتماء الاديولوجي للفلسطيني محمد علي الطاهر إلى حدود سنة1916 معتمدين في ذلك على تحديد ملامح تفكيره السياسي في علاقته أولا« بفكرة الجامعة الإسلامية »ممثلة في « السّلطنة العثمانية » وثانيا في علاقته "بالفكرة العروبية المشبعة إسلاما". ووسمنا ذلك بـ"محمد علي الطاهر من الجامعة الإسلامية إلى العروبية الإسلامية".

أما الفصل الثاني فمداره على محمد علي الطاهر في خضم الصراع العروبي الإسلامي بين آل حسين وآل سعود (1916-1924). إن غرضنا الأساسي من هذا الفصل هو تتبع مواقف محمد علي الطاهر من هذا الصراع السياسي بين عروبيين إسلاميين الذي سينتهي سنة (1924) بحدثين بارزين أولهما سقوط الهاشمية الذي رافق سقوط مكة سنة

[1] ساطع الحصري (1880-1969): من رواد القومية العربية و من أبرز التربويين العرب في العصر الحديث ؛ هو ساطع محمد هلال مصطفى الحصري... كتب العديد من البحوث و الدراسات و المقالات الوطنية و القومية... كما ألف العديد من الكتب أشهرها... محاضرات في نشوء الفكرة القومية... العروبة بين دعاتها و معارضيها ، العروبة أولا ، ماهي القومية ، الوطنية و القومية ، دفاع عن العروبة...آراء وأحاديث في الوطنية والقومية...آراء و أحاديث في القومية العربية...[انظر موسوعة أعلام العرب، بغداد، بيت الحكمة، 2000.]

(1924) ثم المدينة سنة 1925 في أيدي الوهّابيين السعوديين وتحديدا آل سعود وثانيهما إلغاء الخلافة الإسلاميّة.

هذا هو بإيجاز، ما يتّصل بالقسم الأوّل من هذا البحث، أمّا القسم الثاني منه فمداره على جملة من الإشكالات التي يمكن أن توضّحها الأسئلة التالية، هل يكفي الوقوف على تفكير الطاهر مثلما تبيّنا عددا من ملامحه في القسم الأول المتّصل بأحداث المشرق عموما فنعمّمه على ما سيجدّ من أحداث في فترة ما بعد 1924 وفي منطقة عربية أخرى هي بلاد المغرب بما تتميّز به تجربتها الفكريّة السياسية والنّضالية من خصوصيات؟ أي بعبارة أخرى هل إن محمد علي الطاهر كان على مستوى التطبيق، يحكم بالمقياس العروبي الإسلامي على ساسة بلاد المغرب الّذين ابتدأت علاقته بعدد منهم (محيي الدّين القليبي عبد العزيز الثعالبي) منذ مطلع عشرينات القرن العشرين ؟

إن قصدنا من ذلك هو النظر في مدى اتّساق الأفكار التي تبنّاها الفلسطيني وهو مدى لا يمكن تبيّنه إلاّ بتتبّع علاقاته المتشعّبة بالساسة المغاربة خاصة إذا علم المرء أن التكوين السياسي لعدد من الرموز في بلاد المغربلا سيما بورقيبة هو تكوين يكاد يكون مناقضا لتكوين العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر هذا إن لم يكن ينفر منه نفوره من كل وصاية للمشرق على المغرب ؟ إن هذا القسم الثاني من بحثنا هو وحده الكفيل بوضع تفكير محمد علي الطاهر على المحك، محك القول و الممارسة إذ السؤال الذي يطرح هو: ألم يكن محمد علي الطاهر « قاسيا » على بعض السّاسة من المشارقة لأن القضايا التي تشغلهم هي قضاياه الحقيقيّة في حين أنّه ميال إلى أن يكون أكثر تفهّما عندما يتعلق الأمر بساسة بلاد المغرب لان صراعاتهم ليست في نهاية الأمر صراعات يمكن أن يكون لها في نظره تأثير في مصير عدد من بلاد المشرق و خاصة منها فلسطين ؟

لقد رأينا لإنجاز هذا القسم من البحث الذي هو أطول بما لا يقاس من القسم الأول، أن نفصله فصلين اثنين يعتمدان تماما مثل فصلي القسم الأوّل؛ المنهج التاريخي و لذلك تناول الفصل الأول علاقة الفلسطيني بالسّاسة المغاربة بين 1924-1945، تاريخ تأسيس الجامعة العربية ومما تجدر ملاحظته هنا أن المدونة كانت ثرية إلى حد مكننا من استغلالها أثناء تناول البلدان المغربية الأربعة ليبيا وتونس والجزائر ومراكش استغلالا

مكثفا ومن دون خشية من إلحاق الضرر بتوازن الفصول على مستوى البناء الشكلي، أما ثانيها فقد تناول علاقته بهم وخاصة ببورقيبة بعد تأسيس الجامعة العربية أي بعد سنة 1945.

لمَ وقع اعتماد الجامعة العربية مفصلا تاريخيا ؟

إن محمد علي الطاهر كان قبل تأسيس الجامعة يعرّف بقضايا العالم العربي والإسلامي و خصوصا قضية فلسطين معتمدا على مسألة «الرابطة العربيّة الإسلاميّة » المبنيّة على مفهومي "الأخوّة و العروبة " وسيلة إلى نضال موحد بين الحركات التحرّرية ومن ثم سبيلا إلى خلاص وطنه فلسطين من الاستعمار. كتب محمد علي الطاهر« لقد كان الحال قبل قيام الجامعة أنّني كنت أقوم وحدي بإرسال الاحتجاجات من أجل فلسطين باسم اللّجنة الفلسطينية إلى الأمم المتحدة في جنيف" وقد استمرّ هذا الحال أكثر من ربع قرن. فإذا بالجامعة العربية تقوم لتتولّى هي إرسال الاحتجاجات إلى هيئة الأمم في ليك سكسس»[1]

فتأسيس الجامعة العربية[2] إذن مسألة في غاية الأهمية لأن الطاهر كان يحمل على عاتقه قبل تأسيسها مسؤولية التعريف بالقضيّة الفلسطينية أولا ثم بالقضايا العربية والإسلامية ثانيا وعندما تأسست هذه الجامعة سرعان ما بدا أنّها «جامعة بلدان عربية » أعجز من أن تحلّ قضية مثل قضية فلسطين فكان ما ظهر لعيني الطاهر أشبه ما يكون" باليأس"من رموز هذه الجامعة وقد لخّص هذا اليأس بقوله :« وكم أعجبتني أبيات الشاعر الفلسطيني الأستاذ مصباح العابودي عن الجامعة وأبطالها...

مـــاذا صنعتم لمن أشفى علـــــى الغرق هـــذه قـــــراراتكم حبر علـــــى ورق
وهذه ا لثورة الحمراء قد سطـــــــــعت كالشـــمس رأد الضحى رفت على أفق
وما تزال قرارات لـــــكم وضعـــت سـرا تهـــــامس كالعشّـــاق بالحدق

[1] محمد علي الطاهر: خمسون عاما في القضايا العربّية، بيروت، مؤسسة دار الريحان، د ت، ص 172 .

[2] جامعة الدول العربية: منظمة دولية إقليمية... ذات طابع قومي... تأسست في22 مارس 1945... رسميا بعد صدور وثيقتين مهدتا لنشأتها فعليا، الأولى صدرت في مؤتمر الإسكندرية سنة 1944، وعرفت "ببروتوكول الإسكندرية " الذي جسد فكرة الجامعة العربية و أعطاها إطارها العام، تلتها وثيقة ميثاق جامعة الدول العربية المستقلة في رابطة اتحادية... كما أنها أنشئت لتكون أداة للتعاون العربي الاختياري و لم تحدد وسائل وغايات هذا التعاون في ميثاقها... [انظر الموسوعة العربية ،المجلد السابع ،بتصرف وكذلك هارون هاشم رشيد "جامعة الدول العربية " تونس، سيراس للنشر، 1980، ص35]

أخشى غدا يذهب الأقصى ومـــــجلسكم ما يبن مختلف منـــــكم و متفـــــــق[1]

إن قضية الصراع بين الساسة المغاربة في المهجر قضية معروفة (ما عرف مثلا بضجة "الشطّي" أو الخلاف بين السفير التونسي الحبيب الشطّي وسفير المغرب عبد الخالق الطّريس وانتصاب محمد علي الطاهر مدافعا عن تونس وعن زعيمها الحبيب بورقيبة)هذه الخلافات عبر عنها العروبي الإسلامي الطاهر قائلا : "إنني أسأل المنصفين هذا السؤال لقد مضى ستّ سنين على وجود الجامعة العربية وهي تنعقد فهل صنعت شيئا... بل أسأل عن مشاكل دول الجامعة العربية نفسها فهل حلّت الجامعة واحدة من مشاكلها؟...إن بعض مندوبي هذه الحكومات يأتي من بلاده وفي جيبه فكرة أمريكانية وبعضهم يأتي وهو يحمل في رأسه رأيا إنجليزيا، وآخر يأتي وفي عباءته مطامع يهودية و معظم هؤلاء المندوبين يجيء وفي نيته تنفيذ رأيه وإحباط خطط الحكومة العربية الفلانية!!" [2]

هذه هي صورة بحثنا الذي نتمنى أن نكون قد رسمنا له صورة واضحة بما فيه الكفاية على أننا نود في نهاية هذه المقدمة أن نوضّح أكثر ما أوردناه فيها من إشارة إلى المنهج المعتمد. هذا المنهج هو المنهج الوضعي الذي ولد مع تتطور العلم في أوروبا انطلاقا من أواسط القرن التاسع عشر وما رافق ذلك من أحداث هزت فرنسا وأوروبا وجهت عناية المؤرخ والمنهج الوضعيين إلى النظر في المنطق المستتر[3] وراء تلك الأحداث كما تم إيلاء إرجاع الوقائع إلى الظروف التاريخية أهمية بالغة ثم العناية بالظاهرة السياسية و بالفرد إضافة إلى ذلك فإن المنهج الوضعي "ينفر من الجزئيات والتفاصيل" (La petite histoire) ويهتم بما هو أساسي (La grande histoire[4])

---

[1] محمد علي الطاهر : معتقل ها كتسب ، مذكرات، القاهرة المطبعة العالمية 1950ص633

[2] محمد علي الطاهر : خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 670

[3] الهادي التيمومي :"مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم في العالم الغربي من "النهضة "إلى " العولمة " صفاقس دار محمد علي للنشر 2003، ص51

[4] المرجع نفسه، ص53

إن المنهج الوضعي يميل إلى" الموضوعية "و إلى العلميّة لذلك لا تشفي غليله إلاّ الوثيقة المكتوبة[1] وهذا أمر جعلنا نعتمد على ما وقع بين أيدينا من كتابات الطاهر ثني جريدة "السّياسة " لحسين هيكل ثم ثني صحفه "الشّوري"، "الشباب" و"العلم" وكذلك ما ترك من كتب. كما أنه إضافة إلى اعتمادنا محمد علي الطاهر مصدرا هاما في موضوعنا اعتمدنا مصادر أخرى مكتوبة تعدّل ما أورده العروبي الإسلامي تحفّظا منا إزاء كل ما يدخل في التراجم الذّاتية الخاصة.

لقد جمّعنا هذه المادة المكتوبة وحاولنا أن نتجرّد من كل خلفيّة مسبقة استجابة لشروط المنهج الوضعي (الموضوعيّة والعلميّة) حتّى نتمكّن من رسم صورة محمد علي الطاهر العروبيّة الإسلامية في القسم الأوّل من البحث ثم نزّلنا هذه الصورة في القسم الثّاني من البحث في التّاريخ ونظرنا في" المنطق المستتر" والأبنية الفكرية المستترة التي تحكم ممارسات الطاهر السياسية وتوجهها في علاقته بساسة بلاد المغرب معتمدين في ذلك على المنهج البنيوي[2] إضافة إلى المنهج الوضعي.

[1] الهادي التيمومي: مفهوم التاريخ، مرجع سلف ذكرهن ص 53.

[2] اعتمدنا فيما يخص الاستفادة من المنهج البنيوي إضافة إلى المنهج الوضعي على كتاب الهادي التيمومي مفهوم التاريخ ، مرجع سلف ذكره .

القسم الأول

محمد علي الطاهر من الجامعة الإسلامية إلى العروبية الإسلامية

الفصل الأول

محمد علي الطاهر حتى الحرب الكبرى

(1916-1896)

خضعت بلاد الشام زمن الحكم العثماني الممتدّ من القرن السادس عشر إلى نهاية الحرب الكبرى (1914-1918) لتنظيمين إداريين يمتدّ أولهما، وهو لا يعنينا في هذا البحث، من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا. أما ثانيهما، وهو الذي يهمنا أساسا في هذا البحث ، إذ عاش محمد علي الطاهر(1896-1974) في ظله المرحلة الأولى من حياته، وهي سنوات أساسية في عمر الإنسان، فيمتد من أواسط القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الكبرى. هذا التقسيم الإداري الثاني يمثل انقلابا كاملا، في نظرنا، في وضع السلطنة إذ رافقه صدور التنظيمات الأولى (1839) والتنظيمات الثانية (1856)أي زامن بداية التغلغل الاقتصادي والفكري الأوربي الغربي والأمريكي في السلطنة[1]. وتهمنا من هذا التقسيم بصفة خاصة "ولاية بيروت (1888) وكانت تشمل خمس متصرفيات"[2] منها متصرفية نابلس. وأهم ما يستحق الملاحظة هنا أن جزءا كبيرا مما سيسمى «بفلسطين (متصرفية عكا ومتصرفية نابلس) كان تابعا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لولاية بيروت. أما الجزء الثاني من فلسطين فكان يقع بين حدود ولاية بيروت الجنوبية و سيناء المصرية ويعتبر متصرفية ممتازة قائمة بذاتها تخضع مباشرة لسلطة الأستانة و تضم قضائي يافا و غزة »[3]

ولد محمد علي الطاهر في قضاء يافا سنة 1896. ويمكن للمرء أن يتخيل طبيعة النشأة الأولى للطفل محمد علي في عائلة مشدودة اجتماعيا وسياسيا وعقديا إلى سلطة الأستانة زمن حكم السلطان عبد الحميد (1876-1909) الذي اتخذ من الجامعة الإسلامية مرجعا. هذه الطفولة ستوجه حياة محمد علي الطاهر إلى حد ما لأنها ستساهم في تحديد نظرة الشابّ إلى الأشياء ذاك أننا نميل إلى الاعتقاد أن معتقد عائلة الطاهر التي لم نعثر على أي معلومة تتعلق بها كان صوفيا صرفا لوضع مدينة يافا كما أسلفنا الذكر التي استقرت فيها العائلة بعد هجرتها من مدينة نابلس الوطن الأم كما يوضح ذلك محمد علي الطاهر قائلا «ولدت... بمدينة يافا سنة 1896 بعد هجرة أسرتنا من مدينة نابلس الوطن

[1] محمد الناصر النفزاوي:التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (1839-1918)، صفاقس / تونس، دار محمد علي للنشر وكلية ع.إ.إ 2001، ص23..

[2] المرجع نفسه، ص24.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الأم، وأما الأصل فمن قرية السيلة الحارثية المنسوبة إلى بني حارثة، وهي القبيلة التي كان العديد من أهلها قد جاؤوا فلسطين ضمن جيوش الفتح الإسلامي لفلسطين، مع من كانوا أعوانا وجندا للقائد الفاتح سيدنا أبي عبيدة عامر بن الجراح أحد أبطال القادة الكبار لجيوش محمد بن عبد الله رسوله إلى الدنيا كلها و إلى الكائنات بأسرها »[1] ويقول في موضع آخر «محمد علي الطاهر من نابلس –فلسطين- ومن أصحاب الأملاك والأوقاف ومن عائلة الطاهر بنابلس و يافا التي تعد نحو 100نسمة بينهم أشقائي وبني عمي ونحن نستوطن فلسطين منذ الأزل »[2] من الواضح إذن أنه من عائلة عربية إقطاعية متوسطة ومثل هذه العائلات تعرف بتقليديتها وبشدة تدينها وقد عثرنا في مذكرات عزة دروزة على ما يؤكد ذلك إذ يقول «لقد وعينا ورأينا في طفولتنا وفي فتوتنا الأولى ثم في شبابنا عددا غير يسير من المشايخ وعلماء الدين في نابلس، كان كثير منهم ذوي وظائف في المساجد ومن أقدم ما نذكر في طفولتنا الشّيخ أمين أبو الهدى مفتي نابلس... ومثله الشيخ عباس الخماش... وكان الاثنان متنافسين في البروز في مجتمع نابلس ولدى السلطات والثاني كان سياسيا وله زعامة سياسية... ومن بيت الطاهر الشيخ حافظ وكان ضريرا مجودا للقرآن... والشيخ راضي وقد درس مدة في الأزهر وعاد... وأظن أنه صار معلما في مدرسة ابتدائية.»[3]

يكون بهذا نسبه عربيا صرفا ونشأته تقليدية صوفية محضة بين مدينتي يافا المولد والنشأة وبين نابلس المحضن والتعليم إذ «كان التدين غالبا عاما في نابلس، أي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وقبل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ببضع سنين. فالمساجد تكون غاصة في أوقات الصلاة جميعها يؤمها الشيوخ والكهول والشباب والفتيان معا... وقد أثر ذلك في الصبيان والفتيان أمثالي فكنت في فتوتي الأولى متدينا مواظبا على أداء الصلوات حتى كنت أحيانا أستيقظ الليل فأصلي تهجدا وأنزل في الفجر إلى الجامع الكبير لأصلي الفجر مع الجماعة »[4] فإذا كانت هذه حال نابلس المتصرفية التابعة

[1] محمد علي الطاهر خمسون عاما : مصدر سلف ذكره، ص299.

[2] المصدر نفسه ص568

[3] محمد عزة دروزة : مذكرات محمد عزة دروزة 1887-1984، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993، ج1، ص69- 73.

[4] المرجع نفسه، ص116

لولاية بيروت فليتصور المرء ظاهرة التدين في قضاء يافا منشأ الطفل محمد علي الطاهر التي كانت خاضعة لسلطة الأستانة مباشرة .

إن هذه النزعة الصوفية هي السمة المميزة لهذا الجيل الغالبة على نشأته لذلك لا يسع المرء إلا التوقف عندها لفهم تفكير محمد علي الطاهر الاجتماعي والسياسي لأن المثقف نتاج عصره وواقعه، نتاج تركيبة اجتماعية مخصوصة . ونحن إذ قلنا هي السمة الغالبة على نشأة هذا الجيل فإن ذلك لا يعني تعميما يطال كل بلاد الشام . بل نقصد خاصة المناطق الداخلية لولاية بيروت ذلك أن المناطق الساحلية منها كانت تشهد وضعا مخصوصا تحديدا منطقة بيروت العاصمة التي بدأت تشق عصا الولاء للمجتمع التقليدي الماقبل رأسمالي فـ«سكان المحور الساحلي ومنهم سكان العاصمة بيروت التي بدأت تندرج ضمن سياق اقتصادي رأس مالي عالمي وتأسست فيها الجامعات الحديثة »[1]. سبّب هذا الوضع عندهم نوعا من ارتخاء متزايد في العلاقة التي كانت تربطهم بنظام المجتمع العتيق الذي بقي متينا في المناطق الداخلية ومنها نابلس.

أما في ما يتعلق بتعليم الطفل محمد علي الطاهر فنحن بإزاء روايتين تذهب الأولى إلى أنه تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في مدرسة نابلس[2] في حين نفى ابنه الحسن محمد علي الطاهر ذلك وذكر أنّ والده لم يتلقّ سوى تعليم في كتاب يافا[3]. وسواء أدرس الطفل في الكتاب فحسب أم التحق بمدرسة نابلس فبإمكان المرء أن يستعين بشهادة محمد عزة دروزة عن التعليم والمدارس والكتّاب في مذكراته حتى يتبيّن طبيعة التعليم الذي تلقاه جيل كجيل محمد علي الطاهر وعزة دروزة الذي يقول: « لقد درست دراستي الابتدائية في مدرسة الشيخ محمد زعيتر الابتدائية الحكومية أو شبه الحكومية من سنة 1895 إلى سنة 1900 وبهذه المناسبة أقول إنه لم يكن في نابلس مدرسة حكومية قبل عهد السلطان عبد الحميد الثاني... وكل ما كان كتاتيب يعلم فيها الأطفال يقوم على كل منها

[1] محمد الناصر النفزاوي : التيارات الفكرية السياسية، مرجع سلف ذكره، ص38.

[2] ذكر في الموسوعة الفلسطينية المجلد الرابع ، دمشق، هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984: أن محمد علي الطاهر تلقى تعليمه الابتدائي و الإعدادي بمدرسة نابلس و نجد ذلك أيضا لدى البدوي الملثم في كتابه "أعلام فلسطين " الذي ورد ذكره في كتاب سميح شبيب "محمد علي الطاهر" تجربته الصحافيّة في مصر من خلال صحفه :الشورى وا لشباب و العلم، (1924-1939)"، فلسطين الإتحاد العام للكتاب و الصحافيين الفلسطينيين ط 1990 ص 311.

[3] سميح شبيب: محمد علي الطاهر ، تجربته الصحافية، المرجع السابق ص 311

شيخ محدود العلم والعقل وأكثر ما كانت هذه الكتاتيب في مقامات فيها قبور بعض الصالحين ويكون لها ساحة فيها محراب فيجلس الطلاب فيها... وكانت مدة الدراسة في المدرسة أربع سنين يدخلها الطالب وعمره سبع سنوات أو أكثر قليلا »[1] فإن صحّ التحاق الطاهر بمدرسة نابلس فإنّ ذلك قد كان سنة 1903 بمعنى أنّ تعليمه كان لا يختلف كثيرا عن طبيعة التعليم الذي تلقاّه دروزة الذي يقول : «وكان يعلّم في المدرسة القراءة والكتابة و مبادئ الحساب والقرآن والتجويد، ثم صار في زمني يعلم بعض مبادئ الجغرافيا والتاريخ... بعض مبادئ العلوم الكيميائية والفيزيائية ونحوها... وكان المظهر الديني في المدرسة قويا فكانت الدروس تبدأ وتختم بصبغة الصلاة على النبي... وكان يشدد على الأولاد لآداء الصلاة، وكانت المدرسة تهتم كثيرا بتعليم القرآن و تجويده و كانت تحتفل في آخر السنة بالختم القرآني.»[2].

إن الروايتين سيان، فسواء أ درس محمد علي الطاهر في الكتاب أم في المدرسة فتكوينه لا يعدو أن يكون إلا تكوينا تقليديا يحفّظ فيه القرآن بالعصا "ويشدد على الأولاد لأداء الصلوات" لأن هذا النوع من التكوين والتعليم كانا نتاجا لأمرين اثنين: عامل اقتصادي وآخر سياسي. فمن الناحية الاقتصادية «كانت أغلب المؤسسات الصناعية النادرة ملكا للأجانب وكان جزء من الضرائب التي يدفعها العثمانيون للدولة العثمانية يحسمه صندوق الدين مباشرة فهل بقي هناك أمل في خدمات اجتماعية أو تعليمية يمكن أن تقدمها الدولة التي تطمح إلى القيام بدور شبيه بدور" العناية الإلهية " لصالح المجتمع»[3] فهذا الوضع الاقتصادي المتردي في السلطنة زمن نشأة الطفل محمد علي الطاهر الأولى لا يمكن أن يزرع سوى بذرة تعطي ثمارا تقليدية صرفة مثل شجرة جذرها القرن السابع الميلادي وفرعها القرآن والسنّة تؤتي أكلها نظرة تقليديّة إلى العالم وهو ما يؤكده المنحى السياسي «فسياسة عبد الحميد الإسلامية إذن سياسة تنبع من نظرة تقليدية إلى علاقة الدولة بالمجتمع و تطمئن إلى المظاهر... ونحن لم نر من بين العثمانيين المعارضين مفكّرا عبر عن تهافت هذه المظاهر تعبيرا اقترب من بلاغة ولي الدّين يكن[الذي

[1] محمد عزة دروزة : مذكرات محمد عزة دروزة، مرجع سلف ذكره، ص ص 145 – 146.
[2] المرجع نفسه، ص 148.
[3] محمد الناصر النفزاوي : التيارات الفكريّة السياسية، مرجع سلف ذكره ص 117

يقول]"جعل[يقصد عبد الحميد] بيوت الحكومة كالمساجد ترنّ في سلالمها أصوات المؤذنين وصيّر المكاتب [يقصد المدارس] كالمدارس الدّينية تقام فيها الصلوات وتقرأ كتب الدين ويزرع التعصب في قلوب الشباب فتنمو معه نفوسهم و ترسّخ عليهم طبائعهم.»[1]

لقد طبع الطفل محمد على الطاهر في سنواته الأولى، وهي هامة في عمر المرء، بتكوين تقليدي صوفي صرف وبنظرة تقليدية إلى الأشياء قامت على إيمان ديني وعلى القول بالجامعة الإسلامية سياسيا عمقها وضع اقتصادي صعب. وليتصور المرء ما يمكن أن تكون عليه حال الخدمات الاجتماعية والتعليمة في سلطنة أفلست فكريا ومادّيا وسياسيا وأصبحت أبعد ما تكون عن كل تنشئة علمية واقرب ما تكون إلى الإيغال في التقليدية. الأمر الذي يؤكده عوني عبد الهادي في مذكراته إذ يقول« لم تكن الثقافة العربية في ذالك الجيل ذات شأن كبير... أما العلوم وأما الفنون وأما الثقافة فلم يكونوا [يقصد المعلمين] يتحلّون هم أنفسهم بشيء منها حتى يعطوها لغيرهم. ففاقد الشيء لا يعطيه »[2]

إن السؤال الذي يراودنا الآن، أي في هذا الفصل، بعد الوقوف على نشأة الطاهر وتكوينه، هو: ما سيكون عليه موقف محمد علي الطاهر من الأحداث التاريخية الهامة التي جدت بين 1908 سنة الانقلاب العثماني و"إعلان المشروطية " وما سيكون عليه تفكيره السياسي ونظرته إلى الأشياء حتى قيام الحرب الكبرى ؟.

يمكن القول إن الانقلاب العثماني مرّ بمرحلتين تمتد الأولى من سنة 1909 إلى 1910. وهذه الفترة مثلت صدمة بالنسبة إلى العثمانيين على اختلاف أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم فلم يعبّروا عن مواقف واضحة من هذا الانقلاب. أما الفترة الثانية فهي تبدأ من 1909 -1910 إلى سقوط الدولة العثمانية الاتحادية سنة 1918. لقد تميزت بظهور انقسامات في صفوف العثمانيين اتخذت شكل تيارات فكرية سياسية ثلاث:

[1] محمد الناصر النفزاوي : التيارات الفكريّة السياسية، مرجع سلف ذكره، ص118

[2] عوني عبد الهادي : مذكرات عوني عبد الهادي بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية 2002 ص 48

1 ـ تيار عثماني عربي تركي موغل في المحافظة كان يجد في عبد الحميد مثله الأعلى... ويمثله من المغاربة الطرابلسي سليمان الباروني[1]

2ـ تيار عثماني عربي تركي تميز... بعدواته الشديدة لكل ما يرى فيه إضعافا للدولة... ومن أشهر أعلامه شكيب أرسلان و معروف الرّصافي إلخ ...

3 ــ تيار عربي تركي تأثر بفكرة القومية وأحس بتهافت منطق الإبقاء على الكيانات الكبيرة متعددة الأجناس واللغات ونجد ممثلين له في العرب (العريسي [2] وجماعة المفيد[3] خاصة) وعند الترك (أقجورا وأحمد أغاييف إلخ)[4] وإلى هذا التيار سينتمي محمد علي الطاهر من المفكرين السياسيين والشريف حسين وعبد العزيز آل سعود من السياسيين .

نحن نصنف، إذن، الطاهر، انطلاقا من مواقفه السياسية، ضمن التيار الثالث أي "التيار العربي التركي" الذي مثله من العرب العريسي وجماعة المفيد " وقد دفعنا إلى هذا التصنيف ثلاثة أمور على الأقل .

إنّ الأمر الأول الّذي دعانا إلى مثل هذا التصنيف أن الطاهر كان ممّن يحملون جمعيات تركية « تهدف إلى إحياء التراث التركي... وزر تأكيد القطيعة بين العرب والترك »[5]. يقول محمد علي الطاهر حينما فشلت مطالب الإصلاحات في البلاد العربية « ولكن الترك لم يحفلوا بهذه المطالب بل أعرضوا عنها، وشرعوا ينفذون خطة، كان

---

[1] سليمان الباروني(1870-1940) "ولد ...بطرابلس الغرب تلقى علومه...بجامع الزيتونة...التحق بالأزهر...عيّن نائبا عن طرابلس الغرب في مجلس المبعوثان العثماني ثم عضوا في مجلس الاعيان" أثناء الحرب العالمية الأولى عيّن "قائدا لمنطقة طرابلس"، بعد انهيار الدولة العثمانية اتجه إلى عمان حيث شغل مستشارا في حكومة مسقط [انظر موسوعة أعلام العرب] وانظر في الموضوع: هادية المشيخي، سياسي إباضي مغربي سليمان الباروني، شهادة ماجستير في الحضارة المعاصرة، تونس ك.ع.إ.إ، 2006 (غ.م)

[2] عبد الغني العريسي (1891- 1916) مات ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره وهو أحد الذين أعدمهم جمال باشا في بيروت ودمشق يوم 6 ماي 1916 والتي تضم واحدا وعشرين فردا . وقد كان العريسي على رأس هؤلاء الذين اجتمعوا في باريس وعقدوا مؤتمر 1913 لتثبيت الحقوق العربية والمطالبة بالإصلاحات ، ويعتبر عبد الغني العريسي واحدا من أهم ممثلي الحركة العربية في تلك الفترة [انظر عبد الغني العريسي ، مختارات المفيد، قدم لها ناجي علوش ، بيروت دار الطليعة ،1981،ص ص 10-17]

[3] المفيد جريدة أصدرها عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس سنة 1909 ببيروت ، بقيت تصدر إلى حدود سنة 1915 لاحقتها السلطات العثمانية ، وأغلقتها مرارا بسبب مواقفها المبشرة بعلاقات عربية عثمانية تراعي حقوق العرب وتتجه نحو إصلاحات في البلاد العربية ، وهو ما جعل البعض يعتبرها جريدة رسمية لجمعية" العربية الفتاة" صدرت بأسماء أخرى مثل لسان العرب وفتى العرب [انظر عبد الغني العريسي ، مختارات المفيد ، المرجع السابق ص ص 11 -12]

[4] محمد الناصر النفزاوي : محمد كرد علي المثقف وقضية الولاء السياسي، تونس، دار الجنوب للنشر1993، ص ص 51 -52

[5] المرجع نفسه، ص50

أحمد أغاييف بك وهو أحد كتّاب الترك الذين جاؤوا من روسيا، قد رسمها لهم وهي تتريك العناصر العثمانية توطئة لجعل الدولة تركية بحتة، فألّفوا، لبثّ الروح التركية " الطورانية "بين الترك، جمعيات" تورك يوردو" وأخذت جريدة "إقدام" لا تترك وسيلة للطعن في العرب إلاّ اتخذتها فقالت مرّة إن العرب قوم أوباش يبيعون أعراضهم في سبيل المال " وأرسلت جريدة "طنين" أحد كتّابها المدعو أحمد شريف بك إلى بلاد العرب... فقال في إحدى رسائله عن سورية إذا لم يرض العرب بسياستنا فنحن نبيع سورية ونعمر الأناضول بثمنها "فكانت هذه الأقوال و نحوها... من أكبر الأسباب في خلق شيء سمّي بعد ذلك "مسألة ترك وعرب"[1].

نجد صدى هذا الكلام، أيضا في معرض حديث الطاهر عن ثورة عبد العزيز آل سعود إذ كتب « نهض بها بعد عنعنات قومية و بوادر جنسية تعصبية صدرت من حكام اسطنبول حين تهجّم على العرب بعض كتاب الأتراك الأسيويين...كيوسف أقشورا وأحمد أغاييف فقد نشروا بين الأتراك العثمانيين دعاية قومية كان من نتائجها انهيار الدولة العثمانية »[2]

لمَ ذهب عدد من المثقّفين العرب إلى اعتبار نزعة الجمعيات التركية الإحيائية من أهم الأسباب التي أدّت إلى تصادم"الترك" والعرب وإحداث القطيعة بينهما ؟ إنّ الشوام وخاصة المسيحيين منهم، تربطهم علاقة مزعجة بالجامعة الإسلامية أي بالسلطنة العثمانية لذلك حاربوا السلطنة وحاربوا الخلافة لأسباب دينية في أغلب الأحيان وإن كانت تتخذ مظهر أسباب سياسية أهمها الاستبداد ذلك أن العثمانيين إن كانوا، جدلا، مستبدّين فذلك لأن السّلطنة بلد متخلّف ولا يمكن أن تطالب بالمساواة وحقوق الإنسان وبغير ذلك مما استقر في فرنسا "بلد الأنوار" مثلا. على أن العروبين الإسلاميين فضلوا وهم يقاومون السلطنة التركيز على"العرق الديني" إثارة للعرب وهذا التركيز تسهل ملاحظته عند الطاهر وهو يعدد مآخذه على الحكم الاتّحادي قائلا : هذه الدعاية قامت على حث هؤلاء على الاتجاه نحو التركستان باسم العنصرية الطورانية بدلا من الاهتمام بالبلاد

[1] محمد علي الطاهر: القضية العربية و مشاكل بلاد العرب 1 السياسة عدد 538 ، الخميس 24 جوان 1924.

[2] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص276.

العربية والاتجاه نحو مكة قبلة محمد بن عبد الله"[1]. فهل يعبّر ذلك حقيقة عن أسباب الخلاف الحقيقية أم إنّ الأمر يتعلق بنظرة " قومية عرقية"؟

إن عبد الغني العريسي وجماعة المفيد والفلسطيني محمد علي الطاهر فسّروا الخلاف دينيا رغم أن النزعة القومية عندهم واضحة في كل ما كتبوا فهذا الطاهر يكتب "بدلا من الاهتمام بالبلاد العربية" وهو يؤكد على ضرورة الحفاظ على الأصل العربي الإسلامي مما تدل عليه عبارة "الاتجاه نحو مكة قبلة محمد بن عبد الله " بكل ما تعنيه هذه العبارة من إحالة على قرآن القرن السابع الميلادي باعتباره مصدر ثقافة الحضارة العربية الإسلامية التي تشبث بها التيار العروبي الإسلامي "الّذي يلح على فكرة الأصل العربي والمسلم وعلى فكرة الأصالة بالمعنيين العرقي والثقافي"[2] إلى درجة أضحى معها"الأصل" أي قرآن القرن السابع الميلادي يمثل بالنسبة إلى التيار العروبي الإسلامي نهاية التاريخ، وسبيل التقدّم. هي حضارة لن تمكن لنفسها، في تصور محمد علي الطاهر والتيار العروبي الإسلامي إلا بمقاومة كل ارتخاء في الإنشداد إلى فردوس "مكة قبلة محمد بن عبد الله"، فالخير، كل الخير، للإنسانية ثماره من تلك الجذور والولاء كل الولاء لهذه الأصول. إنها رؤية غير تاريخية أي غير خطية إلى الأشياء وبعبارة أدق هي رؤية فصولية، فالتاريخ، عند الفلسطيني محمد علي الطاهر، يمثل فصولا تعيد نفسها دائما على هيئة تعاقبية.

نفهم من الشاهد "الاتجاه نحو مكّة قبلة محمد بن عبد الله أيضا" أن محمد علي الطاهر " يؤطر الدعوة العروبية الإسلامية في إطار جغرافي محدد هو إطار دولة الإسلام العربية و يجعل من بقية بلاد الإسلام محيطا تابعا للمركز [الجزيري العربي]"[3] وفي هذا إقرار ضمني بوجوب أن يكون الحاكم عربيا مسلما. ومثل هذا الإقرار إنما هو تقيّد بـــ: "شروط شرعية الحكم عند ابن حنبل في القرن التاسع الميلادي [الّذي يقول]: "إنّ الخلافة

[1] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 766.

[2] محمد الناصر النفزاوي : التيارات الفكرية السياسية، مرجع سلف ذكره ص9

[3] -المرجع نفسه، ص 215.

في قريش ما بقي في الناس اثنان ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا نقر لغيرهم إلى قيام الساعة"[1]

لا غرابة إذن، في أن يرفض الطاهر حكم العثمانيين الاتحاديين : فالخلافة عند التيار العروبي الإسلامي مقرها ليس الأستانة، ولا بلاد الشام، ولا مصر، ولا شمال إفريقيا لأنّ سكّان هذه البلدان جميعا يعدّون في نظر الطاهر و التيار العروبي الإسلامي من غير العرب. على هذا الأساس وحده يمكن أن نفهم معاداة الطاهر السلطنة في شقها الاتحادي "اللائكي". فكأنّ الطاهر يهدف إلى إحراج العثمانيين الاتحاديين باعتماد هذه النزعة الصفوية، فمطالبة العثمانيين الاتحاديين بالاتجاه "نحو مكة" إنما يعني في حقيقة الأمر إلحاق الضيم بالأعراق الأخرى غير المسلمة لأن السلطنة " تضمّ العديد من القوميات والشعوب والاثنيات(Ethnies)"[2] ونحن نقصد بالصفوية هنا تأكيد الأصل العربي والمسلم في آن واحد " فبقدر ما كان الإسلاميون يخشون التفرقة الجنسية بين المسلمين كان العروبيون الإسلاميون غير متسامحين حتى مع العرب غير السنيين"[3]. وهي نقطة تجعلنا نميز بين التيار الإسلامي ممثلا في شكيب أرسلان والتيار العروبي الإسلامي ممثلا في محمد رشيد رضا مثلا، أي بين تيار يؤمن بدولة تضم كل المسلمين على اختلاف أجناسهم وأخرى مادتها دولة الإسلام العربية وجغرافيتها "المركـــــــز الجزيري" أي الجزيرة العربية.

إن مغادرة العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر الجامعة الإسلامية التي عبر عنها عداؤه للعثمانيين الاتحاديين إلى مجال أضيق جوهره العنصر العربي تجعلنا نفهم سبب نفور بعض المثقفين المسلمين ممن يرون الخلاص في العروبية الإسلامية من فكرة الجامعة "نفورهم من القومية التركية. ولقد عبر عن هذا الصراع محمد علي الطاهر بقوله" كان الترك[4] يقولون إن العرب هم الأكثرية فإذا نالوا حقّهم فقدنا السلطة تدريجيا وآل الأمر بعد ذلك إليهم وكان العرب يقولون إن هؤلاء الترك لم يكتفوا باستعبادنا وسلب

[1] محمد الناصر النفزاوي: مرجع سلف ذكره، ص 203.

[2] الهادي التيمومي في أصول الحركة القومية العربية (1834 - 1920) تونس دار محمد على للنشر 2002، ص 10.

[3] محمد الناصر النفزاوي ، التيارات الفكرية السياسية، المرجع السابق، ص9

[4] وليلاحظ القارئ استعماله لفظ الترك والحال أن الحكم كان عثمانيا لا تركيا قبل تولى مصطفى كمال الحكم

الخلافة منا بل إنهم يمتهنوننا ويعملون على "تتريكنا" لأنهم يفكرون في إنشاء غير هذه الدولة فما دام ذلك كذلك فكيف نصبر على هذا الضيم و نبقى مكتوفي الأيدي أو يأتي الأجنبي فيحتلّ بلادنا وهى خالية من وسائل الدفاع"[1] ففي ثنايا هذا الكلام تأكيد أنّ الصراع كان سياسيا وإن تقنّع بالدين فعدد من المثقفين العرب الذين حاربوا العثمانيين إنما حاربوهم لأنهم في نظرهم" سلبوا الخلافة منهم "على حد عبارة محمد علي الطاهر، وفي لسان العرب سلب: سلبه الشيء يسلبه سلبا وأستلبه إياه... والاستلاب: الاختلاس[2].

يدل نفي الشرعية عن السلطنة العثمانية على قطيعة نهائية بين الجنسين فقد كتب الفلسطيني محمد علي الطاهر"والحق أن المسألة كانت معقـدة... ولولا إعلان الحرب العظمى لشهد العالم من الترك والعرب شرّا كبيرا لا يستطاع تحديد مداه أو التكهن بنتائجه"[3] ذلك" أن هذا التيار النامي عند العنصريين كان ممثلوه من العرب والترك مؤهلين تاريخيا ومصلحيا للفارق الشاسع بين مطالب الطرفين ، للتصادم الدموي "[4] لذلك فإن الوقوف عند ظاهر الصراع أي السبب الديني لا يفي بالقصد وهو النفاذ إلى حقيقة هذا الصراع.

وقد يتساءل البعض لماذا لم يتحرك الوازع الديني من قبل ولماذا ظل هؤلاء المثقفون العروبيون الإسلاميون الذين يحصرون شرعية الخلافة في العرب دون غيرهم فترة ما من هذه الحقبة متظلّلين بسقف الجامعة الإسلامية دون أن يسمع لهم صوت قبل سنة 1909 - 1910؟

إننا نكتفي بطرح السؤال، ذلك أن القارئ لا شك أنه ربط هذه الدعوة الانفصالية بظهور عجز الدولة العثمانية الاتحادية عن الحيلولة دون اقتطاع أجزاء منها أي أنها رد فعل على أحداث داخلية و خارجية متسارعة (ثورة 13 أفريل الحميدية المضادة ثم عزل عبد الحميد، تزايد مطالب الحكم الذاتي، اقتطاع أجزاء جديدة من الخلافة إلخ) هذا التطور السريع الذي تسبب في تحول الشعور الغالب سواء على الاتحاديين أو على جماعات من

---

[1] محمد على الطاهر القضية العربية ومشاكل بلاد العرب ـ 4 ـ السياسة عدد 548، 5 أوت 1924

[2] ابن منظور: لسان العرب، بيروت دار صادر ، 1997، المجلد الثالث (مادة س ل ب).

[3] محمد علي الطاهر: القضية العربية و مشاكل بلاد العرب ـ 4 ـ ، المقال السابق.

[4] محمد الناصر النفزاوي : محمد كرد علي، مرجع سلف ذكره ص 52

المثقفين العرب والترك من العثمانية الصريحة إلى القومية المتزايدة "[1] و هو ما جعل تلك الأصوات العربية الإسلامية الخافتة تشعر" بتهافت منطق الإبقاء على الكيانات الكبيرة" هذا الشعور نجده عند محمد علي الطاهر، وهذه النقطة هي الأمر الثاني الذي جعلنا نصنف الطاهر من حيث انتمائه الفكري إلى التيار العربي التركي الذي فهم روح العصر وتأثر بفكرة القومية وشعر بتهافت منطق الإبقاء على الكيانات الكبيرة" فقد كتب الفلسطيني محمد علي الطاهر: "حينما تألف المجلس النيابي الذي يسميه الترك "مجلس المبعوثان" جاءت أكثريته من الترك وعدد الترك في المملكة العثمانية أقل من العرب فكيف بنا لو أضفنا إلى العرب العناصر الأخرى التي تتألف منها المملكة كالأرمن والأروام والجركس والألبان"[2] لقد أصيب العرب بخيبة أمل وكأنهم كانوا يتوقعون تطبيق الديمقراطية الغربية في سلطنة ينهش جسدها عديد التجاذبات الداخلية والخارجية ممّا اضطرها إلى أن تحصر سياستها في البحث عن التوازنات. فلا غرابة في أن يحدّد مسار الانتخابات بشكل مازلنا نعيشه اليوم في البلاد العربية والإسلامية أي بعد مائة عام من إجرائها. فقد "قسّمت الدوائر الانتخابية وفرض عدد أعضاء مجلس النواب بتخطيط الجمعية لضمان الأكثرية للعنصر التركي... بل حرصوا على أن يكون المنتخبون من المنتمين إلى جمعيتهم [جمعية الاتحاد والترقّي] وحرصوا على أن يكون نواب البلاد العربية الذين لا يكونون منتسبين إلى جمعيتهم من غير المتحمّسين للقضايا القومية"[3]. لقد رأى ممثلو الحركة العربية في ذلك وضع صغار وانقلاب حقيقي على حقوقهم وكشفا عن نوايا "الأتراك". كتب محمد علي الطاهر قائلا "والحق أن هذه المسألة كانت أولى الأسباب في دخول شيطان العنصرية إلى الجسم العثماني"[4] فهذه أول ورقة تسقط من شجرة" الإبقاء على الكيانات الكبيرة " في خريف "مجلس المبعوثان".

أمّا الورقة الثانية التي سقطت من شجرة الإبقاء على الكيانات الكبيرة كانت في خريف اقتطاع أجزاء جديدة من الجسد العثماني « فلما رأى العرب ضياع مكدونيا

[1] محمد الناصر النفزاوي : محمد كرد علي ، ص 49

[2] محمد علي الطاهر: القضية العربية ومشاكل بلاد العرب 1، مقال سلف ذكره

[3] محمد الناصر النفزاوي: محمد كرد علي ، المرجع السابق، ص ص 47 - 48

[4] محمد علي الطاهر: القضية العربية ومشاكل بلاد العرب 1، مقال سلف ذكره .

وطرابلس الغرب وجزر الأرخبيل قاموا درءا لما قد عساه يقع في الدولة من الفساد، بسبب سوء السياسة وعدم الإنصاف بين العناصر، فطلبوا من الدولة إجراء بعض الإصلاحات في البلاد العربية و قالوا إن الحالة الحاضرة لا ينتج عنها إلا المشاكل، وهذه تجرّ البلاد إلى الوقوع في أيدي الأجانب »[1] وقد بدا هذا الخوف بشكل واضح في بلاد الشام فبيروت كان لها « مقام خاص بين بلاد العرب نشأ عن اعتبارات جغرافية واقتصادية و مذهبية »[2] ولذلك كان دائما يحرك مطامع فرنسا " لصلة قديمة " بدأت بوادرها « من الحركة الجديدة التي ظهرت في فرنسا إزاء سوريا »[3] مما عجّل في مطالب إجراء الإصلاحات داخل البلاد العربية عساها تقف حاجزا يصد المطامع الخارجية من ناحية ويحول دون غلبة النزعة التركية وتمكّنها داخل الدولة « وفعلا اجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها وبحثوا الموقف وأبلغوا الوالي العثماني... رغبتهم في إدخال الإصلاحات العاجلة فرفع الأمر إلى الباب العالي ببرقية طيّرها [كذا] في شهر ديسمبر سنة 1912 و قال فيها: "وإذا لم نأخذ بالإصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من يدنا لا محالة " فأجابه رئيس الوزارة وكان يومئذ الصدر الأعظم كامل باشا بأن يدعو الشعب إلى تقديم مطالبه للنظر فيها »[4]. كان ذلك في عهد الحكومة الائتلافية بقيادة العجوز كامل باشا يقول محمد علي الطاهر«وبينما كانت الأمة تنتظر جواب الأستانة و إذا بالانقلاب الثاني الذي قامت على إثره حكومة الاتحاديين الثانية قد وقع، فبرح كامل باشا الأستانة إلى مصر وعزلت الحكومة المركزية والي بيروت آدهم بك وأرسلت بدله بكر سامي بك (و قد اشتهر بعد الحرب في الحركة الكمالية) وكان من أقطاب الاتحاديين وأبطالهم... والحكومة لم ترسل هذا الوالي إلا لقتل الحركة في مهدها فأخذ يشتغل لذلك بكل همة كان من احتياطات الحكومة لقتل كل حركة وطنية في البلاد أنها أصدرت قانون الولايات... ثم

[1] محمد علي الطاهر: القضية العربية ومشاكل بلاد العرب، 1، مقال سلف ذكره.

[2] أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى ، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، القاهرة مكتبة مدبولي المجلد الأول د. ت ص 26.

[3] المرجع نفسه الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

جعلت مدينة حلب مركزا لفيلق عسكري... زيادة على الفيلق الذي يرابط في دمشق منذ القديم»[1]

لقد مثل انقلاب 23 جانفي 1913 محاولة يائسة للإبقاء على الكيانات الكبـــيـــرة «وتلاشى بذلك آخر أمل لليبيراليين اللامركزيين [ومن ضمنهم الطاهر] في حياة سياسة دستورية »[2] وسقط رابط الأخوة الدينية الذي كان يحلّي جيد السلطنة ويلجم الأفواه التي إن تكلمت رميت بالخروج عن الجامعة وبات الخروج شرعيا بعد أن اتخذت حكومة الاتحاديين إثر الانقلاب الثاني إجراءات تهدف إلى القضاء على كل المثقفين الائتلافيين العروبيين الإسلاميين المطالبين بالإصلاح واجتثاث جمعياتهم وقتلها في مهدها، و هو ما عبر عنه محمد علي الطاهر بقوله "كان من احتياطات الحكومة لقتل كل حركة وطنية في البلاد أنها أصدرت قانون الولايات " كما يفسّر ذلك أمين سعيد في كتابه الثورة العربية الكبرى بقوله « قد اختاروا لكل قطر عربي واليا أو قائدا من أكفأ رجالهم لمحاربة الحركة الجديدة سواء بمقاومتها مقاومة غير مباشرة بتأييد العناصر المعادية لها، أو أساليب أخرى تبعا لظروف الزمان والمكان»[3].

أدرك العثمانيون الاتحاديون أن الطلاق بينهم وبين العرب حاصل، لا محالة، وهو أمر طبيعي في واقع الأحداث المتسارعة في اتجاه قطيعة تاريخية حتميّة نظرا إلى كون رموز الاتحاديين ينفرون من الحكم التيوقراطي نفورهم من العروبيين الإسلاميين والدليل على ذلك تلك القوانين التي أصدروها لمحاربة الحركة العربية المتمثلة في الجمعيات العربية العلنية منها والسرية ومختلف نشاطاتها. إنّه وجدت سلطة تحكم البلاد وهي الاتحاديون ووجدت معارضة لسياسة تلك السلطة وهي الحركة العربية بمختلف جمعياتها. وكما هو الشأن تاريخيا بين كل سلطة تمارس سياسة كفيلة بتمكينها من البقاء والمحافظة على مصالحها ومعارضة تطالب بإصلاحات وبالمشاركة السياسية، فإنّ المعارضة حين تتعرض للإقصاء تسعى إلى الإطاحة بتلك السلطة وافتكاك السيادة منها وهو ما حصل تقريبا في علاقة العرب بالعثمانيين الاتحاديين إذ طالبوا بداية بالإصلاحات

[1] محمد علي الطاهر: القضية العربية ومشاكل بلاد العرب- 2- السياسة عدد 542 29 جويلية 1924

[2] محمد الناصر النفزاوي: محمد كرد علي، مرجع سلف ذكره ص 116

[3] أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، مرجع سلف ذكره، ص 61.

ضمن إطار السلطنة وبالمشاركة السياسية الفعلية في الحكم ولكن حينما فشل مسعاهم فهم المثقّفون العرب أن الاتحاديين لن يتنازلوا عن سيادتهم باسم المساواة و الدّيمقراطية. لذلك كتب محمد علي الطاهر: « و لكن حكومة الأستانة لم تصغ لنداءات هذا الحزب بل أوعزت إلى أعوانها و شياطينها بالطعن على غايته و نعته بالخيانة و رمي رجاله بالمروق و الله يعلم إنهم لكاذبون فضاقت صدور رجال الإصلاح من طيش فتيان الأستانة وحاروا في إرجاعهم إلى المنطق فقام نفر من طلبة العرب في أوروبا فنشروا على الأمة العربية بيانا دعوها فيه إلى عقد مؤتمر عربيّ في باريس للمذاكرة في أمور الأمّة العربية ومطالبها... وهنا لا يسع المؤرخ إلاّ التوقف هنيهة لمعالجة تهمة شائنة وجّهها أنصار الاتّحاديين وأذنابهم إلى هذا المؤتمر... وما ذلك إلاّ لتمكين الترك من الضحك على ذقون المسلمين باسم الدّين والخلافة التي كانت تحلّي جيد دولتهم فنسبوا إلى المؤتمرين الخيانة و الخروج على الدّولة... ولكن لو بحثنا عمن خانوا الدّولة العثمانية لما وجدنا بينهم عربيا»[1]. يكشف هذا النص وجها آخر من وجوه الصراع، هو صراع بين العروبيين الإسلاميين والاتحاديين من جهة و بين العروبيين الإسلاميين (مثال محمد رشيد رضا) والإسلاميين الذين عبّر عنهم الطاهر بأنصار الاتحاديين و أذنابهم[2]، من جهة أخرى، هؤلاء الذين كانوا يقولون بالجامعة الإسلامية و على رأسهم في تلك الفترة الأمير الدّرزي شكيب أرسلان جدّ وليد جنبلاط المعروف في تاريخ لبنان الحالي « شكيب أرسلان الذي يفسّر موقفه بتهافت المعارضة الدّاخلية بل بخطرها عندما تكون الخلافة محاطة بالأخطار»[3]. أما هذا التفسير فهو بالنسبة إلى العروبيين الإسلاميين الذين يعبّر عنهم محمد علي الطاهر فهو" لتمكين الترك من الضحك على ذقون المسلمين باسم الخلافة التي كانت تحلّي جيد دولتهم "فالخلافة بهذه العبارة أصبحت مجرد حلي للزينة أي مظهرا خارجيا فحسب. أما الجوهر فقد فقَدَ الشرعية إذ لم يعد يعبر عن الدولة الدينية القويمة مثلما يراها العروبيون

[1] محمد علي الطاهر: القضية العربية و مشاكل بلاد العرب 2 ، مقال سلف ذكره.

[2] و قد يكون من المفيد هنا أن نذكر من بين " أذناب " الاتحاديين إضافة إلى الأمير الدّرزي شكيب أرسلان ،الشاعر العراقي معروف الرصّافي و السياسي التونسي علي باش حانبه (فيما يخصّ علي باش حانبه يمكن النظر في كتاب الهادي جلاب علي باش حانبه (1876 – 1918) ،سلسلة مناضل وأثره عدد 3 تونس ، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية . ط 2005 ص 43 و علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، المغرب دار الطباعة المغربية د ت ص 44).

[3] محمد الناصر النفزاوي: محمد كرد علي، مرجع سلف ص 36.

الإسلاميون لذلك نرى الطاهر يستغرب من قبول العرب العيش في ظل سلطة لا تعبر عن دولة قويمة يفتقدون فيها أبسط حقوقهم "فأعجب كيف استطاع العرب العيش مع الترك وهم محرومون من حقوقهم"[1] المسألة إذن سياسية إذ مرجع دعاة هذه النظرة الحقوقية العروبية الإسلامية مرتبية سياسية تنزل الجنس العربي منزلة المركز وبقية الأجناس منزلة الأطراف لذلك سنجد هؤلاء العروبين الإسلاميين ينضمون فيما بعد إلى ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية الاتحادية و يعلنون ولاءهم له لأنه «عربي هاشمي » خاصة بعد أن « تمم جمال باشا " عملية" التخلص بكل إتقان (و يقصد إجهاض الحركة العربية بقتل عدد من رموزها ومثقفيها) فساد الرعب في البلاد وقد خلت من كل رأس مفكر لأن الذي نجا من المشنقة تلقفه الجيش وابتلعته نيران الحرب فخمدت أنفاس البلاد، و كان هناك بضعة رجال لم يتناولهم حبل الجلاد ففروا من بلادهم إلى أقصى بلاد العرب... والخلاصة أن جمال باشا لم يبق في البلاد ولم يذر وهيهات للعرب بعد هذا أن يعيشوا مع الترك »[2]

الأمر الثالث أن محمد علي الطاهر اتصل بالعروبي الإسلامي عبد الغني العريسي سنة 1913 ـ 1914، كتب الفلسطيني :« وخلال عامي 1913- 1914 جئت إلى بيروت أيضا واتصلت بالمرحومين الشهيدين عبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي صاحب جريدة ـ فتى العرب ـ التي صدرت بدل جريدة المفيد.و أذكر أنني نشرت فيها يوم ذاك أول مقال جدي في حياتي وكان عنوانه الصهيونيون في فلسطين» [3]

إن العريسي الّذي عرف بعدائه للعثمانيين الاتحاديين وساهم بشكل هام في الحركة العربية لم يتوان لحظة واحدة في الدفاع عن حقوق العرب واستعادة أمجادهم من ذلك أنه حينما هم جمال باشا[4] بإعدامه لم يتراجع عن نفي شرعية كل حكم لا يكون عربيا

---

[1] ـ محمد علي الطاهر: القضية العربية و مشاكل بلاد العرب، عدد3، مقال سلف ذكره.

[2] محمد علي الطاهر: القضية العربية و مشاكل بلاد العرب ـ 5 ـالسياسة عدد 553 ،11 أغسطس 1924.

[3] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 288.

[4] أحمد جمال باشا : كان عضوا بارزا في جمعية الإتحاد والترقي ووزير البحرية في الوزارة العثمانية... منح من السلطات بحكم القانون العسكري ما أصبح بمقتضاه رئيسا للحكومة في بلاد الشام وقائدا عاما للجيش لم يكن أحد أعضاء " تركيا الفتاة " الذين يمثلون جمعية الإتحاد والترقي ويحملون طابعها بل كان من أنصار الجامعة الإسلامية فكان يخالف الداعين إلى الوحدة الطورانية ويظهر إيمانه بالجامعة حدا دفع به إلى إعدام المثقفين الخارجين عن الخلافة والمطالبين باستقلال العرب وهم مجموعتان "تضم الأولى التي وقع إعدامها... يوم 21 أوت 1915 أحد عشر فردا... وتضم الثانية التي وقع إعدامها في بيروت ودمشق في 6 ماي 1916 واحدا وعشرين فردا منهم عبد الغني العريسي وعارف

«يقول أحمد ناصر في ذكرياته إنّ الشيخ وصل إلى عبد الغني ساعة الإعدام وقال له أشهد يا عبد الغني فأجاب بصوت جهوري :أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأشهد أن الخلافة للعرب ، إن شاء الله » [1]

إننا نرجح إذا أن يكون تاريخ انتماء الطاهر إلى هذا التيار الفكري السياسي هو تاريخ اتصاله بعبد الغني العريسي و" المفيد " خاصة إذا علم المرء أن الفترة التي اتصل فيها محمد علي الطاهر (1913-1914) بالعروبي الإسلامي عبد الغني العريسي وبجريدته "المفيد" هي الفترة التي انتقل فيها مقر "جمعية العربية الفتاة "[2] التي يعتبر العريسي أحد مؤسسيها من باريس إلى بيروت «و قد كانت تعمل على استقلال البلاد العربية وتحريرها من السيطرة التركية... وكان مركز الجمعية في باريس ... وبعد أن أنهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا إلى بلادهم فنقلت الجمعية إلى بيروت سنة 1913 ثم نقلت في السنة الموالية إلى دمشق »[3]. فإذا سلمنا أن الإنسان نتاج عصره وأن تفكيره ونشاطه يندغمان في أحداث اجتماعية وسياسية واقتصادية متداخلة فإنه لا يسع المرء إلا أن يقر بتأثير تيار العريسي وجماعة "المفيد" في مواقف الطاهر السياسية.

وقد يزيد من اقتناعنا هذا التأمل في تربة "المفيد" التي كانت «مدرسة تنشر الفكر القومي وتعبئ العرب، وتنقل أخبار الوطن العربي كلّه وتبشّر بعلاقات صحيحة متساوية مع الأتراك ضمن الجامعة العثمانيّة وهو ما يجعلنا نعتقد أنها الجريدة الرسمية للعربية

= الشهابي..." [أنظر جورج انطنيوس يقظة العرب، تاريخ الحركة القومية العربية ببيروت ، دار العلم للملايين الطبعة السادسة 1980 ص 234 - 235 ومحمد الناصر النفزاوي ، محمد كردعلي مرجع سلف ذكره ص 43]

[1] عبد الغني العريسي ، مختارات المفيد، مرجع سلف ذكره ص 15.

[2] جمعية العربية الفتاة كان حلّ الاتحاديين جمعية "الإخاء العربي" سببا في حمل الزعماء العرب على إتباع الوسائل السرية فنشأت عدة جمعيات، منها جمعيات علنية، وجمعيتان سريتان؛ وقد أنشئت الأولى وهي القحطانية في أواخر 1909 أما الجمعية السرية الثانية فكانت جمعية العربية الفتاة وكان مؤسسوها سبعة من الشبان العرب و جميعهم مسلمون؛ هم عوني عبد الهادي، جميل مردم، محمد المحمصاني، رستم حيدر، توفيق الناطور، رفيق التميمي، عبد الغني العريسي .

يقول عنها محمد عزة دروزة "عملت على تثبيت القومية العربية والسعي إلى تحقيق استقلال العرب عن السلطنة وجعلت غايتها " النهضة بالعرب" [انظر محمد عزّة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى، صيدا – بيروت، منشورات المكتبة العصرية، طبعة 1971 ص ص 480 – 510. وجورج أنطونيوس" يقظة العرب "، مرجع سلف ذكره ص ص 185-192]

[3] جورج أنطونيوس، يقظة العرب، المرجع نفسه، ص 188.

للفتاة»[1] ذلك أنها تأسست سنة 1909، بعد سنة من ثورة تركيا الفتاة (سنة 1908) وإعلان الدستور ومساوقة لخلع السلطان عبد الحميد سنة 1909[2] فكان بذلك هاجس المفيد ومن ثم" لسان العرب" و"فتى العرب" و"تعزيز الجنسية العربية"[3]. لقد طبع الفلسطيني محمد علي الطاهر أثناء هذه الفترة (1913- 1914) من وجوده ببيروت بـــ :

1 / ملامح تفكير عبد الغني العريسي العروبية الإسلامية، إذ زرعت البذرة الأولى لتفكير سياسي ذي نزعة عربية مشبعة بروح إسلامية، سوف تؤكدها الأحداث التاريخية المفصلية لفلسطين وللعالم العربي و الإسلامي لاحقا.

2 / نزعة المفيد المعزّزة "للجنسية العربية" الملتزمة بجميع قضايا العالم العربي وخصوصا فلسطين،[نجد في نزعة "الشورى" عند تأسيسها ما يؤكد هذا التأثر]

3 / تشبع الطاهر بروح عدائية تجاه العثمانيين الاتحاديين واندغامه في موقف الشوام من الجامعة الإسلامية ولا غرو في ذلك و الشاب شاميّ.

ونحن نجد فيما كتب الفلسطيني محمد علي الطاهر أثناء الحرب الكبرى ما يؤكد هذا الاتجاه الّذي يقول: "كنا في أيام الحرب العظمى نشهر العداء لدولتنا العثمانية المسلمة وننادي بمحالفة الانجليز والاعتماد عليهم والوثوق بهم ليساعدونا نحن العرب على الاستقلال"[4]

لقد عبر الطاهر عن موقفه السياسي ولم يتجاوز بعد العشرين من عمره وسط مرحلة تاريخية مضطربة وضبابية من جهة الرؤى الفكرية السياسية، اشتد فيها الصراع بين دعاة الجامعة الإسلامية والرافضين البقاء تحت سقفها ليعلن انتمائه إلى التيار العربي التركي المتأثر بفكرة القومية.

---

[1] عبد الغني العريسي : مختارات المفيد ، مرجع سلف ذكره ص 12

[2] المرجع نفسه ص 8

[3] المرجع نفسه ص15

[4] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 570

فريق من شهداء العرب

أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى

لقد حارب العروبيّون الإسلاميون الدولة العثمانية الاتحادية ووصفوها بالدولة الطورانية حتى يتمكنوا من تبرير توجيه أنظارهم إلى أرض الحجاز حينما نهض الشريف حسين محاربا "الأتراك " بعد أن رأوا فيه الترياق الشافي ولكن هل انفرد الشريف حسين بصفة "الرمز" في الجزيرة العربية حتى يلتف العروبيّون الإسلاميون حوله بداية من الحرب الكبرى ؟

إننا نعرف أنه كان هناك في الجزيرة العربية "سياسي " لا يقل طموحا عن الشريف حسين نقصد عبد العزيز آل سعود المدعوم بـ "جيش الإخوان". ولسوف يشتد الصراع بين هذين السياسيين حتى ينتهي سنة 1924 بسقوط مكة مما سبب أزمة ولاء جديدة عند العروبيين الإسلاميين توزعت في البداية على العاهلين العربيين الإسلاميين.

إن الغرض من الفصل الثاني من هذا القسم هو تتبع مواقف محمد علي الطاهر من صراع سياسي لن ينتهي في النصف الأول من العقد الثالث من القرن العشرين بسقوط الدولة الهاشمية فحسب ولكن بإلغاء الخلافة نفسها في "الأستانة".

الفصل الثاني

محـمـد علـي الطاهـر فـي خـضـم الصراع العروبي الإسلامي بين آل حسين وآل سعود (1916 - 1924)

الملك حسين والبلاد العربية

صورة رمزية نشرت في أوج العهد الهاشمي في الحجاز

هادية المشيخي: سياسي إباضي مغربي، مرجع سلف ذكره.

هاجر محمد علي الطاهر إلى مصر مع اندلاع الحرب الكبرى(1914 - 1918) وفي ذلك كتب « الواقع أنني هربت من يافا عام 1914 رغما عني وذلك فرارا من بطش إقطاعيين مجرمين من آل جبري كانوا قد خنقوا في دارهم ابن عم لهم جاء من الشام ليحاسبهم على مال... فحملت عليهم في جريدة الإقدام... فهددوني بالقتل وأقاموا علي دعوة جنائية عمادها السطو بالسلاح على البيوت... برأت الهيئة الاتهامية ساحتي بدون أن أسجن وسافرت إلى مصر لئلا يحاول هؤلاء القتلة اغتيالي »[1]. ونحن نعتبر ما ذكره الطاهر عن أسباب هجرته إلى مصر هو السبب الظاهر غير المباشر. أما السبب الحقيقي فقد يكون نتيجة خشيته من اضطهاد اتحادي وهو الذي عرف بعدائه للاتحاديين أي مناصرته موضوعيا للانجليز. ودليلنا على ذلك أن هؤلاء أطلقوا سراحه بعد اعتقاله سنتين بمعتقل الجيزة (1915 - 1917) فعاد إلى فلسطين واستقر بها وساهم في تحرير جريدة" سوريّة الجنوبية " قبل أن يعين مديرا" للبريد و البرق" في نابلس.

وأيا كان الأمر فإن أخذه بالعروبية الإسلامية التي كانت تدعمها بريطانيا هو الذي قاده إلى الانحياز لشريف مكة منذ أن أعلن ثورته على العثمانيين الاتحاديين سنة 1916. ونحن نجد في الشورى ما يؤكد ذلك " كان الملك الحسين في أول عهد الثورة على الترك، قبلة أنظار العرب و مهوى أفئدتهم، وكان هذا الشعور ناشئا عن أمرين، أولهما افتتان العرب بإعادة مجد الآباء على يد ملك عربي، وثانيهما الخوف من ضياع مستقبل الأمة العربية ضياعا كاملا وكان هذا الفريق يقول نحن نتعلق بالملك حسين لتبقى شخصية الأمة غير خاملة على الأقل إلى أن يحين الحين و يقيض لها الله رجلا ينهضها من عثراتها "[2]

وسرعان ما توترت العلاقة بين الصحفي محمد علي الطاهر و السياسي حسين بن علي فكانا يناقشان معا تطور الأحداث. يقول الشريف حسين مخاطبا محمد علي الطاهر «يرمينا البعض من إخواننا بالخروج على دولة الخلافة فيا سبحان الله. ألم يحارب إخواننا المسلمون... دولة الخلافة إنّهم حاربوها بلا هدف يرمون إليه أو غرض يطلبون

[1] محمد علي الطاهر: خمسون عاما ، مصدر سلف ذكره ص 289

[2] الملك حسين والسلطان ا بن سعود " الشورى عدد- 1 - 23 أكتوبر 1924

تحقيقه وأمّا نحن العرب فإنّنا كنّا آخر من قام، ولكن على طغاة الاتحاديين الذين احتقروا العرب واحتقروا لغة القرآن وأخذوا بإحياء القوميّة الطّورانية واللغة الطورانيّة... ثم اشتغلوا بظلم العرب فأمعنوا وأسرفوا فقتلوا خيار الشّام وصلبوا أكابر العراق وقد اشتدّ على الأمّة البلاء... كنّا على هذا الحال، وكان الأجنبي مع ذلك يدعوني إلى الخلاص وإنقاذ الأمّة العربيّة وإعادة مجدها والرّسل تأتيني من الشام والعراق تستغيث بي، وتستصرخني وتستحلفني للقيام على طغاة الاتحاديين، فكيف أصبر والحالة على ما وصفت وبأي وجه ألقى ربّي وقد تهيأت أسباب الإنقاذ من ذلك البلاء»[1]. يبيّن هذا الشاهد أن العروبيّين الإسلاميين من الشوام ومن غيرهم كانت علاقتهم بالجامعة الإسلامية متوترة، فقد حاربوا السلطنة والجامعة الإسلامية لأسباب سياسيّة بالأساس رغم أنّهم ادّعوا أنّ من أسباب هذا الصراع سببا دينيّا.

إنّ هذا ما نجده عند المثقفين العروبيين الإسلاميين أمثال عبد الغني العريسي، ومحمد رشيد رضا ومحمد علي الطاهر وعند عدد من الرموز السياسيّة كالشريف حسين بن علي ولذلك حينما قامت ثورة الحجاز (1916) اعتبرها دعاة العروبيّة الإسلاميّة الترياق الشافي الذي سيعيد إلى العرب أمجادهم ذلك أنّ الصّراع العرقي بين العرب وبقية الأجناس المسلمة مثل الترك والإيرانيين هو في الحقيقة صراع ضارب في القدم لأن المرء يمكنه حينما يقلب النظر في التاريخ الحديث والمعاصر أن يستعيد وجها من وجوه هذا الصراع القديم فـ" قد أحس كثير من المسلمين السنيين في القرنين التّاسع والعاشر الميلاديين ببداية تحول الحكم الفعلي من العرب إلى غيرهم من الأجناس المسلمة الأخرى. وقد عبّر عن هذا التحول فكريّا تغلّب المذاهب غير السنية على المذهب السنّي وانتشار الفلسفة انتشارا لم يسبق له مثيل فدفعهم هذا الإحساس إلى ردّة فعل سنيّة محافظة عبّر عنها في القرن التاسع الصراع بين الحنابلة وبين القدريين(المعتزلة)»[2]، مثلما عبّر عنها "الصّراع العربي الإيراني الذي هدف إلى ضبط العلاقة بين العرب وبقيّة الأقوام الأخرى المسلمة فقد عبّر الشاعر المتوكّلي في (معجم الأدباء / 1 / 323) عن رفض

[1] محمد علي الطاهر: خمسون عاما ، مصدر سلف ذكره ص 789

[2] محمد النّاصر النفزاوي الدولة و المجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده – فرح أنطون، تونس، مركز النشر الجامعي، 2000، ص13.

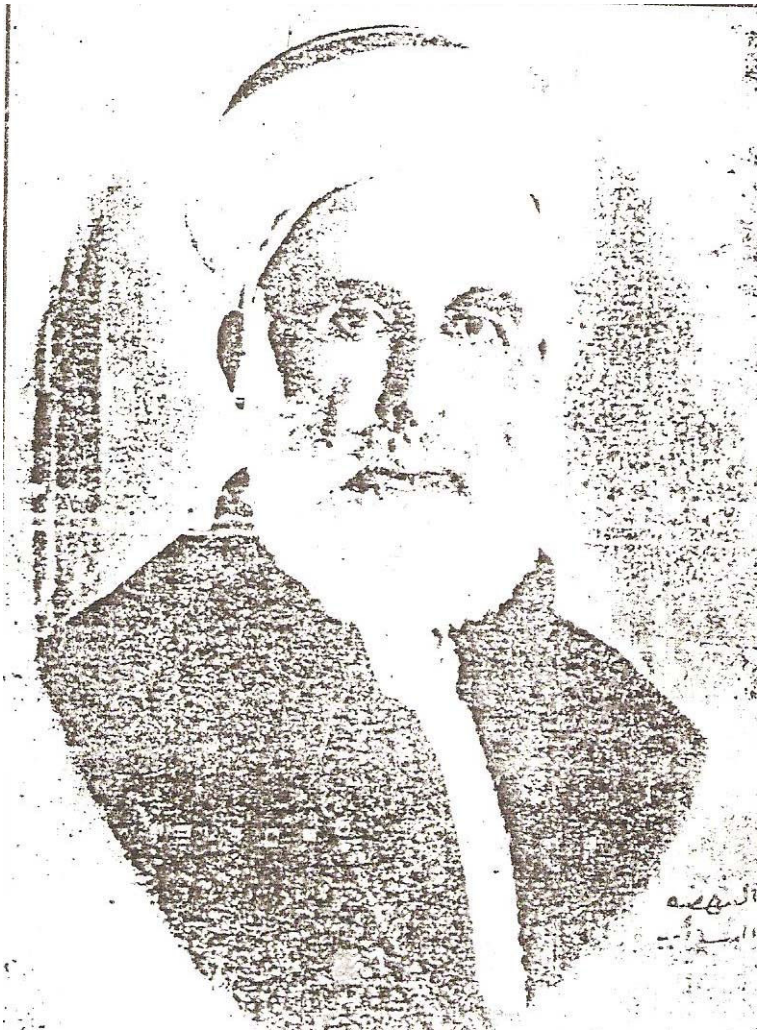

الملك حسين

أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى مرجع سلف ذكره.

المسلمين من غير العرب أن يكون العرب أوصياء عليهم باسم الدّين"[1] في الأبيات التالية :

فقل لبني هاشم أجمـــــعين هلمّوا إلى الخلع قبل الـنـــدم

ملكناكم عنوة بالرّمـــــــا ح طعنا و ضربا بسيف خدم

وأولاكم الملك آباؤنـــــــا فما أن وفّيتم بشكر النـــعـم

فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضّباب و رعي الـغـنـم[2]

إن وضع الصّغار الذي عاشه العرب المسلمون السنّيون في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وصراعهم ضدّ المسلمين من غير العرب هو الذّي ظهر من جديد في القرن العشرين على هيئة صراع بين العرب والترك وبلغ أقصاه في ثورة الشريف حسين وظهور القوميّة العروبيّة الإسلاميّة أثناء الحرب العظمى عندما اتّجه التفكير العروبي الإسلامي وجهة حصر شرعيّة الخلافة في شخص حسين بن علي الذي كتب عنه محمد علي الطاهر أنّه « سيّد العرب وابن سيّدهم » وإنّه « ذو عينيين جميلتين براقتين تشفّان عن ألمعيّة وذكاء وقدرة فما شككت في أنّه خلق ليحكم بلاده»[3] ففي الشاهد الأوّل موقف يعبّر عن رؤية سياسيّة حنبليّة تتمثل في ضرورة حصر الحكم في العرب المسلمين. إنّها نظرة تراتبيّة تفاضليّة مفادها « الخلافة في قريش ما بقي في النّاس اثنان» وفي الشاهد الثّاني حصر للحكم في حدود جغرافيّة محدّدة وتأطير للدّولة العربيّة المسلمة فقوله «ليحكم بلاده» إنما يقصد بذلك الحدود الجغرافيّة التي كان قد حدّدها الشريف حسين (وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بمقولة «الخلافة في قريش») في البرقيّة التي بعث بها الملك حسين إلى مندوبه في القاهرة (22 ديسمبر 1916) قائلا : « كرّرت تشبثاتي مع ولاّة الأمور الأنكليز فبيّنا أن لفظة ملك العرب ليس عامّة كما يظنّون، أنّها لا تشمل مصر والجزائر وغيرها، بل المقصود منها ملك البلاد العربيّة »[4] معنى ذلك أنّه لا إقرار بشرعيّة حكم العثمانيين، والمصريين والشاميين أو الشمال إفريقيين، ولا مقرّ للخلافة لا

[1] محمد الناصر النفزاوي: الدولة والمجتمع، مرجع سلف ذكره، ص 22.

[2] المرجع نفسه الصفحة نفسها.

[3] محمد علي الطاهر: خمسون عاما ، مصدر سلف ذكره ص 788

[4] أمين سعيد: الثورة العربيّة الكبرى، مرجع سلف ذكره المجلّد الثالث ص288

في الأستانة ولا في القاهرة ولا في دمشق وقد يزداد الأمر وضوحا حينما يتأمل المرء البرقيّة الثانية التي أرسلها الشريف حسين إلى معتمده بمصر وفيها يقول: «إذ أنّ مصر ليست من البلاد العربيّة وتونس والجزائر بطريقة أولى»[1]

إنّ هذه الحدود السياسيّة والجغرافيّة لدولة عربية مسلمة شبيهة بالدولة العربيّة المسلمة التي انهارت مع بداية الدّور العبّاسي، التي ضبطها حسين بن علي ستكون مرجع المثقّفين العروبيّين الإسلاميين والرموز السياسية العروبية الإسلاميّة على حدّ سواء.

غير أنّ الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر، تماما مثل محمد رشيد رضا، سوف يحوّل ولاءه بعد فترة من الشريف حسين و العائلة الهاشميّة في الحجاز إلى عبد العزيز آل سعود في نجد أي عندما شبّ الصراع المعروف بين العرشين التقليديين الهاشمي والوهّابي الذي سيؤول إلى سقوط مكة سنة 1924 ثم المدينة سنة 1925 في أيدي الوهابيين فبمَ نفسّر ذلك ؟

كتب محمد علي الطاهر حول الخلاف السّعودي الهاشمي قائلا: «إنّ مشكلة الخلاف بين السعوديين والهاشميين يمكن حلّها بترك التفكير من الجانب الهاشمي المتطرف في إخراج السعوديين من الحجاز لأن الدّنيا العربيّة مشغولة الآن في استرداد فلسطين من اليهود وأمّا الحجاز فإنّه في أيدينا ولا يهمّ النّاس أمر من يحكمه ما دام في حوزة العرب فالبيت الهاشمي منّا و البيت السعودي منّا... وإذا كان العالم العربي يسأل اليوم أحد الأسلاف عن ضياع أهمّ مناطق فلسطين نحن ننتظر من الملك حسين أن يعمل على استرجاع تلك المناطق التي ضيعت عمدا وسنكون كلّنا من جنوده نسير خلفه ونؤيّده و ندعو بتوفيقه »[2] إنه موقف تحكمه، شأنه في ذلك شأن جميع مواقف البشر، مصالح ودوافع لأن الانكليز حينما اتفقوا مع الشريف حسين على الثورة على العثمانيين الاتحاديين وحملوه على مغادرة سقف السلطنة رغّبوه في رئاسة دولة عربيّة مسلمة فأغترّ بترغيبهم يقول الطاهر « لا شكّ في أن تلويح الإنكليز للملك حسين بالدولة العربيّة وإعادة مجد العبّاسيين وعظمة الأمويين كان أعظم ما ساعدهم على إثارة الملك حسين على

[1] أمين سعيد:الثورة العربيّة الكبرى، مرجع سلف ذكره المجلّد الثالث ص 289

[2] محمد علي الطاهر: خمسون عاما ، مصدر سلف ذكره ص 900

الترك... أمّا العهود التي أعطاها الانكليز للملك... فإنّها تتلخص في إعطاء الملك حسين جزيرة العرب كلّها بما فيها سوريّة وفلسطين » [1] لكنهم نكصوا على أعقابهم بعد الحرب وراحوا يقترحون معاهدة لا تحقق مصالح الفلسطينيين عكس ما ذهبوا إليه قبيل الثورة والحرب،« إلاّ أن حكومة فلسطين مزّقت حجاب الصمت فنشرت بموجب بلاغ رسميّ أذيع في القدس يوم5 يونيو 1923 خلاصة وافية للمعاهدة»[2] جاء في المادّة الثانية منها : أن جلالة ملك بريطانيا يتعهد بالاعتراف باستقلال العرب في العراق وشرق الأردن والولايات العربيّة في شبه جزيرة العرب ماخلا عدن وأن يعضد هذا الاستقلال، أمّا فيما يتعلق بفلسطين فإن صاحب الجلالة البريطانيّة يتعهّد بأن لا يجرى شيء في هذه البلاد يمكن أن يجحّف بحقوق أهلها العرب المدنيّة أو الدّينيّة »[3]. ويبدو أن هذا الأمر هو الذي حوّل ولاء الطاهر إلى نجد عبد العزيز آل سعود و نتبين ذلك من خلال أمرين اثنين:

الأول ردّة فعل الفلسطينيين على المعاهدة التي لا تحقق لهم النّجاة من نير الاستعمار البريطاني و اليهودي لذلك كتب الطاهر:« أعطوا الملك حسين هذه الوعود بينما كان السير مارك سيكس[4] ... يفاوض الميسيوجورج بيكو[5]...على تقسيم البلاد العربية بين فرنسا وانجلترا...وفيما كان هذا يجري في مصر كان المستر بلفور...يساوم الدّكتور ويزمن[6] الزعيم الصهيوني على إعطاء فلسطين اليهود وجعلها وطنا قوميّا

---

[1] محمد علي الطاهر: القضية العربيّة و مشاكل بلاد العرب -5، مقال سلف ذكره

[2] أمين سعيد: الثورة العربيّة الكبرى، مرجع سلف ذكره المجلّد الثالث ص 168

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] مارك سايكس : نائب في مجلس النّواب البريطاني و المندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى و لمفاوضة فرنسا وروسيا في مستقبل البلاد العربيّة حيث تم التوقيع سنة 1916 على الاتفاقية التي عرفت باسم المتفاوضين الرئيسيين فيها (انظر أمين سعيد الثورة العربيّة الكبرى ، المرجع السابق، المجلّد الأول ص184-186 و الموسوعة العربيّة الفلسطينيّة، المجلّد الثاني (ج ش) دمشق هيئة الموسوعة الفلسطينيّة، ط 1984 ص ص534-535)

[5] جورج بيكو قنصل عام لفرنسا في بيروت سابقا و مندوب سامي لمتابعة شؤون الشرق الأدنى، و لمفاوضة الحكومة البريطانيّة و الرّوسية في مستقبل البلاد العربيّة، حيث توصل إلى توقيع اتفاقية1916 التي عرفت بمعاهدة سايكس بيكو لاقتسام الدولة العثمانيّة [انظر المرجعيين السابقين].

[6] حاييم وايزمان: (1874-1952) Haim Weizman.، زعيم صهيوني و عالم كيميائي و أول رئيس لدولة إسرائيل... شارك في المفاوضات الصهيونيّة التي أسفر عنها... وعد بلفور والذي التزمت بموجبه بريطانيا بتبنّي فكرة إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين [انظر موسوعة السياسة، الجزء السابع. بيروت المؤسسة العربية للدراسات و النشر ط 1994 ص 254-255]

لهم »[1] . ما أشدّ ما كان وقع ذلك على الفلسطينيين وعلى كلّ نفس مؤمنة " بالوطنيّة". إنّه لن يبقى أمامهم سوى تمزيق الصّمت يقول أمين سعيد:« لذلك أرسل موسى كاظم باشا الحسيني كتابا إلى الحسين لفت فيه نظره إلى مخالفة المعاهدة للعهود المقطوعة للعرب. ولمّا عقد الفلسطينيون مؤتمرهم السادس في يافا يوم 16 يونيو 1923 لبحث مشروع المعاهدة قرر باتفاق الآراء رفضها لأنّها تناقض العهود المقطوعة للعرب و لحقوق الشعب الفلسطيني والمطالبة بإلغاء السياسة الصهيونيّة إلخ و اختار المؤتمرون في أثناء اجتماعه وفدا للسفر إلى لندن والاشتراك في المفاوضات التي تدور بين مندوب ملك الحجاز والحكومة البريطانيّة للاتفاق على صبغة المعاهدة النهائية باسم فلسطين»[2]. لم يقبل الفلسطينيون، ومن ضمنهم محمد علي الطاهر المعاهدة إذ زار الملك حسين بن علي في الحجاز مستفسرا عن حقيقة المعاهدة، يقول :« كان أول شيء سألت عنه جلالة الملك مسألة المعاهدة " المعاهدة العربية الانجليزية " فقال : يشيعون إنّي وقعت المعاهدة التي نشرت حكومة فلسطين حقيقتها فهل يعقل أن أمضي أمرا يمكن أن يضر بإخواني أهل فلسطين... لقد أدخلت على المعاهدة تعديلات كثيرة تضمن لفلسطين حقوقها كاملة و إلاّ فصرّح على لساني بأنّه لا معاهدة ولا اتفاق أبدا »*.

إنه لا يمكن للمرء أن يفهم أبعاد المسألة التي غيّرت ولاء محمد علي الطاهر من حسين بن علي إلى عبد العزيز آل سعود إن لم يستحضر مفهوم "الوطنيّة الحديث" و لو تعلّق الأمر بمرحلة لم تتشكل فيها بعد ملامح المفهوم بشكل نهائي في أغلب البلدان العربيّة.

أمّا الأمر الثاني الذي نفسّر به تغيّر ولاء الطّاهر فهو رفض طريقة الوحدة التي أعلنها الشريف حسين و المعاهدة العربيّة الانجليزية فيوجزه الطاهر على النحو التالي بقوله: "إنّما مساعي الملك حسين لم تتعدّ حدّ التمنّي و ذهب بعضهم إلى أنّ الحسين لا يرغب في هذا الحلف وهو إنّما نادى بوحدة بتراء تضمّ فقط الحجاز وشرق الأردن وفلسطين وليت هذا بإمكانه لأن العراق يعيش تحت الحماية البريطانيّة و كذلك شرق

[1] محمد علي الطاهر: القضية العربيّة و مشاكل بلاد العرب -5، مقال سلف ذكره، ص 789.

[2] أمين سعيد الثورة العربيّة الكبرى. مرجع سلف ذكره المجلّد الثالث ص 171

الأردن وأمّا فلسطين فإنّها في مركز غريب استثنائي بوجود وعد بلفور والصهيونيّة إلى جانب الاحتلال الانكليزي... فإذا كنّا نريد الوصول إلى الوحدة العربيّة فيجب أن يبدءوا قبل ذلك بإيجاد حلف عربي قويّ لا سلطان للأجانب عليه فإن ظفر العرب بهذه الأمنية صار الوصول إلى الوحدة في حيّز الإمكان. »[1]

إن الطاهر لم يكن يعادي العروبيّة ، و نعني القوميّة العربيّة التي بدأت تتشكّل على يدي ساطع الحصري منذ عشرينات القرن العشرين وإنّما كان يفضّل عليها عروبيّة مشبعة إسلاما ،و لم يكن يعادي أيضا الوطنيّة وإن كانت الوطنيّة في نظره لا تكون إلا في إطار عمل عربي إسلامي موحد لا سلطان للأجانب عليه لأنّه كما يقول أحمد بن سوده مستشار ملك المغرب الحسن الثاني « كان يدرك أن قضايا ومشاكل [كذا] العالم العربي والإسلامي لن تحلّ بتفريقها وتباعدها وإنّما قضية واحدة وإن المأساة التي حلت بفلسطين موطنه وبلده لن تجد حلّها إلاّ في إطار تضامن إسلامي وعمل عربي واحد ومتّحد.»[2] لذلك كان الطاهر يحمل مبادئ العروبة والإسلام باعتبارها أولا عقيدة آمن بها وباعتبارها ثانيا طريقا للدّفاع عن فلسطين بلده الذي يبتلعه الاستعمار البريطاني والصهيوني يوما بعد يوم، وكذلك سبيلا إلى خلاص العالم العربي والإسلامي من نير الاستعمار.

وعندما لم يجد في العروبية الإسلامية الهاشميّة الترياق الشافي كما أمل العروبيّون الإسلاميون وجه نظره إلى نجد و ملكها يقول الطاهر: "قام السلطان عبد العزيز بن سعود... باجتياح الحجاز والعسير حيث أزال عرش الهاشميين والأدارسة بعد أن أزال قبل ذلك إمارة آل الرّشيد في نجد الشمالية وإمارة آل عايض في أبها التي تقع بين الحجاز والعسير، فالظاهر أنّ ابن سعود يريد أن يمشي نحو الوحدة على طريقته الخاصّة التي هي عمليّة وفعليّة ولا تنتظر الوحي من الانكليز ولا من الجرائد »[3]. فموالاة الانجليز هي المأخذ الأساسي على الشريف حسين الذي "ظلّ ينتظر الوحي من الانجليز" وبالتالي فإنّ مساعيه "لم تتعدّ حدّ التمنّي"، فحماسة الطاهر "الوطنيّة" ونقصد به جرحه الفلسطيني وهمّه العربي الإسلامي هما الذان وجّهاه وجهة سعوديّة وقد عبّر عن ذلك حينما كتب عن

[1] محمد علي الطاهر:خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص ص 275- 276

[2] سميح شبيب: محمد علي الطاهر، تجربته الصحافية، مرجع سلف ذكره ص 4.

[3] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 277

غزوة الوهابية لشرق الأردن في جريدة السياسة سنة 1923 :« وهنا يرد علينا هذا السؤال: وهو كيف كان شعور الفلسطيني حول هذا الهجوم على الأردن؟ والجواب على ذلك أن شعور سكّان فلسطين حيال حركات الوهابيين هو شعور الغريق عندما يلمح وهو في الماء قطعة من الخشب، وبعبارة أوضح أنهم ينظرون إلى الوهابيين نظرهم إلى منقذ يتوقعون منه إنقاذهم من الانتداب الانكليزي وتخليصهم من كابوس الصهيونيّة"[1]

ويتضح أمر هذا الجانب النفعي في كلام الطاهر حينما التقى ابن سعود بعد ذلك التاريخ، أي سنة 1945 بالقاهرة إذ يقول: "يا صاحب الجلالة إن فتيان العرب كانوا قبل الآن بنصف قرن وفي أيام الحكم التركي يشيدون بذكرك... وكنّا نقول في أهازيجنا :

هيـــــا بنـــا هـيـا بـنـا يا ابن السعود يا عزّنا

يا ابن السعود أنت العميد يا ابن السعود يا عزّنا

كان هذا منذ نصف قرن أمنية و الحمد لله الذي جعله الله اليوم حقيقة فأنت اليوم ملاذ الجزيرة العربيّة... ولكن هناك نكبة فلسطين التي لا عزاء لها فنناشدك العروبة أن تسعى لإنقاذها.»[2]

و يمكن للمرء أن يضيف إلى هذه العوامل السياسيّة التي فسّرنا بها تحول ولاء الطاهر عاملا آخر لابدّ من ذكره لدعم أسباب تغيّر ولاء الطاهر من الهاشميّة إلى الوهابية وهو عامل عقدي بالأساس يمكن أن نتبيّنه من حديثه عن الهجمة الوهابيّة على شرق الأردن إذ كتب قائلا: "المذهب الحنبلي الوهابي بات اليوم معروفا للنّاس و أصبح له من الأنصار المريدين ما يجعل البعض يتوقّع له مستقبلا عظيما... فإذا كانت البروتستانتية في العالم المسيحي قد طوحت بعض الخرافات جانبا وعدّها أنصارها حركة إصلاحية في الدّين المسيحي فإنّ الوهابيّة هي العدوّة لمعظم البدع التي جعل المخرّفون بينها و بين الدّين الإسلامي صلة ونسبا... فكما أن الترك قد قضوا على الوهابيّة التي أشبّهها بالنسبة إلى الأمة العربية بقبس من نور سطع في قلب الجزيرة... فمضى نحو قرن وإذا بالوهابيّة تعود وهي أقوى ممّا كانت وأعزّ جانبا"[3].

---

[1] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 277.

[2] المصدر نفسه ص 144

[3] المصدر نفسه ص 275.

نحن نتساءل عن سبب اعتبار الطاهر المذهب الحنبلي الوهّابي حركة إصلاحيّة ذات مستقبل في الجزيرة العربية وفي عدد من البلدان العربيّة؟ والحقيقة أن أثر الحركة الوهابية السعوديّة قد تجاوز، نتيجة انتصارات عبد العزيز آل سعود المشرق إلى بعض بلاد المغرب[1]، فهل أن الطاهر كان متأثرا بكتابات غوستاف لوبون ؟[2] أم أنّ ذلك لأسباب عقديّة مردّها إلى أنّه كان موغلا في التقليديّة بحكم نشأته التقليديّة الأولى مما متّن الخيط الحنبلي في تفكيره.

إن الشاب محمد علي الطاهر قرأ الإسلام قراءة حنبليّة وهّابيّة، إذ انتصرت هذه الحركة في بيئة نجد التي تختلف عن البيئة الشاميّة ومن هنا نفهم أنّه لا يقرّ بالاختلاف بين بيئة وأخرى وبين فهم و آخر، بل هو يرى أن الإسلام الوهابي «هو قبس من نور أضاء الجزيرة العربية» وهو إسلام مثلما رأينا يندغم اندغاما تاما في الإسلام الحنبلي، الذي يقوم على النقل وينفر من العقل «إذ ماذا يعني النّقل عند ابن حنبل إن لم يكن يعني... إنشداد الطبيعة إنشدادا كليّا إلى الله... وبما أن الله الذي وقع تصوّره بهذه الصورة حاضر في نصّ القرآن الذي تستند إليه الدّولة في حكمها وهي "دولة الإسلام العربيّة" فإنّه لا يوجد فضيلة اجتماعيّة تفضل فضيلة الطّاعة ونبذ التعدّدية الفكرية».[3]

ويوظف الطاهر " صفة الطاعة " توظيفا إيجابيّا إذ يعتبرها دليلا مبرئا لبدو الجزيرة العربيّة من صفة " الفوضى" «يقول البعض إن طباع الأعراب تتنافى مع الحياة الاجتماعيّة بالنظر لبداوتهم [كذا] وأنفتهم عن الخضوع لرئيس واحد وهم سيشهدون على هذه النظريّة بنظريات ابن خلدون... ولكن ما قول القرّاء في خضوع هذه الأقوام العربيّة الوهابيّة لسلطان ابن سعود طاعة صمّاء»[4] بل يوظفها وطنيّا فلسطينيّا حذرا منه من كثرة الأحزاب في بلد مثل فلسطين مهدّد بالاستعمار الصّهيوني يقول : «أهم مواضيع السياسة الآن بفلسطين مسألة الحزب الجديد الذي شقّ وحدة الأمّة... فاجتمعت بأحد ألسنتهم... قلت

---

[1] انظر ماجستير منال الشرعبي بعنوان : « أثر الحركة الوهابيّة السعوديّة في الحركة السلفيّة الجديدة في مرّاكش» إشراف محمد الناصر النفزاوي، تونس، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية. 2007. (غ.م.)

[2] " لقد بين غوستاف لوبون منذ ثمانينات القرن التاسع عشر أن الثقل العروبي الإسلامي (وموقعه في الجزيرة العربيّة) هو الثقل الحاسم" وتحديدا ثقل الوهابيين [لمزيد الاطلاع انظر محمد الناصر النفزاوي، التيارات الفكريّة السياسية، مرجع سلف ذكره ص 239]

[3] محمد الناصر النفزاوي: الدولة و المجتمع، مرجع سلف ذكره ص 14

[4] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 276

لمحدّثي أأنت يا صديقي الذي يقوم منذ شهور بنشر الدعوة لتأليف حزب جديد حرّ معتدل؟ " قال بلى... فقلت إنّ الوفد وجمعياته ومؤتمراته لم يتأخّروا ولم يقصّروا في تأدية الواجب نحو خدمة الأمّة فقال كلاّ بل يجب تأليف حزب ولا ضرر من الأحزاب... فقلت... فكيف يجوز ونحن نسبح في هذا البلاء أن نؤلف أحزابا وننقسم شيعا و نتفرّق إلى طوائف وفرق»[1] وقد يلجأ الطاهر إلى استعمال لفظ « الخوارج » في معنى استهجاني كلّما تعلّق الأمر بالأحزاب السياسية [نجد ذلك خاصة في القسم الثاني من البحث الذي يتناول الطاهر وساسة بلاد المغرب حيث سيظهر هذا الاستعمال بوضوح في الفصل الثاني من هذا القسم أي في علاقته بساسة بلاد المغرب بين 1945-1974][2] فعلام يدلّ هذا الاسم «الخوارج» إن لم يكن يدلّ على رفض الطاهر كلّ تعددية فكريّة سياسيّة والقول اجتماعيّا "بطاعة صمّاء" أي بانشداد المجتمع إلى الدولة. إن نظرة طاهريّة - حنبليّة وهابيّة مثل هذه النظرة هي التي تفسّر حظوة عبد العزيز آل سعود عند الطاهر الذي يقول « أغلب الظنّ أن الجزيرة العربية لم تنجب بعد عصر الرّسول الأعظم والصّدر الأول شخصيّة أحدثت فيها وفي ناسها أثرا عجيبا كشخصيّة الملك عبد العزيز آل سعود»[3]

ويطنب الطاهر في امتداح تأثير الوهابيّة السّعودية التمديني في نجد والحجاز فيكتب: «فقد رأيناه يتمكن بعقله الكبير وهمّته العجيبة من تمدين الجزيرة... ويحفّز الأعراب ويسكنهم القرى الجديدة المبنيّة بالحجر بعد الحياة في خيام الشعر وبذلك تمكنت حضارة القرن العشرين من التسلل إلى تلك البوادي... فعلى يد ابن سعود اتصلت البادية بواسطة البرق والبريد والتلفون والرّاديو والطيارة بأنحاء الدّنيا، ومعها في عهده مدّت سكك الحديد على أرض الصحراء... وملأت سفاراته ورسله وبعوث طلاّب العلم من مملكته أنحاء العالم. وبذلك واكب ابن سعود موكب الدّنيا الجديدة بسرعة»[4]. هذان الشاهدان يدلاّن على أمرين اثنين : أوّلهما أنّ الطاهر كان يرى في نجد آل سعود العروبية الإسلاميّة قبلة المسلمين الجديدة وثانيهما أن عاهلها «المستبدّ العادل» الذي طالما انتظره

[1] محمد علي الطاهر : خمسون عاما مصدر سلف ذكره ص ص 218 -219

[2] انظر على سبيل المثال مقال "محمد علي الطاهر يتحدث لجريدة بيروت المساء عن أسباب انشقاق الخوارج في المغرب الأقصى على الزعيم علال الفاسي [يقصد المهدي بن بركة]، محمد علي الطاهر خمسون عاما المصدر السابق ص 885 وكذلك موقفه من الدستور الجديد يوسف الرويسي الذي وسمه "بأحد صغار خوارج تونس"، محمد علي الطاهر خمسون عاما، المصدر نفسه ص 933.

[3] محمد علي الطاهر: خمسون عاما مصدر سلف ذكره 775

[4] المصدر نفسه الصفحة نفسها

الإسلاميون والعروبيّون الإسلاميّون على حدّ سواء ذلك أن التيار العروبي الإسلامي الذي يرى أنّ الإسلام يحوي طاقة هائلة يشترط لاستغلالها أمرا واحدا أحدا هو توفّر سائس يسوس الأمور بأحكام الدّين على المذهب الحنبلي و هو ما قصده محمد عبده بقوله "لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم نهضوا و القرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرّر الأوّلون وما أكتشف الآخرون في اليد الأخرى»[1] فهل ذهب الطّاهر عندما نزّل عبد العزيز آل سعود المنزلة السَّنيَّة إلى أبعد ممّا ذهب إليه رجل الدّين المصري محمد عبده ؟

كتب الطاهر قائلا: «لم يندهش الإعرابي البدوي ابن الصحراء عندما ظهر من وراء الرمال وخرج من تحت الخيمة ليصطدم للمرّة الأولى" بأضواء المدينة "يوم فتح الحجاز سنة 1924 ولذلك لم يتقهقر أو ينبهر ولم تأخذه الحيرة، بل صمد للدنيا الحديثة وكيف نفسه وروّض قومه وهم أهل بادية، ثم سحب معه الحجازيين أنفسهم و مشى أمامهم في موكب الحضارة »[2].

إنّ عبارات: « لم يندهش» ولم « يتقهقر» ولم« تأخذه الحيرة » إنّما استعملها الطاهر مثالا ليبيّن أن عبد العزيز آل سعود تمكّن من تحقيق التعادلية بينما هو أصل وما هو مكتسب وهذه التعادلية هي التي طلبها محمد عبده، عندما تحدّث عن هذا المسلم المثالي ذي اليدين حامل القرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرّر الأوّلون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى.

إنّ الطاهر، تماما مثل محمد عبده، ينظر إلى الوهابيّة نظرة تقوم على الثنائية إذ هو لا يتمكّن من التفكير إلاّ انطلاقا من ثنائية السماء والأرض"[3] ذلك أن قصره الحضارة على وسائل العيش مثل "البرق والبريد والتلفون والرّاديو والطيّارة" أي بعبارة أدقّ إن حصره للحضارة في التقنية و العلوم التي يمكن اقتباسها من البلاد الغربيّة إنّما يعني أنّه يجب على مستوى الفكر الاكتفاء بما جاء به التراث الإسلامي الأوّل أي: «علينا أن نقتبس من الغرب علومه وتقنياته و أن نحافظ على أصالتنا... وذلك في فصل تامّ بين هذين

[1] محمد الناصر النفزاوي: الدولة و المجتمع، مرجع سلف ذكره ص 173

[2] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 775

[3] محمد الناصر النفزاوي الدولة و المجتمع ، المرجع السابق ص 181

الطّرفين أي في إقامة علاقة تفاضليّة بين طرفين أحدهما يتنزّل... منزلة سامية وسماويّة وهي الدولة الدّينية والرّوح والرّجل والأنا والثقافة، وثانيهما يتنزّل... منزلة وضيعة وأرضيّة وهو المجتمع والحياة والجسد والمرأة والآخر والحضارة»[1] ونحن نجد صدى لهذا الفصل التام بين الثقافة والحضارة والاكتفاء بقرآن القرن السابع الميلادي واستنساخ مجتمع شبيه بمجتمع القرن السابع في ما جاء في خطاب عبد العزيز آل سعود سنة 1931 و أوردته "الشورى" تحت عنوان «خطاب عظيم الشأن للملك ابن سعود»: «هذا هو الدّين الحق وهذا هو صراط المستقيم. أفليس من الغريب مع هذا أن يوجد أناس لا ينتمون إليه ولا يهوون إلاّ ما يخالفه ولا يميلون إلاّ لما يناقضه، فالغرب قبلتهم، وأخلاقه بغيتهم وكلّ ما يأتي من أبنائه شارة التقدّم والارتقاء ولو كان عندهم تهتّكا وخلاعة وزندقة وإلحادا... فالتمدّن الذي يعاكس الدّين لا يصبو إليه إلاّ من ضعف عقله ووهن إدراكه... ووالله الذي لا إلاه إلا هو إني لأفضّل العيش في الفيافي والقفار مع الوحوش على أن أكون من... دعاة الحريّة الزائفة والمدنيّة الكاذبة... للناس أن يأخذوا من المدنيّة الغربيّة ما يشتهون من علوم وآداب. لهم أن يأخذوا من المدنيّة ولع أهلها بالقناعات ونهمهم بالاختراعات... وليس في دينهم أي نصّ يمنعهم من ذلك »[2].

إن خطاب ابن سعود يدل على تحفّظ إزاء من اعتبروا «الغرب قبلتهم» و«أخلاقهم بغيتهم»، وبعبارة أوضح أولئك الذين آمنوا بالمدارس الفكريّة الغربيّة ورأوا ضرورة تقليص دور«الأصل» أي «التراث الإسلامي الأوّل» وتضخيم النظرة الحديثة إلى الأشياء التي تؤمن بان لا فصل بين الثقافة والحضارة، و هو أمر يناقض تماما فكر محمد عبده، ومحمد علي الطاهر وعبد العزيز آل سعود.

على أن ما يميز الطاهر هو انه إذا كان قد امتدح الوهابية لما أحدثته من تغيير في نجد وفي الحجاز فقد أبدى تحفظه إزاء سلوك عدد من الأمراء السعوديين الذين ما أن تسلموا الحكم حتى استفاقت فيهم غرائز النهم المالي والجنسي وهي سوس حقيقي ينخر عظام الدول حديثة النشأة لذلك كتب قائلا"مما يلاحظه الجميع أن المملكة السعودية... تحكم

[1] محمد الناصر النفزاوي. :" عن أسئلة الحرب الراهنة و صدام الحضارات " -8- القدس العربي عدد 8904، 20 نوفمبر 2001

[2] الشوري، عدد 325، الأربعاء 28 ماي 1931

جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز والمجاهد الكبير محمد علي الطاهر

محمد علي الطاهر، خمسون عاما

من دون جهاز مدني ولا قوانين مدروسة يعترف بها العالم الدولي... فان قيل إن دستور البلاد السعودية هو القرآن، أقول إن القرآن الكريم يقضي بالشورى فأين حكم الشورى في السعودية يا سيدي الملك... وهناك حجة بيد الخصوم والأعداء وهي أن أموال الدولة تصرف بلا حساب ولا ضابط ولا ميزانية حقيقية مدروسة، ولاسيما بعد أن تبين أنّ معظم موارد الدولة تصرف كمخصصات للأمراء الذين يبلغ عددهم بضع مئات يعيشون كالمهراجات، فأدّت حياة الترف ببعضهم إلى التبذل وجعلهم مضغة في الأفواه في داخل البلاد ثم على صفحات الجرائد في الخارج... ثم كيف نسيتم الشيوعية يا سيدي وهي لا تنبت إلا بسبب هذه الحالات "[1] إن ذكر الشيوعية هنا له وظيفة على غاية من الخصوصية إذ هي تمثل في نظر الإسلاميين والعروبيين الإسلاميين وحتى عدد من العقلانيين الفزّاعة الوحيدة التي يمكن أن تقض مضاجعهم.

فلئن كان الطاهر يكثر من المآخذ على الديانيين السياسيين الوهابيين فان مرد ذلك إلى الخوف مما يمكن أن يهدد بقاء الوهابيين على انه يمكن أن نشير إلى أن نقد الوهابيين السعوديين لم يختص به الطاهر إذ ظهر من العقلانيين المحافظين الشوّام من عدّد المآخذ عليهم وأشهر هؤلاء محمد كرد علي[2]. ذلك أن نمط الاستثمار الذي تخيره هؤلاء الديانيون لم تكن البتة في العلم والمعرفة والعمران والفلاحة والصناعة لترقية الجزيرة مادّيا واجتماعيا بل هو يخالف ذلك تماما لذلك يقول كرد على :"مما يتحسّر له قلب كل عربي أن ملوك جزيرة العرب وأمراءها لم يبدؤوا حتى الآن بالسير على آثار الشعوب العربية الناهضة ولا تذرّعوا بذرائع النهضة على ما يجب "[3] لقد كان موقف محمد كرد علي من الوهابيين السعوديين ينبع من الحسرة على "التبذير والإنفاق على خلية كبيرة من الزنابير"[4]. وخلاصة القول نهاية الفصل الثاني من القسم الأول هي أن الفلسطيني العروبي

---

[1] محمد علي الطاهر :خمسون عاما –مصدر سلف ذكره 377

[2] محمد كرد علي : (1876 -1953) من أعلام الفكر و الأدب في سورية تخرج من حلقة الشيخ طاهر الجزائري : اشتغل بالصحافة حيث أصدر "المقتبس" (1906) ثم جريدة " الظاهر" و "المؤيد" و جريدة "الشام" الأسبوعية ثم بداية من 1908 أصدر المقتبس اليومي ...ساهم في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق 1919 ، عرف بنزعته الإصلاحية العقلانية المحافظة [انظر موسوعة أعلام العرب ،العراق، بيت الحكمة ط 2000 بتصرف]

[3] محمد الناصر النفزاوي: محمد كرد علي ، مرجع سلف ذكره ص 91

[4] محمد الناصر النفزاوي : التيّارات الفكرية السياسية، مرجع سلف ذكره ص 184

الإسلامي محمد علي الطاهر أصبح بعد أن تحوّل من نظرية الجامعة الإسلامية زمن حكم عبد الحميد إلى العروبية الإسلامية زمن اشتداد الصراع بين الدولة العثمانية الاتحادية والمعارضة أكثر ميلا، خاصّة بعد أن أشهد من المثالين السّياسيين العروبيّين الإسلاميّين اللّذين تجسدا في حكمي الشريف حسين أولا وعبد العزيز آل سعود ثانيا، إلى التركيز على وطنه فلسطين الذي كان يراه بأم عينيه يبتلع باطراد اقتصاديا وسياسيا و ثقافيا

هذا العنصر الجديد عنصر الوطنية، الذي بدأ يتسرّب إلى فكره السياسي هو الذي ساعد عقب تضاؤل أمله في عرب المشرق، على ظهور هذا التعاطف مع الوطنية الاستقلالية المغربية منذ 1924 سنة امتلاكه الخاص أولى وسائله الصحفية نقصد جريدة "الشورى"

فكيف كانت مواقفه من هؤلاء السّاسة المغاربة الذين كانوا ينشدون معرّفا مشرقيا بقضاياهم طيلة الفترة الممتدة من 1924 إلى 1945 موضوع الفصل الأول من القسم الثّاني من هذا البحث وطيلة الفترة الممتدة من 1945 إلى وفاته (1974) موضوع الفصل الثاني منه.

القسم الثاني:

محمد على الطاهر والساسة المغاربة

(1974 - 1924)

الفصل الأول

محمد علي الطاهر والساسة المغاربة

حتى تأسيس جامعة الدول العربية

(1945 - 1924)

يقول الطاهر عن علاقته بليبيا الحالية[1]: "ترجع علاقتي بالبلاد الطرابلسية والبرقاوية وأهلها إلى ربع قرن مضى، فقد كانت جريدتي "الشورى" منذ صدورها 1924 تعنى بأمور ليبيا، وتتقصى أخبارها وتذيع مظلمتها وتناصر جهادها، وخصوصا جهاد الشهيد الكبير عمر المختار ونشر فظائع الطليان."[2]

وقد أكّد عثمان الكعاك في جريدة العمل التونسية في أغسطس 1966 أن: "المجاهد المختار إلى حين استشهاده [كان] على اتصال دائم وثيق بالمجاهد الأستاذ محمد علي الطاهر الذي وضع جريدته "الشورى" التي كانت تصدر قبل خمسين سنة في القاهرة في خدمة المجاهدين الليبيين والسنوسيين ينتصر لقضيتهم ويمدّهم بما يستطيع جمعه لهم من مال."[3] ولذلك فإنه لا بد من التوقف قليلا عند سنة 1924 تاريخ صدور "الشورى"، إذ ماذا يعني هذا التاريخ بالنسبة إلى طرابلس الغرب وبرقة وإلى السياسيين الليبيين؟

إنه تاريخ مفصلي هام لا يسع الباحث إلاّ ربطه بتاريخ صدور الشورى إن أراد أن يفهم طبيعة العلاقة التي ستجمع الطاهر بهذا القطر المغربي. إنه تاريخ "وصول الفاشية في تشرين أول أكتوبر 1922 بزعامة الدوتشي بينيتو موسيليني إلى السلطة السياسية في إيطاليا، أقدم النظام الفاشي في نيسان – أفريل 1923 على التنصل من كل الإتفاقات التي أبرمتها الحكومة الإيطالية السابقة مع المقاومة الليبية. وقد قام الدكتاتور موسليني بإرسال أكثر جنرالاته غطرسة ودموية (بياترو باديليو – واميليو دي بونو – وردلفو غرازياني الشهير بجلاد ليبيا) وهناك في ليبيا مارس هؤلاء العسكريون – ضد الشعب الليبي – حرب إبادة جماعية بكل معنى الكلمة."[4] لذلك يمكن أن نفهم علاقة الطاهر بالساسة الليبيين انطلاقا من عوامل أربعة أولها، شعور كثير من المشارقة بالرابطة الوثيقة بين المشرق والمغرب بل بوحدة المصير وهذا الأمر سبق أن عبر عنه

[1] كانت ليبيا التي يتحدث عنها محمد على الطاهر موحدة إذ كانت تتكون من برقة وطرابلس وفزان وقد تكون فيها عندما استقلت "الإتحاد الليبي" الذي تحول في بداية الستينات إلى المملكة الليبية انظر في الموضوع: هادية المشيخي سياسي إباضي مغربي سليمان الباروني (1873-1940) رسالة ماجستير في الحضارة العربية المعاصرة إشراف الاستاذ محمد الناصر النفزاوي، جامعة تونس، ك.ع.إ.إ، قسم اللغة والادب والحضارة العربية، (غ.م)

[2] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 671.

[3] المصدر نفسه، ص 329.

[4] أحمد أبو الشيخ: الحاج أمين الحسيني وعلاقته بالحركات الوطنية المغاربية "الجزائر، تونس، ليبيا، المغرب الأقصى" (1924 - 1949) رسالة دكتوراه في التاريخ المعاصر نوقشت بالسنة الجامعية (1999 - 2000) إشراف الدكتور الهادي التيمومي، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس قسم التاريخ، ص 132.

الأمير الدرزي شكيب أرسلان في مذكراته بقوله:"لما كنت في مصر أثناء حرب طرابلس قال لي رفيق بك العظم: ليس عندنا اليوم وقت للاشتغال بصحاري طرابلس فأجبته فورا: إن لم نقدر أن نحفظ صحاري طرابلس لم نقدر أن نحفظ جنان الشام."[1] وهو عين ما ذهب إليه الطاهر بقوله عن فرنسا: "إن استراحت... من مشاكلها في البحر المتوسط فهي عائدة إلى سورية ولبنان لا محالة."[2]

أما العامل الثاني، إن كان وثيق الصلة بالعامل الأول فإنه يصدر عن استفظاع لا مزيد عليه لما أقدم عليه الغرب الداعي إلى حقوق الإنسان (ممثلا في إيطاليا) من فظائع تذكر بحروب الإبادة الموغلة في القدم بسبب ما كان يراه من تفوق الحضارة الغربية على حضارات هي في نظره "بدائية" وقد عبر الطاهر عن ذلك بقوله: "لقد بينت فظائع الاستعمار الإيطالي الخبيث كشفت القناع عن مخابئ هذا الاستعمار ونواياه التي ترمي إلى إبادة العروبة والإسلام نطقته بذلك وسجلته بقلمي وشهدت به يوم سكت كثيرون."[3] لقد سعى الطاهر حينئذ إلى الإبقاء على الطابع الأساسي لطرابلس الغرب وبرقة المتمثل في شخصية هذا القطر المغربي العربية والإسلامية، من هنا نجده يثبت كل مناضل ورمز سياسي يرى فيه بذرة تلك الشخصية وخير دليل على ذلك اندغام الفلسطيني محمد علي وهو شامي في النظرة السنوسية إلى الأشياء إنه لا يفصل حضاريا بين المغرب والمشرق، ونحن نجد صدى ذلك في الرسالة التي بعث بها الإمام أحمد الشريف السنوسي إلى صاحب الشورى سنة 1929 يقول فيها"وبعد فإننا قرأنا أعدادا من جريدتكم الغراء شرحتم فيها أخبار مجاهدي طرابلس، فسررنا سرورا عظيما من اهتمامكم الجليل بنشر تلك الأخبار المسرة ودفاعكم النزيه عن حقوق الإسلام المهضومة والأقطار الإسلامية المظلومة ... فقد أصبحتم اليوم في عداد المجاهدين وإني أعتبر شخصكم ولدا لي."[4]

إن الطاهر ما كان أن ينذر نفسه للدفاع عن ليبيا وعن الإسلام في ليبيا لو لم يكن يعتقد أن الإسلام في ليبيا يفترض في نظره أن لا يختلف عن إسلام الدولة الأموية

---

[1] هادية مشخي ساسي: إباضي مغربي، مرجع سلف ذكره، ص 34.
[2] محمد الطاهر: خمسون عاما، مصرد سلف ذكره، ص 368.
[3] المصدر نفسه، ص 329.
[4] أحمد الشريف السنوسي: من الإمام السنوسي إلى صاحب الشورى، الشورى عدد 217، 6 مارس، 1929.

والدولة العباسية، فكان بديهيا إذا أن يدافع الطاهر عن إسلام طرابلس الغرب وبرقة ممثلا في السنوسية باعتبارها حركة دينية سياسية وقد لا يستغرب المرء حينما يقلب النظر في جذور الحركة السنوسية فصاحب هذه الدعوة محمد بن علي السنوسي (1787 - 1859) الحسني الإدريسي[1] اقتات من روح الطرقيّة دون حد وكان يرى أن من أسباب تخلف المسلمين "خمول العلماء والشيوخ ... وابتعادهم عن إجهاد الجسد والعقل في نشر كلمة الله ... ورفع ألوية السنة والشريعة عالية وإحياء نور الإسلام"[2] وهو عين ما ذهب إليه شكيب أرسلان فيما بعد وآمن به العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر حينما أعلن أن المسلمين تخلفوا لأنهم ابتعدوا عن دينهم. كما أن مؤسس السنوسية "كان يأخذ بفكرة لزوم الخلافة الإسلامية بيد شريف قرشي ."[3] وسعى جاهدا إلى تأسيس "الدولة التيوقراطية التي يدير شؤونها رجال الدين"[4]. من هنا لا يمكن للمرء أن يستغرب أن دفاع الطاهر بالقلم والمال عن القضيّة الليبية وعن الإسلام السنوسي بلغ حدا دفع بالإمام أحمد الشريف السنوسي إلى أن يبعث برسالة إلى صاحب الشورى سنة 1930 تبين انتماء الطاهر المتجذر يقول فيها الشريف السنوسي إلى المنظومة السلفية: "وبعد فأعلم أيها الابن البار الحاذق والمجاهد الغيور الصادق أن مما ضاعف لدينا السرور والابتهاج وأوجب تحرير هذا الخطاب إليكم بالشكر والثناء هو ثباتكم في موقفكم العظيم أمام المعتدين على الإسلام وبلاد الإسلام وبالأخص إيطاليا فلقد برهنتم ... أن جذوة نار الغيرة الدينية كامنة في صدور المسلمين وروابط الإخاء الإسلامي متماسكة إلى يوم الدين ... فما من مسلم غيور ...لا يطّلع على ما تكتبونه بجريدتكم الشورى الغراء وتنشرونه من أخبار مجاهدي طرابلس الغرب خاصة وبلاد الإسلام [عامّة] لا ويأخذه الفرح والسرور مما يراه في خلال مقالاتكم العظيمة من غيرتكم الإسلامية وحميتكم العربية وجهادكم النزيه في سبيل عز الإسلام والعرب ... بارك الله

[1] محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة، بيروت، دار الفكر العربي، 1948، ص 11.
[2] المرجع نفسه، ص 13.
[3] المرجع نفسه، ص 18.
[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فيك يا بني فلقد انفردت بهذا الكفاح في هذا الوقت الذي وهنت فيه العقائد وضعفت أسباب التراحم والتعاطف."[1]

أما ثالث هذه العوامل التي نفسر بها علاقة الطاهر بالساسة الليبيين فهو الخوف من "لتينة" هذا البلد المغربي فنحن نقرأ ما أوردته "الشورى" مثلا في العدد 264، فيفري 1930 عن سياسة إيطاليا الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تذويب مميزات هذا الشعب المغربي وصهره في الخصائص الحضارية الإيطالية صهرا يجعل لبوسه الاجتماعي والعقدي قد تشبع بروح مستعمريه.

وما كان لمحمد علي الطاهر أن يقبل مثل هذه السياسة شأنه في ذلك شأن عدد من مفكري التيار العروبي الإسلامي وكذلك التيار الإسلامي إذ يقول:"إن ايطاليا ترمي إلى تطلين الطرابلسيين وإلى إدماجهم في العناصر الإيطالية وهي سياسة اتبعت في بلاد أخرى منذ زمان طويل ... و عندي انه من المتعذر جدا بل من المستحيل تحويل الطرابلسي الى ايطالي فان هناك عدة فوارق تحول دون هذا .هناك عقبات لا يتيسّر التغلب عليها عقبات الدين واللغة والعوائد والطباع والعقلية."[2] تأكيد استحالة أن يلبس الطرابلسي لبوسا حضاريا غير لبوسه هو ما يسعى الطاهر إلى دفع الليبيين إلى وعيه مما يفسر إلى حد كبير اقتناعه بأن هذه الأرض المغربية لا تحبلنّها سوى "الطرقية" و"الصوفية" على الرغم من ظهور نزعة بشير السعداوي[3] الرامية إلى بناء نظام جمهوري في طرابلس الغرب.

إن الرغبة في الحفاظ على خصوصية هذه التربة هي التي تفسر اهتمام الطاهر بالقضية الليبية ونصرته الساسة الليبيين وخصوصا السنوسيين منهم، كما أنها تفسر محاربة الطاهر فئة من المثقفين لا تعبر لموقفها غير الصدامي من الاستعمار عن انتمائها إلى العالم العربي والإسلامي في نظره.

---

[1] الشورى عدد 263 ،القاهرة، 19 فيفري 1930.

[2] الشورى عدد 264 القاهرة 26، فيفري 1930.

[3] بشير السعداوي (1884 - 1957)، تقلب وظائف عدة في الدولة العثمانية (...) هاجر سنة 1923 إلى مصر ومنها إلى بيروت – تولى قيادة الحركة الوطنية ضد الاستعمار الإيطالي وهو في الشام ... أسس سنة 1928 اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية والبرقاوية في دمشق، عمل مستشار الملك السعودي عبد العزيز آل سعود (1937 - 1946) ثم انتقل بعدها إلى القاهرة للاشتغال بالقضية الليبية [انظر عز الدين عبد السلام مختار العالم، تاريخ ليبيا المعاصر السياسي والاجتماعي (1922 - 1948) دراسة في تاريخ الحركة الوطنية في المهجر، بمصر،بنغازي ، دار الكتب الوطنية 2000 ص 162 – 162.]

ونحن نجد في موقفه من يونس البحري[1] صاحب جريدة "العرب" ما يبين موقفه من كل "أجير ثقافي" إنه لا تهمنا هنا حقيقة هذه الأحكام بقدر ما تهمنا الظاهرة في حد ذاتها نقصد بذلك أن هذا الفلسطيني كان يرفض كل ظاهرة إسقاط ثقافي تغطي حقيقة الاستعمار كما تراه عين العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر باعتباره استعمارا مهددا ايديولوجيا للطابع الحضاري (الدين و الجنس و اللغة...) لذلك فهو لا يتحرج من وصف جريدة العرب بجريدة الطليان في مقاله "جريدة الطليان لا جريدة العرب" يقول: "لما كتبنا عن جريدة العرب ما كتبنا من أسابيع جاءنا حضرة صاحبها الزميل معاتبا كيف ننشر عن جريدته ما نشرنا ... نقول إن صاحب العرب وسط جماعة من الأصدقاء وخاطبونا باسم الصداقة والمودة وغير ذلك لنكتب كلمة تمحو أثر ما سبق فأعربنا لهم عن غرابة هذا الطلب ثم قلنا لا بأس، فسننتظر قليلا فإن غيرت جريدة العرب مسلكها وجعلته لفائدة العرب لا لفائدة الطليان كتبنا لكم ما تريدون. فطلب ابن عمه العجلة فقلنا له ولابن عمه يمكنكم أن تنشروا أخبار المجاهدين ضد الطليان وبعد ذلك نكتب لكم ما يمحو الماضي فقالوا لا يوجد عندنا مكاتب هناك فقلنا لهم انقلوا عن الشورى أخبار المجاهدين كما نقلتم عن الصحف الأخرى حسنات الطليان! بل نحن نعطيكم أخبار المجاهد السيد عمر المختار قبل أن ننشرها نحن."[2] إن قول محمد علي الطاهر: "كما نقلتم عن الصحف الأخرى حسنات الطليان." لا يعني بالضرورة تمجيد صاحب "العرب" سياسة إيطاليا الاستعمارية إذ قد نفهمه كما فهم محمد كرد علي "حسنات فرنسا" حينما صرح قائلا "وفرنسا مهما كان حالها لا ينكر عليها عاقل ببيض أياديها على العلم، وهي مهما قال فيها الغاضبون عليها؟ مهد النظريات الاجتماعية والسياسية ... فالإنصاف يتقاضانا ألا ننسى فضل القوم."[3] فذكر فضائل البلدان الاستعمارية علميا واقتصاديا وسياسيا قد يصنف ذاكرها حتى وإن كان وطنيا ضمن دائرة الخادم والتابع بالنسبة إلى التيار الإسلامي والعروبي الإسلامي. فكيف بالأمر إذا ما تعلق برفض صاحب جريدة العرب فضح ممارسات الاستعمار لذلك يقول الطاهر: "وأما تجاهل جريدة العرب أخبار القتال

[1] يونس البحري (1900 - 1979) أديب عراقي... ولد في الموصل... أرخ للحركات الثورية في عديد من البلدان العربية... اشتهر بوصفه مذيعا... في إذاعة برلين خلال الحرب العالمية الثانية واتهمه البعض بالعمل في وكالة المخابرات البريطانية جاسوسا على ألمانيا [انظر أسعد داغر مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الرابع بيروت منشورات الجامعة اللبنانية، ط 1983 ص 89 بتصرف.]

[2] محمد علي الطاهر: "جريدة الطليان لا جريدة العرب"، الشورى عدد 285، القاهرة، 6 أوت 1930.

[3] محمد الناصر النفزاوي: محمد كرد علي، مرجع سلف ذكره، ص 385.

بين الطليان والعرب بطرابلس الغرب وعدم قبولها نشر ما تطوّعنا بتقديمه إليها من أنباء المجاهدين وأنباء التدمير الذي يقوم به الجيش الإيطالي هناك ... إن هذا الموقف من جريدة العرب ثم نشرها الدعاية التي يذيعها الطليان عن "مآثرهم" لمـــا يـــدل علـــى أن جريدة العرب تضر بالوطن العربي من ناحيتين: الأولى عدم إذاعتها مظلمة العرب من الطليان والثانية إيهام عرب البحر الأحمر – وهذا بيت القصيد – أن إيطاليا هي الدولة المعمرة العادلة ... فكيف نصنع مع جريدة العرب الآن؟ ألا يعذرنا القراء إذا قلنا أنها جريدة إيطاليا وإنها خليفة جريدة أمين سعيد التي كانت تسمّى الشرق الأدنى ثم ماتت بسبب سلوكها هذا المسلك."[1]

إن هذا الشعور المتضخم عند الطاهر بضرورة رؤية الاستعمار من جانب واحد هو الجانب السلبي ثم تصنيفه الناس إلى خادم للبلاد العربية والإسلامية وللتصور الإيديولوجي الذي يحكم الأبنية الفكرية للطاهر ويستتر خلفها وغير خادم لهما هما في الحقيقة المطلبان الأساسيان، بل ما بهما تقوم علاقة الفلسطيني العروبي الإسلامي بغيره من الأشخاص. فمن كسبت يده غير هذين المطلبين كان مآله التجريح دون أدنى تحرّج ويحارب محاربة الاستعمار وبهما أيضا نفسّر، وهذا هو العامل الرابع، علاقة الطاهر بالرموز السياسية فلا عجب حينئذ إذا قلنا إن أفضل تعبير عن وجه الفلسطيني الملتزم سواء في علاقته بالساسة

في علاقته بقضايا بلاد المغرب وكذلك المشرق إنما هو ما ورد في الشورى بتاريخ 29 جويلية 1931 تحت عنوان الشورى وأذناب إيطاليا "يقول: "جاء لإدارة الشورى المدعو انطون يعقوب أحد أذناب السفارة الإيطالية بمصر ومراسل شركة التلغرافات الطليانية الشرقية ... وقال...رأيتك تتعب نفسك في الكلام على [كذا] ايطاليا بدون فائدة فأنا جئتك منهم بمائة جنيه عن مائة اشتراك تكرر سنويا على أن تترك فقط الكتابة عن طرابلس. فقال له صاحب الشورى ضاحكا والله لو أعطاني دكتاتور إيطاليا أثمن ما عنده ما كففت عن نشر أفاعيل حكومته في طرابلس. فهل أنت مجنون؟ فقال أنطون يعقوب ما نصّه بالحرف الواحد (اسمع يا سي الطاهر ما تبقا ش مجنون، أحنا

[1] محمد علي الطاهر: "جريدة الطليان لا جريدة العرب"، الشورى، مقال سلف ذكره.

الصحافيين مثل المحامين، تقضي علينا المهنة بأن نقول ما لا نعتقد، وسيبك من هوسة الإخلاص عاوزين نعيش!) فلما سمع صاحب الشورى هذا الكلام الذي يدل على نفسية لا تشعر إلا بحب المال سخر منه غاضبا وصرفه مشمئزا من تلك العقلية. وكان آخر ما قاله صاحب الشورى: كنت أظنك يا سي أنطون أشرف مما رأيت ولكن يظهر أنك تجردت من الإحساس الإنساني فلم تشفق على الطرابلسيين الذين أشفق عليهم الأجانب فكيف بك وأنت ابن عرب."[1]

إن هذا الشاهد الطويل يقوم خير دليل على مواءمة الطاهر بين نظره وسلوكه بل إننا لا نغالي إن قلنا إنه من القلائل الذين لم يبدلوا تبديلا خاصة إذا علم المرء مدى تأثير ضغط الواقع في المثقفين في تلك المرحلة من تاريخ البلاد. فأن يتخذ الواحد موضعا لا يتزحزح ولا يحيد عنه إنما يعتبر في حد ذاته مؤشر احترام وهو ما حصل فعلا بالنسبة إلى محمد علي الطاهر فقد كان الإمام أحمد الشريف السنوسي يعتبره ولده؛ كما أن الأمير محمد إدريس السنوسي أثناء هجرته إلى مصر كان كما يقول صاحب الشورى: "يزورني في دار الشورى، ولما كنت مسجونا سنة 1940 سمعت انه توسط لدى الإنجليز في الإفراج عني."[2]

إن المسألة حينئذ تتجاوز المصالح البشرية الضيقة وتنصهر في مجال الفكر، لذلك رفض الفلسطيني مال إيطاليا مقابل تخليه عن قضية الشعب الليبي. رفض أن يكون مثقفا "فوطة حمام" على حد عبارة محمد كرد علي. وقد عبر عن روح هذه الفئة من المثقفين المشارقة المؤهلة دوما لشد وثاق المغرب بالمشرق شكيب أرسلان على صفحات "الشباب" التي أصدرها الطاهر حينما تعطلت "الشورى" قائلا: "إن أهل المغرب جميعا سواء كانوا عربا من الأصل أو بربرا مستعربين نعدهم كلهم امة واحدة أي مسلمة عربية نحن منهم وهم منا يضرنا ما يضرهم ويسرنا ما يسرهم ولا نقدر أن ننفصل عنهم ولا يقدرون أن ينفصلوا منا وليس المشارقة الذين هم جيراننا من أنفس المسلمين والعرب أقرب إلينا من المغاربة وان تسلط عليهم متسلط في دينهم أو لغتهم

[1] الشورى وأذناب إيطاليا: الشورى ،القاهرة، 29 جويلية 1931.
[2] محمد علي الطاهر: خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 671.

فنحن وجميع العالم الإسلامي نقوم قيامة الرجل الواحد في الدفاع عنهم."[1]

إن هذا الشاهد يهدف إلى دحض شبهة وجّهها الإسلامي الليبي سليمان الباروني إلى العروبي الإسلامي شكيب أرسلان مفادها أن دعوة الأمير الدرزي إلى وحدة عربية لا تمييز فيها بين ظروف نشأة الفكرة العروبية في المشرق والظروف الخاصة ببلاد المغرب.

نحن لن نهتم هنا بهذه الخصومة الفكرية بل سنحاول النظر في علاقة الفلسطيني محمد علي الطاهر بالإسلامي الليبي سليمان الباروني ولماذا انتصر محمد علي الطاهر لشكيب أرسلان؟ وهل إنّ هذا الموقف حمال دلالات إيديولوجية فكرية سياسية؟ بعبارة أدق هل أن هذا الموقف بديهي لأن الطاهر في النهاية انتصر لأحد رموز التيار العروبي الإسلامي وهو عروبي إسلامي ومن ثمة نجد أنفسنا أمام إشكالية أخرى هي مدى اختلاف هذين التيارين ونقصد التيار الإسلامي ممثلا في الباروني باشا والتيار العروبي الإسلامي ممثلا في الطاهر وأرسلان في موقفهما من بعض القضايا رغم انتمائهما إلى المنظومة الفكرية التقليدية نفسها.

إنّ هذه المسألة في غاية الأهمية والتعقيد فليتصوّر المرء هذا التباعد بين تيارين ينتميان إلى منظومة واحدة قديمة ولكنهما اضطرا إلى مناقشة قضية ولّدها وضع سياسي حديث؟ يقول صاحب الشورى في مقال له بعنوان "الباروني باشا والأمير شكيب": "أطلعنا أحد الأصدقاء على نسخة من مجلة أمين سعيد المسماة "بالرابطة العربية" والتي كانت تصدر باسم "الشرق الأدنى" فوجدنا فيها مقالة من قلم عطوفة الصديق الجليل سليمان باشا الباروني وكلها حملة على عطوفة الصديق الجليل الأمير شكيب أرسلان وإهانته، فاندهشنا منها أشد الدهشة ... وقد سألنا زوارنا هذا السؤال بعد أن اطلعوا عليها: إن الأمير سيرد على الباروني باشا لا محالة وهو لن يرد في مجلة أمين سعيد ولا بد من أن يردّ في الشباب، فكيف يكون موقف الشاب بين الصداقتين لاسيما بعد أن ذكر الباشا جريدة الشباب وصاحبها الطاهر في صدر مقاله بكل خير؟ والجواب إننا نشكر للباشا تلطفه علينا بتلك الكلمة و سنبيح للأمير صدر الجريدة لأننا

[1] شكيب أرسلان: "ردّ الأمير شكيب أرسلان على الباروني باشا"، الشباب العدد (83 - 43)،" 77"، القاهرة، 22 ديسمبر 1937.

نعتقد أن عطوفة الباروني باشا قد اعتدى على الأمير ونسب إليه أمورا لا نقرها ولا نعتقد صحتها فلا حول ولا قوة إلا بالله."[1] يمكن لنا أن نتوقف في هذا الشاهد عند بعض المسائل ننطلق منها لفهم طبيعة الموقف الذي اتخذه الفلسطيني من الخصومة.

فقوله "الصديق الجليل سليمان الباروني" و"الصديق الجليل أرسلان" ثم التساؤل "كيف يكون موقف الشباب (أي الطاهر) بين الصداقتين" أضف إلى ذلك ذكر الباروني باشا "الشباب وصاحبها بكل خير"إنما هو تأكيد على كون الاختلاف لم يكن شخصيا بل هو اختلاف بين فكرتين بالأساس، الفكرة الإسلامية والفكرة العروبية الإسلامية في زمن كان فيه الصراع بين الأفكار عند عدد من المثقفين هو السائد صباح مساء. كما أن هذا الصراع أو الخصومة بين الفكرتين لا تعفينا من محاولة النفاذ إلى ما هو أبعد من ذلك أي إلى طرح إشكالية علاقة بلاد المغرب بالمشرق. فالباروني طرابلسي والأمير والفلسطيني مشرقيان.

ويمكن للمرء أن يعثر على صدى الصراع بين الفكرتين الإسلامية والعروبية الإسلامية في الرسالة التي بعث بها الباروني إلى صاحب الشورى والشباب بتاريخ 14 شوال 1356 هـ (1937 م) إذ يقول: "... ما كدت أقرأ أسطرا من كلامك حتى اصطدمت بقولك (إن الباروني معتد) فظهر لي أن نوبة من حمية غير محمودة اعترتك فرسمت تلك العبارة بدون تأمل وإلا فكيف تحكم عليّ بالاعتداء قبل أن تطلع على ما سأرد به على الرد الأرسلاني ... على أنني ما كتبت الرد على الخطبة إلا مدافعا لا معتديا. ألم يكن شكيب هو البادي بإعلان البراءة من الأقطار الإسلامية المستعمرة معللا براءته بأنه لا يتحمل عداوة دول الاستعمار في سبيل رضاء مسلمي الأقطار المستعمرة وبكون شمال إفريقيا أكثره بربر لا عرب متجاهلا كونهم مسلمين من عرب وبربر وأتراك قدماء. فمن البادئ بالاعتداء يا أبا الحسن الباروني أم الأرسلاني؟ ... وقد انتظرت الشباب فلم يصلني [كذا] إلى الآن ... وأنا من المشتركين ففهمت (والله أعلم بالحقيقة) أنك لم ترسله ليتأخر إطلاعي على الرد الأرسلاني فلا أكتب شيئا ويعتبر قراء الشباب أني عجزت عن الرد ولذا اضطررت أن أرسل في طلب هذا العدد المكتوم

[1] محمد علي الطاهر،" الباروني باشا والأمير شكيب"، الشباب عدد (80-40) "74"، القاهرة، 1 ديسمبر 1937.

وسيأتيك بعد وصوله إلى الرد المقنع في الموضوع ولا أخالك تبخل بنشره في الشباب وإلا حسبت ذلك منك حمية جاهلية..."[1]

إنّ هذا التباعد بين الإخوة المتناكرين ، الإخوة في الانتماء إلى منظومة فكرية واحدة ونقصد التقليدية، المتناكرين للإختلاف في بعض الجوانب مداره على هذا الشاهد المتعلق وإن لم يكن معلنا بصريح العبارة بالنظرة إلى هيئة الدولة كيف يجب أن تكون فالباروني باشا ينطلق من تصور جامع مستتر خلف أبنيته الفكرية، هو وجوب أن تكون مادة الدولة الإسلامية جميع المسلمين ومن ثمة فإن تصوره للنضال هو تصور موروث من فكرة "الجامعة الإسلامية" اذ أنه ليس بإمكانه شعوريا أو لا شعوريا الحديث عن حركات تحررية وعن نضال سياسي بمنأى عن تلك المادة التي تضم جميع الحركات في العالم الإسلامي الذي يفترض أن يكون موحدا كما انه ليس بإمكانه الحديث عن تفكير سياسي واجتماعي من دون النظر إليه نظرة مشبعة بروح فكرة "الجامعة" وهذا ما نجده في قوله:" ولعله نسي أنه كان يأتي البوسنة والهرسك في أوروبا وهما غير عربيتين يستقبله مسلموها ويحتفلون به احتفالا كان يكفيه به فخرا على أنه مسلم فقط ومن المدافعين بقلمه عن الإسلام والمسلمين بدون فرق بين عربي وغيره."[2] من هنا يمكن لنا الوقوف عند النقاط التالية:

أولا: إن الباروني ينطلق من تصور لكيان مادته كل المسلمين من دون تفرقة جنسية، هذا ما يميز التيار الإسلامي عن التيار العروبي الإسلامي كما أن رفضه تهجين أرسلان العنصر البربري في رسالته إلى محمد علي الطاهر" وبكون شمال إفريقيا أكثره بربر لا عرب متجاهلا كونهم مسلمين من عرب وبربر وأتراك قدماء" يدلّ بشكل قاطع على شدة تعلق الباروني بمغربيته وخاصة قوله بالخصوصية المغربية التي يؤكدها ما جاء في رده على شكيب أرسلان في الخصومة الشهيرة بينهما في ثلاثينات القرن العشرين يقول البارني "من رأيي أن لا تنقصوا الجامعة العربية بل صوبوها بالنسبة إلى الشرق وأما المغرب فلا تنفعه إلا الجامعة الإسلامية لأنه ليس في المغرب

[1] سليمان الباروني "من الباروني باشا إلى مدير الشباب" الشباب عدد (83-43) "77"، القاهرة 22 ديسمبر 1937.
[2] "رد الأمير شكيب على الباروني باشا، الفرية الثانية قول الباروني (إني تبرأت من مسلمي المستعمرات"، الشباب عدد(84 – 44)" 79" القاهرة، 29 ديسمبر 1937.

كله من طرابلس إلى المحيط غير مسلم من الوطنيين حتى تجب مراعاته وفيه غير العرب ملايين من بربر وترك وسودان ولا تجمعهم إلا كلمة الإسلام والوطن التي تجمع الجميع بالأقطار الإسلامية كلها وتوجب عليهم حق الأخوة الإسلامية.[1]

ثانيا: إن هذا الخلاف يطرح إشكالية أيهما أصلح الفكرة الإسلامية أم الفكرة العروبية الإسلامية ولذلك لا عجب في أن ينتصر محمد الطاهر لأرسلان.

ثالثا: هذه الخصومة الثانية بين الباروني قائلا باشا وأرسلان (1937 - 1938) هي امتداد في نظرنا للخصومة الأولى (1933) ذلك أن أرسلان في حديثه عن وحدة عربية تضم المغربي."[2] مرتين لذلك تساءل الباروني قائلا: "فما معنى براءة شكيب اليوم من مسلمي طرابلس برقة وإفريقية كلها (لا مصر الغنية بالذهب)"[3] وإذا وقف الطاهر في صف شكيب أرسلان فمعنى ذلك أن الطاهر حمّال للفكرة ذاتها. أي أنه انتصر للفكرة العروبية الإسلامية التي تخدم الشرق سياسيا بل إنه مارس أيضا فكرة الإقصاء ويمكن أن نلمس ذلك انطلاقا ممّا يلي:

إنّ مقاربة "الشورى" و"الشباب" للقضية الليبية تضخم من دور الحركة السنوسية ممثلة في أحمد الشريف السنوسي وإدريس السنوسي وعمر المختار فكأن الحركة الوطنية الليبية قد انحصرت في السنوسية دون غيرها ومن هنا كان أكثر الأخبار تواترا ثني صفحات "الشورى" و"الشباب" ما كان متعلقا منها بالمناطق الجغرافية المندمجة في "تاريخ السنوسية" خصوصا الجبل الأخضر وبرقة. وإذا ما علم المرء أن: "تاريخ طرابلس الغرب منذ القديم نسخة طبق الأصل من تاريخ المغرب العربي في حين كان تاريخ برقة مرتبطا بتاريخ مصر[فإن الأمر ينتهي به إلى أن يرى أن تاريخ] طرابلس الغرب [إنّما] هو تاريخ كل من تونس والجزائر والمغرب الأقصى مثلما تجمع على ذلك كتب التاريخ."[4]

---

[1] هادية مشيخي: سياسي إباضي مغربي، مرجع سلف ذكره، ص 8

[2] "ردّ الأمير شكيب على الباروني باشا" الشباب عدد(84 – 44) "79" القاهرة،29 ديسمبر 1937.

[3] هادية مشيخي: سياسي إباضي مغربي، المرجع السابق، ص 174.

[4] المرجع نفسه، ص 15.

الشباب عدد (104- 64-99) القاهرة، 18 ماي 1938.

ولذلك يضطر إلى طرح السؤال: هل يعني ذلك أن الفلسطيني لا يقر بالخصوصية المغربية لهذا القطر المغربي وهي خصوصية يلحّ عليها سليمان الباروني في أكثر من موضع؟ ثم هل يعني ذلك أيضا أن الطاهر تجاهل دور البربر الطرابلسيين في الحركة الوطنية الليبية شأنه في ذلك شأن الأمير الدرزي أرسلان، لوحدة المنبع الفكري السياسي عندهما. فلا يكون بذلك الانتصار لأرسلان إلا تأكيدا لتجاهل دور البربر بل إن الأمر قد يصل إلى أكثر من ذلك فهذا التجاهل يزداد عمقا إيديولوجيا وسياسيا عندما ننظر إلى عملية الإقصاء الثانية التي مارسها الفلسطيني تجاه المغربي الطرابلسي الغربي حينما رفض أن يرد الباروني باشا على شكيب ثني صفحات "الشورى" إذ يقول: "إن الباروني باشا شكانا إلى الرأي العام قائلا: "لأمين سعيد ما نصّه حيث إن صاحب الشورى أعلن أنه لا ينشر ردنا في جريدته فأرجو نشر ما يأتي جوابا لشكيب أرسلان على ما كتبه في جريدة الشورى ... والحقيقة التي يعرفها الناس أن الباروني باشا هو الذي اعتدى على الأمير شكيب...وردّ الأمير شكيب على ذلك العدوان فنشرناه فأراد الباروني باشا أن ينقل ميدانه من جريدة أمين سعيد إلى الشباب فأبينا أن نكون قنطرة لحضرته يعبر منها للاعتداء على أكبر خادم للعروبة وأخلص منافح عن الإسلام"[1].

يمكن للمرء أن يضيف إلى هذه العوامل الفكرية السياسية الإيديولوجية التي بها فسرنا علاقة الطاهر بالباروني باشا عاملا آخر لا يقل أهمية وهو عامل نفسي: ونقصد بذلك شدة نفور الطاهر[2] من أمين سعيد[3] صاحب مجلة الشرق الأدنى. ذلك أن الباروني باشا نشر أول رد له على خطبة الأمير الدرزي على صفحات مجلة أمين سعيد ويمكن لنا أن نقلب النظر في هذه الشواهد فيرجع إلينا حاملا للجانب النفسي المعبر عن شدة تحفظ الفلسطيني إزاء صاحب الشرق الأدنى ومثال ذلك قوله: " أما أن يبدأ الهجوم على الأمير من سطح خمارة [يقصد الشرق الأدنى لصاحبها أمين سعيد] ثم ينط إلى سطح

[1] محمد علي الطاهر: " الأمير شكيب والباروني باشا ومن هو المعتدي"، الشباب عدد (100 -60) 395، القاهرة،28 أفريل 1938.

[2] تجدر الإشارة إلى الخلاف بين أمين سعيد ومحمد علي الطاهر بسبب رفض أمين سعيد نشر أخبار الثورة الفلسطينية سنة 1936 كما أن الطاهر أورد وثيقة في جريدته" الشباب" تثبت حصول أمين سعيد صاحب مجلة الرابطة العربية على راتب شهري من إيطاليا انظر "الشباب"عدد 45 -5(340) ،24 مارس 1937، لمزيد الإطلاع على هذه الوثيقة أنظر الملاحق

[3] أمين سعيد (1892-1967) هو ضابط عثماني إتحادي أصدر مجلة الشرق الأدنى بين سنة 1927-1929...كان له دور في الحركة العربية ناصر الشريف حسين وكتب عن مأساته مع الانجليز وصراعه في الحجاز مع السعوديين [انظر موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين بيروت دار الجيل،2007]

مسجد ليواصل عدوانه فهذا لا يجوز."[1] ثم إننا نقرأ له أيضا قوله "أما مباغتة العالم الإسلامي بهذه الحملة التي قام بها الباشا ضد الأمير وفي جريدة أمين سعيد أيضا فهذا مدهش، ولو كان أمين سعيد يريد أقل خير لبلاده لما نشر حملة عطوفة الباروني ... ولكن أمين سعيد هو أمين سعيد."[2]

يجب على المرء إذن أن يستنجد بمدى تأثير أمين سعيد نفسيا في صاحب "الشورى" كي يستكمل حقيقة موقفه من الباروني باشا وقد يزداد الأمر وضوحا حينما نلتقط اعتماد الباروني باشا شهادة الدكتور عبد الرحمان الشهبندر[3] فيما يتعلق بعلاقة الأمير أرسلان بجمال باشا إذ يقول الطاهر:" فالباروني لم يجد بابا يهاجم منه الأمير شكيب إلا حكايات الشهبندر وافتراءاته القديمة فاستعان بها ولكنه لمّا استند إليها ما استند إلا إلى قصبة مرضوضة"[4]

إنه لا يمكن إغفال هذا العامل لأن الإنسان لا يقوم على الفكر والعقيدة فقط بل فهو كذلك كائن بيولوجي ونفسي أيضا والطاهر كان ينفر من أمين سعيد وعبد الرحمن الشهبندر" نفور الصحة من المرض".

أما الأمر الآخر الذي نبينه فهو أننا أعطينا خصومات الطاهر الفكرية قيمة لأن الفكر بنقيضه يعرف، إذ لا يمكن لنا فهم حقيقة توجهاته العروبية الإسلامية وتفكيره السياسي والاجتماعي إلا إذا نظرنا في مدى تناغمه مع نقيضه في الأفكار وبعبارة أدق إنه لا وجود لهذا إلا في واقعه المادي التاريخي الاجتماعي وفي إطار: "بنية معقدة من مجموعة بنى فكرية متناقضة متصارعة في حركة تاريخية موحدة بحركة الصراعات الطبقية الاجتماعية."[5]

---

[1] محمد علي الطاهر: الأمير شكيب والباروني باشا ومن هو المعتدي، مقال سلف ذكره.

[2] المقال نفسه

[3] عبد الرحمان الشهبندر(1879-1940): تكوّن في حلقة الشيخ طاهر الجزائري عرف بتوجهه العروبي، كتب محمد كرد علي عن الشهبندر في عام 1948" كان ...لا يرى لأحد مزيّة إن لم يكن خرّيج الجامعة الأمريكية في بيروت ...ويلهج بأن من لم يدرس الطبيعيات والرياضيات كما درسها لا يحق له أن يمسك قلما ولا أن يؤسس جريدة أو مجلة أو ينشر كتابا أو غير ذلك من أعمال العقل
[انظر عبد الله حنا، عبد الرحمان الشهبندر (1879-1940) علم نهضوي ورجل الوطنية والتحرر الفكري، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع 2000] تجدر الاشارة إلى حصول خلاف فكري طويل بين الطاهر والشهبندر على صفحات جريدة "الشورى" وكذلك" الشباب" انظر على سبيل المثال "صحائف الشهبندر السوداء" الشورى عدد 195 27 سبتمبر 1928.

[4] محمد علي الطاهر: "الامير شكيب والباروني باشا "، مقال سلف ذكره

[5] مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب، ماركس في استشراق أدوارد سعيد، بيروت، دار الفارابي، ط 2، 2006، ص 10.

لقد سعينا إلى استحضار نقيضه الفكري ممثلا في خصومه عبد الرحمن الشهبندر وأمين سعيد وسليمان الباروني ومن خلال هذه الشخصيات حاولنا الوقوف عند بنى الطاهر الفكرية المستترة خلف ممارساته وعلاقاته إيمانا منّا بأنه: "إذا نظر الفكر في التناقض المادي بعين منطق التماثل، انتفى التناقض هذا، واحتار الفكر في أمر الواقع، موضوعه كيف يتأوله."[1] فنحن ليس بإمكاننا أن نتناول طبيعة توجهات الطاهر الإيديولوجية ونفهمها إلا متى استنجدنا بنقيضه من الرموز والأفكار.

توجد مسألة أخرى نود التوقف عندها قليلا وهي في الحقيقة أثارت التساؤل فينا عن الأسباب الدفينة التي دفعت محمد علي الطاهر إلى أن يسقط من اهتمامه نضال الرموز السياسية الليبية في المهجر المصري، لماذا سكت الفلسطيني عن الصراع بين الزعماء السنوسيين، والمعارضين لزعامتهم إذ" أن كبار زعماء حركة الجهاد الليبي الموجودين آنذاك في مصر كانوا غير راغبين في تولي إدريس السنوسي قيادة الحركة الوطنية الليبية ... ومن بين هؤلاء الزعماء الذين تميزوا برفضهم الشديد لإمارة إدريس، الرؤساء الطرابلسيون الثلاثة:أحمد الشتيوي السويحلي، عون سوف، وأحمد المريض بالإضافة إلى الطاهر الزاوي والمصري عزام"[2] وقد يزداد الأمر إلحاحا وغرابة حينما لا نعثر على أي مقال أو معلومة ثني صحف الطاهر تتعلق بالرموز السياسية المعارضة لزعامة السنوسية ولإمارتهم لاسيما إذا ما كان هؤلاء المعارضون هم طرابلسيون وقد بلغ "رفض إدريس السنوسي والطائفة الموالية بكل قوة أي تنظيم أو جمعية أو تكتل سياسي خارج عن سيطرتهم ومحاربته خاصة إذا كان هذا التنظيم منتميا إلى الجانب الطرابلسي."[3] خاصة في الفترة التي كان إدريس السنوسي يتردد فيها على دار الشورى يقول الطاهر وقد "كان الأمير محمد إدريس السنوسي ... وهو في دار هجرته بالإسكندرية، ومصر متواريا من إيطاليا... يزورني في دار الشورى، ولما كنت مسجونا سنة 1940 سمعت أنه توسط إلى الإنجليز في الإفراج عني."

[1] مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب، مرجع سلف ذكره، ص 13.
[2] عز الدين عبد السلام مختار العالم: تاريخ ليبيا، مرجع سلف ذكره ص188.
[3] المرجع نفسه، ص 124.

لا يسع الباحث رغم ذلك سوى الإقرار بأن صحف العروبي الإسلامي الفلسطيني كانت محضنا هاما للحركة الوطنية الليبية، فأن تحارب إيطاليا وتنشر فضائعها في طرابلس الغرب وبرقة فهذا دليل على تمسك الطاهر بمبادئه.

وقد تكفي نظرة واحدة إلى مدى صعوبة نشر الصحف المشرقية مقالات الرموز الليبية الفاضحة للسياسة الاستعمارية الفاشية للتعبير عن وجه الطاهر الملتزم فقد "كانت المهمة الأولى لهؤلاء الصحفيين والكتاب الليبيين تتعلق بمحاولة إقناع الصحافة المصرية بنشر أخبار الجهاد وفظائع المحتلين الإيطاليين، ولم تكن مهمتهم تلك سهلة ... قد كان الواحد منهم يطوف مكاتب الجرائد والمجلات المصرية محاولا إقناع المسئولين [كذا] بإدارتها [كذا] نشر ذلك المقال أو توجيه بعض النداءات إلى مواطنيهم ... ويوضّح النص التالي الوارد في إحدى وثائقهم مدى الجهد الذي كانوا يبذلونه في هذا السبيل: "إنني تشرفت بخطاباتكم كلها وما معها من المقالات. فأخبركم عن الأولى، فقد سلمتها للأخ أبو القاسم الباروني وهو سلمها إلى أمين سعيد وهو تأخر في نشرها ... وأما باقي المقالات، فقد كلفت بها بعض الأصدقاء فعرضها على جريدة السياسة فأبت نشرها بدعوى أنها شديدة اللهجة ضد إيطاليا وإدارة الجريدة مرتبطة مع السفارة الإيطالية بارتباطات مالية تخاف إن نشرتها أن تقطع عليها المرتبات المالية."[1]

إن هذا الشاهد الطويل يؤكد مواءمة الفلسطيني محمد علي الطاهر بين شرطي الإيمان والعمل وهو الذي رفض ارتباط جريدته بمال إيطاليا كما وضحنا سابقا.

لقد مثلت بلاد المغرب جغرافيا وبشريا وحدة متواصلة على مرّ العصور وتداخلت الأحداث التي جدت فيها ولذلك يصعب تناول بلد منها دون بلد آخر وهذا هو المنطلق الذي خضع له محمد علي الطاهر عندما اهتم بما كان يجد في تونس.

وتعود علاقة الطاهر بالساسة التونسيين إلى سنة 1923، حينما كان زعيم الحزب الحرّ

[1] عز الدين عبد السلام: تاريخ ليبيا، مرجع سلف ذكره، ص 144.

الدستوري القديم عبد العزيز الثعالبي[1] مقيما في مصر فجمعته به أواصر متينة إذ كان الثعالبي يتردد على دكان الفلسطيني قبل تأسيس "الشورى" و"دار الشورى" ذلك أن الدستوريين القدامى شأنهم في ذلك شأن السنوسيين كانوا يبحثون عن عون مشرقي يساعدهم على التصدي للسياسة الاستعمارية.فمن الواضح، إذا، إن هذه الحاجة هي التي وجّهت رموز الحزب الحر الدستوري القديم إلى الانضواء تحت سقف القوى التي تحمل نفس النظرة إلى الأشياء لأنهم لم يفهموا الاستعمار باعتباره مدّا امبرياليا بل باعتباره محاولة إجهاز على الهوية (الدين و اللغة و الثقافة...)

فـ"لجنة الخلافة التي أسسها التونسيون سنة 1923 بتونس، تحت رئاسة أحمد توفيق المدني كاتب القلم العربي لدى لجنة الحزب الدستوري التنفيذية"[2] وردّ "الخليفة عبد المجيد على رسالة التأييد التي بعثها له [كذا] المدني في نوفمبر 1923"[3] إنما يدلاّن على ميول الحزب الدستوري القديم ورموزه إلى فكرة "الجامعة الإسلامية"، ويمكن للمرء أن يتأكد من حقيقة هذه الميول من خلال الرسالة التي بعث بها محيي الدين القليبي[4] إلى الفلسطيني محمد علي الطاهر بتاريخ 27 مارس 1924 ففيها يقول: "إن المفكرين هنا يعطفون على العرب عطفهم على أمتهم ويقولون إنهم مثلنا مستعبدون للأجانب يجاهدون في سبيل التحرير. ويعلمون أن ثورتهم على الأتراك كانت لسوء سياسة هؤلاء ... وأما السواد الأعظم هنا، وما أدراك ماهو، فهو يقول لا إلاه إلا الله ولا رسالة بعد محمد، ولا زعامـــة لغـــير الأتـــراك فـــي الأمـــم الإسلامية ولكي تتصـــور جيّدا ميـــل

---

[1] عبد العزيز الثعالبي (1874-1944) هو عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمان الثعالبي تعلّم بالمدارس التونسية التي تديرها فرنسا بعد أن درس في الكتاب وتعلم النحو واللغة وسائر الآداب العربية تخرّج من جامع الزيتونة سنة 1896 ثم واصل تعليمه العالي بالخلدونية... تأثر بالتيارات الإسلامية المشرقية التي مثّلها محمد عبده والأفغاني ... دعا إلى تحرير أقطار المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي ... أثناء الحرب العالمية الأولى أنشأ الحزب الحر الدستوري القديم حيث اختير زعيما للحزب ... أصدر سنة 1920 كتاب "تونس الشهيدة" فاعتقلته السلطات الفرنسية.. بعد خروجه من السجن سافر إلى الشرق (1923) وبقي هناك مدة خمسة عشر عاما... كان أثناءها يدعو إلى ربط حركة التحرر العربية في المغرب بمثليها في المشرق... عاد إلى تونس (1937) بعد أن اشتد الكفاح في بلاد المغرب ولكنه خسر المعركة التي شنها الحزب الدستوري الجديد على زعامته التي انتقلت إلى الحبيب بورقيبة. [انظر موسوعة أعلام العرب،مرجع سلف ذكره]

[2] يوسف مناصرية الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1988 ص 213

[3] - المرجع نفسه ص 213..

[4] محيي الدين القليبي (1900-1954) سياسي، صحافي، وأديب تونسي... تخرج من الزيتونة كان يجمع ... إلى الاهتمام بالقضايا السياسية الحرص الشديدعلى متابعة الشؤون الأدبية والفكرية. تولىّ تحرير جرائد. "الإرادة " ... "الصواب" ولسان الشعب" ورأس تحرير صحيفة "الزهرة" انتسب إلى الحزب الدستوري القديم الذي عرف بميولاته العربية الإسلامية، كما تولى إدارته بعد مغادرة رئيسه عبد العزيز الثعالبي إلى المشرق (1923) اعتقله الفرنسيون ونفوه إلى الصحراء نحو عامين، بعد إطلاق سراحه غادر تونس إلى مصر ثم إلى دمشق وفيها توفي [انظر موسوعة أعلام العرب، بغداد، بيت الحكمة 2000 وعبد القادر القليبي: محيي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن. مجموعة وثائق انتقالها وأعدتها للنشر عبد القادر القليبي مع تمهيد بقلم الأستاذ الشاذلي القليبي بتونس سراس للنشر، 2004.]

الإفريقيين عموما والتونسيين بالخصوص إلى الأتراك أعطيك أمثلة صغيرة كنموذج [كذا] تتبيّن به الحالة وتتبيّن مقدار خسارة تركيا اليوم بسبب هذا الحادث الأخير. والطعنة النجلاء التي أصابت مقاتلها من يد دعاة العصبية الجنسية وغلاة الطورانية الملحدين. أنشأ صديقي زين العابدين السنوسي[1] مطبعة سمّاها "العرب" وعزم على إصدار نشرة علمية تحت اسم "العرب" فأخذ الناس يتقولون عليه الأقاويل. ويدعون أنه ينتصر للعرب الذين نبذوا سلطة الأتراك ورموا أنفسهم في أحضان الانقليز والفرنسيس وتكوّنت من جرّاء ذلك فكرة ضدّه قاسى من أجلها الشدائد... ولا اذهب بك بعيدا، فقد استثمر أعداء حركتنا الملية هذه الفكرة وتفطنوا لها فحاربوا بها زعماء هذه الحركة إذ يكفي أن تذيع على أعظم الرجال منزلة هنا أنه يدعو إلى الخلافة العربية أو من أنصار الوحدة العربية ... فينبذه الناس ... وكثير من الناس كانوا يقاومون حزبنا ويأبون الانخراط في سلكه بدعوى أن زعيمنا الشيخ عبد العزيز الثعالبي من دعاة الوحدة العربية ويبغض الأتراك ... ولمجرد ما شاع أنه قابل الخليفة عبد المجيد في الأستانة دخل هؤلاء في زمرتنا أفواجا، وعلموا أن ما يقال على الشيخ هو دسيسة أجنبية"[2]

إن هذه الرسالة المطوّلة تعلن رفضا شبه جماعي للعروبية الإسلامية فهي قريبة روحا من تفكير سليمان الباروني الذي لا يقول بغير فكرة الجامعة الإسلامية" ذلك أن تربة بلاد المغرب استعصت على "الرابطة العربية" وفضلت عليها "الروابط الإسلامية".

لقد كتب محيي الدين القليبي الرسالة إلى العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر موضّحا سبب نفور التونسيين من العروبة لأنه كان قد كتب على صفحات جريدة لسان الشعب: "أما العرب خصوم هؤلاء [يقصد العثمانيين] فإننا نذكرهم باحتقار ونمقتهم أشدّ المقت لأجل شيء واحد هو خروجهم عن الدولة العثمانية ومحاربتهم لها"[3].

من الواضح إذا في هذه الفترة، أن العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر حمل على عاتقه في مراسلاته وعلاقاته بالرموز التونسية مهمة بيان عدد من المسائل أهمها:

---

[1] زين العابدين السنوسي (1901-1965): أديب، كاتب، صحفي، مؤرخ الأدب التونسي، درس بالصادقية ثم التحق بجامع الزيتونة (1917-1920) ...كان من الأعضاء المؤسسين للجمعية الزيتونية ومجلتها" البدر"، أسس مطبعة العرب سنة 1922...أصدر نشرة شهرية سماها العرب...منعت الحكومة رواجها ابتداء من العدد الرابع [انظر تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، لبنان دار الغرب الإسلامي 1984 ص65]

[2] عبد القادر القليبي، محي الدين القليبي، مرجع سلف ذكره، ص ص 56-57

[3] لسان الشعب، عدد 138 تونس، 2 أفريل 1924.

1)الخلط الشائع بين العثمانيين والأتراك وهو ما نجده في قول محيي الدين القليبي "وأما السواد الأعظم هنا، وما أدراك ماهو فهو يقول لا إله إلا الله ولا رسالة بعد محمد، ولا زعامة لغير الأتراك في الأمم الإسلامية"[1].

2) تحميل العرب وزر الخروج عن دولة الخلافة.

3) مدى صلاح الفكرة العروبية المشبعة إسلاما زمن ظهور القوميتين التركية والفارسية.

ويمكن أن نلمس ذلك في رسالة القليبي إلى محمد علي الطاهر إذ يقول:" أرى أن الوقت قد حان لبيان الحقائق وإفهام الرأي العام الإسلامي السياسة الطورانية اللادينية التي هيأت ثورة العرب وجعلتها نتيجة طبيعية. وأن وزرها لا يحمله زعماء العرب وحدهم، وإنما يحمل أولئك الملاحدة زعماء الطورانية أكبر جزء منه. فاكتب لنا، أخي، ما تراه مفيدا في هذا الصدد من الحقائق الثابتة ولكن بأسلوب يلائم الوسط"[2]

تؤكد هذه الرسالة ما ذهبنا إليه في القسم الأول المتعلق بموقف الطاهر من "الجامعة الإسلامية" و تعبر عن هذا الوفاء الذي لا يحد من الفلسطيني تجاه العروبية الإسلامية".أو بماذا نفهم هذا الدفاع اللامتناهي عن "العرب" و"العروبة" كما بدا في رسائله إلى محيي الدين القليبي؟

إن الفلسطيني ما كان ليعتني بمثل هذه المسائل لو لم يكن ينطلق من تصور إيديولوجي أملى عليه السعي إلى ترسيخ فكرة الوثاق الحضاري، بين البلاد التونسية والعالم العربي والإسلامي في ذهن ساسة الحزب الدستوري القديم، بعبارة أوضح، بعد انهيار الخلافة (أي فكرة الجامعة الإسلامية) وجدنا الطاهر يقدم عبر كتاباته إلى زعماء الحزب الدستوري القديم فكرة العروبة المشبعة إسلاما فكرة بديلة "للجامعة الإسلامية" يعني أن محمد علي الطاهر في بداية علاقته بالساسة التونسيين حاول أن يرسم "الهوية" التي يجب أن تكون عليها هذه التربة المغربية. هذا التصور سيتم العمل على تحقيقه عبر وسائل مختلفة، منها "روح الدعاية الأدبية للشورى"، والاتصال بأهم الرموز السياسية داخل تونس وفي المشرق العربي خاصة زعيم الحزب الدستوري القديم عبد العزيز

[1] عبد القادر القليبي: محيي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن مرجع سلف ذكره ص 56.
[2] المرجع نفسه، ص 57.

الثعالبي الذي أتيحت له فرصة الإقامة بالمشرق العربي والاتصال مباشرة بالفلسطيني محمد علي الطاهر قبل تأسيس "الشورى"ومنها أيضا محاولة إيجاد سبل العمل المشترك بين المغرب والمشرق العربي نحو نحت شخصية "بلاد عربية مسلمة متمسكة بعروبتها وإسلامها".

لقد بدأ هذا التوجه نحو المشرق العربي بتأثير من المراسلات بين الطاهر والساسة التونسيين يظهرتدريجيا حينما بدأنا نقرأ مثل الذي صرّح به محيي الدين القليبي في جريدة لسان الشعب سنة 1924" لنجد في سياسة هذان الثقلان[كذا] (يقصد أوروبا والمشرق العربي) وصحفهم وهيئاتهم مناصرا لنا وعونا على نيل حقوقنا. وأقل ما يفيد في عملنا هذا أن قضيتنا العادلة فهمها الناس على حقيقتها ولا يقبلون فيها طعن الطاعنين ولا دسائس المغرضين"[1]

بدأت إذن بذرة الشخصية العربية الإسلامية تظهر لدى الزعماء الدستوريين القدامى ويمكن لنا أن نجد في رسالة محي الدين القليبي الثانية إلى الفلسطيني محمد علي الطاهر بتاريخ 4 ديسمبر 1926 أكثر تعبيرا ووضوحا عن هذا التوجه إذ يقول:"لقد رحلت إلى الجزائر أنا والأستاذ صالح فرحات الكاتب العام الثاني للحزب والأخ الشاذلي بن مصطفى كاتب المقال "البلاد الشهيدة دمشق"... كنا في اليوم الرابع بمدينة الجزائر وهناك الشاب أحمد توفيق المدني، أحد زعماء الأحرار الدستوريين والشيخ أبعد إليها من اجل مقالة كتبها ينتصر فيها للزعيم الريفي عبد الكريم بجريدة إفريقيا فعطلت الجريدة وأبعد هو إلى الجزائر."[2] إن هذا الاهتمام بالقضية السورية والمغربية دليل على كون "روح الدعاية الأدبية" لتلك المراسلات و"للشورى" فعلت "بألباب وعقول" الأحرار القدامى ما تفعله" الثمول"

إن هذه الدعاية طريقة لجمع العالم العربي الإسلامي اجتماعيا ومن ثم محاولة توحيده سياسيا. لأن الطاهر كان يعي جيدا قيمة "روح الدعاية الأدبية التي نادى بها شكيب أرسلان إذ يرى:"أن العامل الاجتماعي هو أقوى العوامل الرابطة بين الأمم وأن ركنه هو اللغة والثقافة قبل كل رابطة أخرى ويرى ... أنه ينبغي أن ننشر في سورية والعراق

[1] يوسف مناصرية، الحزب الدستوري التونسي، مرجع سلف ذكره ص213
[2] عبدالقادر القليبي، محيي الدين القليبي ، مرجع سلف ذكره ص 62

وجزيرة العرب كلها روح الدعاية الأدبية وأن تتشبع الضمائر بأننا سكان هذه البلدان كلها أمة واحدة وأصلها واحد"[1] وما كان لهذا الفعل أن يجد سبيلا لولا توفر تربة صالحة ونقصد بذلك أمرين أولهما أن زعماء الحركة الوطنية القدامى كان لهم تكوين تقليدي صرف. وثانيهما هذا التوحيد في الغاية والوسيلة. فالغاية تحقيق الاستقلال والوسيلة هي لبوس ثوب عربي إسلامي إيمانا ومصلحة. وهو ما جعل العروبي الإسلامي ينذر نفسه للدفاع عن رموز الحزب الحر الدستوري القديم وعن القضية التونسية من ذلك مثلا لما اعتقلت فرنسا أحمد الصافي[2] بسبب دعمه لثورة الريف كتب قائلا:" فماذا تريد فرنسا... ؟ هل شرعت بتنفيذ الخطة التي وضعتها اللجنة البرلمانية المشار إليها في العدد الماضي من الشورى لخنق روح الحركة الوطنية في تونس والقضاء عليها؟ ... أليس عبد الكريم مغربيا مثل الأستاذ الصافي؟ أليس الأستاذ الصافي عربيا مثل عبد الكريم؟ ثم كيف يجوز أن تتفق فرنسا مع اسبانيا على قتال عبد الكريم ظلما مع أن اسبانيا غير فرنسا وهذه غير اسبانيا، ثم لا يجوز ذلك للصافي نحو عبد الكريم وهما إنما يدفعان الظلم ويقاومان الاستعمار والغطرسة؟"[3]

يمكن للمرء أن يتبين خلف هذا التوافق بين الطاهر والساسة التونسيين للحزب القديم ما يحكم أبنية الفلسطيني الفكرية في قوله" أليس عبد الكريم [4] مغربيا مثل الأستاذ الصافي. أليس الأستاذ الصافي عربيا مثل عبد الكريم؟ "فهذا الربط بين عبارتي "مغربي" و"عربي" هو بيت هذا التناغم الذي عبّر عنه أحمد الصافي في رسالة منه إلى محمد علي الطاهر إذ يقول:" حضرة الوطني الغيور والكاتب العربي المجاهد في سبيل الإسلام والعروبية الأستاذ محمد علي الطاهر حفظه الله ورعاه ...فإني أرى من واجبي الأكيد أن أمدّ يدي إليكم بالشكر ممتنّا باسمي واسم الحزب الحر الدستوري التونسي، الذي أتشرف

---

[1] أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، بيروت، دار الجيل ط2 1978 ص ص68-69.

[2] أحمد الصافي :ولد حوالي 1890 وانضمّ إلى حركة"الشباب التونسي" وهو ما يزال طالبا. برز مع ميلاد الحزب الدستوري القديم وانتخب أمينا عاما له [انظر علي المحجوبي جذور حركة الوطنية التونسية 1904-1934، تعريف الأستاذ عبد الحميد الشابي، تونس، بيت الحكمة 1999 ص 256.

[3] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص496

[4] محمد عبد الكريم الخطابي (1882-1962) مجاهد مغربي...قاد حرب تحرير الريف المغربي سنة 1921 من الغزاة الإسبان تمكن إثرها من تأسيس "جمهورية الريف" فكانت فزاعة بالنسبة إلى الاسبانيين والفرنسيين لأنها قد تمثل قاعدة لتحرير كل أقطار المغرب العربي، فتحالف الاسبان والفرنسيون وتمكنوا سنة 1926 من القضاء على "جمهورية الريف". ونفي عبد الكريم الخطابي إلى جزيرة (الأرينون) إلى ان تم تحريره سنة 1947 فأقام في مصر واتخذ من مكتب المغرب العربي وسيلة نضال لتحرير بلاد المغرب. أسس سنة 1948 لجنة تحرير المغرب العربي [انظر موسوعة أعلام العرب مرجع سلف ذكره، بتصرف]

برئاسته، على ما لاقته الأمة التونسية من شخصكم المحترم من العطف عليها والدفاع عنها وإعلان صرختها التي كتمتها يد الظلم والجبروت ... في هذه البلاد العربية المسلمة المتمسكة بعروبتها وإسلامها ... "وما أنت إلا سفير تونس في الشرق" فوق ما أنت نقطة اتصال بين آمال العالمين من أبناء الإسلام والعرب"[1]

إن العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر إضافة إلى أنه كان نقطة اتصال الحزب الحر الدستوري القديم بالعالم العربي الإسلامي مثل همزة الوصل بين الحزب ومؤسسه الثعالبي بعد أن غادر تونس. يقول القليبي في رسالته الثانية إلى الطاهر"مر زمن طويل لم يأتنا من الأستاذ الثعالبي كتاب منذ فارق مصر إلى الآن لم ترد منه رسالة حتى إلى عائلته ... وقد كاتبت الأستاذ قبل ارتحاله من مصر بواسطة السيد الحاج محمد بن ساسي التونسي ... ولا ادري أتناول الأستاذ منه كتابي أم لا، لأنه لم يجبني عنه فإذا كان لك علم بمكان الأستاذ أو عندك خبر عنه. لا بأس بإعلامي لا كاتبه من جهة ولأطمئن عائلته من جهة أخرى. والشيخ قد قال لنا في آخر رسالة له إن مركزي هو إدارة الشورى فكاتبوها برسائلي تصلني أينما كنت"[2]

لقد كانت الشورى تقتفي خطى الثعالبي في كل قطر حل به، في مصر والشام والعراق والهند. فنظرة واحدة على صفحات الشورى تقنع المرء بمتانة العلاقة التي تربط العروبي الإسلامي بالشيخ الثعالبي منذ مغادرته الإيالة التونسية سنة 1923 إلى حين عودته إلى البلاد سنة 1937 كانت "الشورى" بمثابة الكتاب الذي يحكي سيرة الثعالبي الذاتية ومذكراته في حله وترحاله، فكان بديهيا أن تكون صلته بالدستوريين مستمرة عن طريق جريدة "الشورى" المصرية ابتداء من سنة 1930خاصة حينما كان مراقبا لبعثة

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 717
[2] عبد القادر القليبي. محيي الدين القليبي، مرجع سلف ذكره، ص 65

الأوقاف[1] في مصر"[2] كما يمكن للمرء أن يقتنع بذلك من شهادة الدستوري الجديد يوسف الرويسي[3] في مذكراته وإن لم يشر إلى جريدة الشورى حصرا بل الصحف الشرقية.

لقد كان محمد علي الطاهر يصل الثعالبي بحزبه إيمانا منه بزعامته وبدوره في الإصلاح السياسي والديني. وهو ما عبر عنه انتصار العروبي الإسلامي للثعالبي حينما هاجمه أحد مدرسي الأزهر بسبب دعوة الثعالبي إلى ضرورة إصلاح الأزهر " حتى يكون للإسلام صلابة الامم العصرية" يقول الطاهر: "لكن الأستاذ فكري ياسين جاء للأستاذ الثعالبي واستفتح المناقشة معه بالطعن على زعامته لتونس، تلك الزعامة التي لم يختلف فيها اثنان من نفس أهل تونس، بل إن فرنسا في معاملتها إياه منذ 25 سنة قد اعترفت له بالزعامة... الأستاذ الثعالبي قال إنه يريد من الأزهر أن يكون صلابة الأمم العصرية فهل يليق بك أن تقول له إنّك يا ثعالبي تريد من الإسلام أن يكون أمة رقاصة؟ الحلال بيّن والحرام بيّن يا شيخ ياسين، أنت لم تكتب مقالك في مجلة الهداية الموجودة لهداية المسلمين واستعملت أنت صفحاتها للإساءة إلى المسلمين"[4] إن هذا الوفاء اللامتناهي لزعامة الثعالبي وحزبه القديم لن يدوم طويلا لأنه سينتقل إلى محضن آخر، سينتقل إلى الحزب الجديد وزعيمه الحبيب بورقيبة الذي ينفر تمام النفور من فكر الثعالبي وفكر الطاهر نفسه.

ولقد التقى العروبيان الاسلاميان محمد علي الطاهر وشكيب أرسلان بالإسلامي عبد العزيز الثعالبي في الدفاع عن "إسلام تونسي وعروبتها" من جديد بعد انعقاد المؤتمر الافخارستي بقرطاج يوم 8 ماي 1930 بتونس فقد كتبت "الشورى" تحت عنوان "ماذا في تونس؟ فجيعة من أفظع الفجائع إلى جمعية الشبان المسلمين في الشرق وإلى علماء الدين ما يلي: "جاءنا من تونس أن مؤتمر التبشير الكاثوليكي الأكبر... سيبدأ

---

[1] حينما صدر الأمر بالغاء جامعة آل البيت التي كان يدرّس فيها الثعالبي والأستاذ فهمي المدرس وطبقة أخرى من كبار الأساتذة "تساءلت رسالة السائح العراقي" بما ذا فكرت الحكومة لتصون للعراق تلك الذرة المغربية؟"يبدو أن الجواب تمثل في "الاستعاضة عن ذلك بإيفاد بعثة مؤلفة من ثمانية عشر طالبا من طلبة العلوم الدينية إلى مصر لاكمال تحصيلهم فيها، على أن يرافق البعثة الدراسية مراقب خاص للإشراف على شؤون الطلاب ...وتلقت الحكومة اشعارا من البلاط الملكي يفهم منه: أن جلالة الملك فيصل الأول يرغب في أن يكون مراقب هذه البعثة الأستاذ عبد العزيز الثعالبي [انظر جريدة الشورى عدد 282، القاهرة، 16 جويلية 1930 ويوسف مناصرية الحزب الحر الدستوري ، مرجع سلف ذكره ص 217]

[2] يوسف مناصرية الحزب الحر الدستوري، المرجع السابق، ص 217

[3] يوسف الرويسي (1907-1980) نشأ في بيئة دقاش بالجنوب التونسي، بيئة رانت فيها الاعتقادات الغيبية وسيطرة الزوايا...كان لملازمته بعض علماء الزيتونة دور في توجيه فكره للدفاع عن عروبة تونس وإسلامها...عمل على ترسيخ الفكرة المغربية [انظر مقال عبد الجليل التميمي "من مذكرات مناضل المغرب العربي المرحوم يوسف الرويسي" ، المجلة التاريخية المغربية، تونس عدد 35-36 ديسمبر 1984]

[4] محمد علي الطاهر، الشورى عدد 316، القاهرة، 18 مارس 1931

جلساته من أول 8 مايو أي في يوم وقفة عرفات قال المراسل: "إن سمو أمير تونس سيدي أحمد باي والوزير الأكبر خليل بوحاجب[1] ... ووزير العدلية طاهر بك خير الدين[2] ... وشيخ الإسلام بتونس الشيخ حميدة بيرم والباش مفتي الشيخ طاهر بن عاشور[3] قد قبلوا تكليف فرنسا لهم بأن يكونوا لجنة شرفية للمؤتمر التبشيري المذكور فنحن نوجه إلى هذه الحادثة المزعجة المؤلمة جمعيات الشبان المسلمين وعلماء الدين في الشرق وبالأخص فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر والمجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين لرفع الاحتجاجات على فرنسا في أنحاء الأرض"[4] لقد تزامن انعقاد هذا المؤتمر مع الاحتفال بمائوية احتلال الجزائر والظهير البربري بالمغرب الأقصى مما نتج عنه إحساس متزايد "بنفوذ أوروبي على الدين الإسلامي" خاصة إذا علم المرء أن القوم فهموا الاستعمار إجهازا على الهوية وليس توسّعا امبرياليا.

انتفضت العباد واهتزّت البلاد المغربية والمشرقية لا سيّما "أنه لم يفت الصحف الفرنسية... تأكيد الصدفة السعيدة التي مكنت من الاحتفال في نفس الوقت تقريبا بهذين المهرجانين العظيمين كما دفعت المقارنة وربط الصلة بين الحدثين من قبل بعض الناطقين الرسميين بلسان الكنيسة المسيحية بما فيهم مطران الجزائر... وقد جاء الظهير البربري الصادر في 16 ماي 1930 ... ليؤكد إرادة فرنسا تقويض الدين الإسلامي بهدف تركيز أقوى لنفوذها في إفريقيا الشمالية."[5] من هنا جاءت ردّة الفعل ممثلة أوّلا في حملة مضادة ضمن الصحف العربية الإسلامية من أهمها جريدة "الشورى" لمحمد علي الطاهر الذي طلب من جمعيات الشبان المسلمين نصرة الدين الإسلامي كما حرّك علماء الدين وهو ما نجده في عنوان مقاله سالف الذكر "إلى جمعية الشبان المسلمين في الشرق وإلى

---

[1] خليل بوحاجب ولد سنة 1863 تلقى تعليما قرآنيا بالكتّاب ثم التحق بالمدرسة الصادقية كما اتصل بالجامعة الزيتونية فتردد على دروسها، أنهى تعليمه بالصادقية ثم أكمل تعليمه الثانوي بفرنسا..تزوج الأميرة نازلي ابنة الصدر الأعظم مصطفى فاضل باشا ولي عهد المملكة المصرية.سنة 1897 أصبح سنة 1911 رئيسا لقسم البحث بالعدلية التونسية ...انتخب لوزارة القلم سنة 1922 ...توفي سنة 1939[انظر محمد الفاضل بن عاشور تراجم الأعلام، تونس، الدار التونسية للنشر 1970 ص273-281.]

[2] طاهر بك خير الدين ابن الوزير خير الدين ولد سنة 1875 تعلّم بثانوية كارنو والمدرسة العسكرية باسطنبول. كان مرافقا للسلطان عبد الحميد الثاني برتبة مقدّم ثم جنرال. اعتزل الحياة العسكرية، ليتفرغ إلى العمل السياسي ، استقر بتونس. اختاره المقيم العام لوسيان سان، ليكون رجل العدالة في تونس [انظر يوسف مناصرية: الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934 بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي 1988 ص 122.]

[3] محمد الطاهر بن عاشور 1879-1973 شغل منصب مفتي الديار التونسية عيّن سنة 1932 شيخ الإسلام المالكي وقد عرف بنزعته الإصلاحية إذ عمل على إصلاح التعليم الزيتوني القديم إضافة إلى ذلك اهتم بتفسير القرآن [انظر أسعد داغر مصادر الدراسة الأدبية الجزء الثالث مرجع سلف ذكره ص 57]

[4] الشورى عدد 273، القاهرة، 7 ماي 1930.

[5] علي المحجوبي: جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934) تعريب عبد الحميد الشابي، تونس، بيت الحكمة 19989، ص506

علماء الدين". ثانيا في بيان أرسلان السبل الواجب اتّباعها "لتحرير الدين الإسلامي من النفوذ الأوروبي"[1] ثالثا في العمل على تعزيز صلة المغرب العربي بالمشرق العربي عبر اجتماعات رموزها الهادفة إلى إيجاد عمل موحد مقاومة للاستعمار ودفاعا عن الدين (مثال ذلك اجتماع 16 ماي 1931 الذي حضره رموز من المغرب والمشرق العربيين منهم الثعالبي وعبد الرحمان الشهبندر.)[2]

لقد مثل المؤتمر الأفخارستي وما سيعقبه من أحداث تمس عقيدة البلاد التونسية في نظر القوم مسار تأكيد الانسجام بين الدستوريين القدامى والرموز المشارقة (أهمهم الطاهر وأرسلان) للحفاظ على شخصية هذا القطر المغربي، من هنا نرى العروبي الإسلامي الفلسطيني كلما تعرضت المنظومة التقليدية لما يعتبره خطرا قد يزحزح هذا البلد المغربي أو ذاك عن ذاتيته كلما أطلق عنان قلمه موضحا مدى تأثير هذه الحوادث في بنية الجسد التقليدي وهذا نلمسه حينما ظهرت مسألة التجنيس في تونس (1933) إذ يقول: "[إنّ] الحرب الجديدة التي تقوم بها فرنسا اليوم في تونس هي تجنيس التونسيين وقد أفتى علماء الإسلام في الشرق والغرب بارتداد المتجنّس. كانت فرنسا منذ تسع سنين قد حاولت هذه الطريقة لإفساد عقائد التونسيين وتفكيك قوميتهم... فعملية التجنيس ستصيب تونس في العقيدة وفي القومية "يبدو أن الطاهر يعتني بالقضايا انطلاقا مما يفكر وهو لا يفكر إلا انطلاقا من النظرة التقليدية إلى الأشياء وفي حدود جغرافية انطلاقا من النظرة التقليدية إلى الأشياء وفي حدود جغرافية عروبية لذلك قال "ستصيب تونس في العقيدة وفي القومية..."[3] فهو يرى في عاملي الدين و"القومية" ما يكسب الجسد قدرة على لفظ الوافدين عليه سواء أكانوا فرنسيين أم إيطاليين. فالإنسان ليس بيولوجيا فحسب بل هو لا يتحرك باعتباره إنسانا إلا بدافع عقدي أيضا.

يمكن التوقف عند مسألة أخرى تعكس تفكير الفلسطيني ففي قوله "قد أفتى علماء الإسلام في الشرق والغرب بارتداد المتجنس" تقديم لعلماء الإسلام المشارقة على المغاربة وفي ذلك دلالة على أن الإسلام إسلام واحد في نظره. و هو تعبير عن رفض

[1] يوسف مناصرية الحزب الدستوري التونسي، مرجع سلف ذكره، ص 220
[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3] محمد علي الطاهر: خمسون، عاما، مصدر سلف ذكره، ص497

الطاهر فتوى المجلس الشرعي بتونس ممثلا في الشيخ المفتي الطاهر بن عاشور بدفن المتجنس بالمقابر الإسلامية إذ يقول: "كيف يجوز للشيخ الطاهر بن عاشور الذي يتولى مشيخة الإسلام في تونس وزميله الشيخ محمد بن يوسف إصدار تلك الفتوى الآثمة المنكرة بدلا من أن يعلنا استنكار التجنيس واستفضاع ما تدبّره لوطنهما ودينهما"[1] إن المرء لا يعجب لقسوة الطاهر على من ذكرنا من الشيوخ التونسيين ذلك أن هذا العروبي الإسلامي حارب كما رأينا في القسم الأول من البحث كل رجل دين أو سياسة خدم مصلحة غير مصلحة وطنه ودينه البعيدة والواقع أن هذه الفتوى جاءت بطلب من فرنسا بعد أن "تمكنت الجماهير الشعبية يوم 31 ديسمبر من منع دفن متجنّس معروف يسمى شعبان بالمقبرة الإسلامية في بنزرت"[2]

لقد رفض الطاهر شأنه في ذلك شأن الوطنيين التونسيين فتوى المجلس الشرعي معتبرين ذلك تذويبا لشخصية التونسيين وهو ما ذهب إليه حتى الحبيب بورقيبة في 22 ماي 1933 في "العمل التونسي"[3]، حسابا سياسيا منه.

إن أفضل تعبير عن موقف الطاهر من المتجنسين، إضافة إلى موقفه من قضية التجنيس وفتوى المجلس الشرعي، ما أوردته الشباب بعنوان "حياة المرتدين الخونة في وطنهم": كتب إلينا من تونس أما الذين ارتدوا عن وطنيتهم ودينهم أرسلوا إلى الحكومة الفرنسية كتابا مؤثرا محزنا قالوا فيه: "نطلب الرجوع إلى جنسيتنا القومية التونسية... فكيف تريد منا الحكومة الحامية البقاء على هذه الحال وأبناؤنا لم تجد نساء وبناتنا لم تجد رجالا وأمواتنا لم تجد مقابر حتى تعنست البنت وشاب الولد وتعطل الميت في دفنه بل وفي بعض الأوقات أخرج من قبره وضاقت دونه أرض الله"[4]

لقد أثارت هذه الأحداث (المؤتمر الافخارستي و الاحتفاء بخمسينية الحماية و التجنيس...) عدة مسائل تعد مفاصل أساسية في تاريخ الحركية الوطنية التونسية منها أولا إن ردة فعل الجماهير الشعبية والدستوريين القدامى كانت بتأثير العقيدة إذ أملتها الرغبة في الحفاظ على شخصية القطر التونسي المتمسك بالمنظومة التقليدية فالمجتمع

[1] محمد علي الطاهر خمسون عاما، مصدر سبق ذكره، ص 497
[2] علي المحجوبي جذور الحركة الوطنية التونسية، مرجع سبق ذكره ص527
[3] المرجع نفسه، ص531
[4] الشباب عدد 54- 14"349"، القاهرة، 26 ماي 1937.

حينئذ بجماهيره الشعبية ورموزه القدامى يرفضون التخلي عن هذا الميسم ومنها ثانيا أن هذه الأحداث كشفت عن بداية ظهور اختلاف بين طرق عمل قديمة تميل إلى الحفاظ على الهوية أو الشخصية (الدين واللغة و الثقافة...) والزمن الحاضر المتغيّر الذي يولي العاملين السياسي والاقتصادي الأهمية الأولى لأن الاستعمار هو توسع إمبريالي ولا يمكن للمرء أن يفهم أنّ فرنسا الرأسمالية اللادينية جاءت بجيوشها الجرارة من أجل تنصير هذا القطر أو ذاك ومنها ثالثا أن هذه الأحداث كانت من أسباب بزوغ بذرة جديدة من الرموز الفكرية السياسية وعت بشكل مختلف الحاضر أي وعت حقيقة الاستعمار ودليلنا على ذلك أنها ستحارب الاستعمار بمفاهيم أنتجها الاستعمار نفسه (الديمقراطية وحقوق الإنسان والمساواة و حق الشعوب في تقرير مصيرها...) من ثمة لم تعد الوجهة نحو المشرق العربي بل الوجهة إلى الغرب نفسه الذي أنتج شبكة هذه المفاهيم الجديدة.

بدأت هذه الرموز السياسية الجديدة بالتحرك مستغلة تلك الأحداث. ويمكن أن نجد صدى لهذا الفكر الجديد ولأسلوبه في موقف الحبيب بورقيبة من التجنيس الذي يقول إنّ " السياسة الفلاحية للحماية ليست سوى مظهر من سياستها العامة تجاه العنصر الأهلي. ففي مجال الاستعمار كل الأشياء متصلة بعضها ببعض. فسياسة التجنيس أيضا وسيلة للإسراع بتفتيت الشعب التونسي وهي تضاف إلى سياسة الاستلاب والتفقير الرامية إلى إضعافه وحرمانه من وسائل المقاومة. والقصد أن يفضي كل هذا في النهاية إلى طرد التونسيين من مواقعهم وذوبانهم..."[1] إننا إزاء منعرج هام حاسم في تاريخ الحركة الوطنية من جهة الفكر والمنهج فقد بدأنا نشهد بدءا من هذه الأحداث تضخيما للسياسي والاقتصادي والاجتماعي على حساب "الشخصية" و"الهوية" والاتصال بالمشرق بمعنى تراجع دور المادة العقدية وارتخائها شيئا فشيئا وإلا فبماذا نفهم تقديم بورقيبة "السياسة الفلاحية" على "سياسة التجنيس" ثم قوله "سياسة التجنيس" "وليس عملية" أو "حادثة" أو" قضية" التجنيس. فظهور مصطلح "السياسة" مقترنا بالفلاحة وبالتجنيس تتيح لنا فهم الفكر البورقيبي ومن ثم فكر الدستوريين الجدد فما سبق يمكن أن نجده عند محمود

[1] علي المحجوبي: جذور الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص532

الماطري[1] في موقفه من تصريح محمد شنيق حول "الخمسينية" إذ "آخذه على تمجيد عمل لم يستفد منه التونسيون إلاّ الشيء القليل وتقريض مفاخر حضارة لم تصل إلا إلى أقليّة صغيرة من الأهالي"[2]

إن هذا الكلام عن عدم استفادة كل التونسيين من "مفاخر الحضارة الغربية فيه إقرار بإيجابيات الاستعمار في جوانب معينة من هنا بدأنا نلمس تجاوز الرؤية القديمة للاستعمار وللحضارة الغربية باعتبارها "شرا أو شيطانا" أو عاملا خارجيا معطلا يفسر سبب تخلف هذه البلدان وهو الفهم الذي عبّر عنه التيار الإسلامي والعروبي الإسلامي.

ستصبح كل هذه الأمور أكثر وضوحا وستظهر للعيان بانشقاق الرموز السياسية الجديدة عن الحزب القديم وقد كتب محمد علي الطاهر معبرا عن موقفه الرافض لهذا الانشقاق، مقالا في جريدة الوادي بمصر، بتاريخ 1934/06/21، عنوانه "ماذا في تونس، وماذا يريد بورقيبة بانشقاقه على زعيمها الأستاذ الثعالبي؟" قائلا : "...فيما كانت تونس في هذه الغمرة من البلاء والشقاء إذا بطائفة من الشبان الجدد أكثرهم من المتعلمين تتقدم لخدمة الوطن ولكن... سلكوا سبيلا غير قويم لأنهم بدلا من أن يعملوا منفردين ليضطروا الحزب الحر الدستوري إلى العمل واليقظة أخذوا يشتمون رجاله ويطعنون على أبطاله، ثم ألّفوا حزبا جديدا سموه باسم الحزب الأصلي ونشروا له دعاية خارجية كادت توهم الناس في غير تونس أن هيئة الحزب الأول هيئة مارقة! والحزب الحر الدستوري التونسي...أسسه الأستاذ الثعالبي العالم الناضج ورجله الفذّ. وكان شبان الحركة الجديدة في تونس يعرفون هذا كله حق المعرفة فتسلحوا باسمه وادعوا أنهم يحملون لواءه وينهجون نهجه فالتف حولهم كثيرون ولكن الأكثرية الطاحنة من الشعب التونسي لا تزال مع هيئة الحزب الأولى، وعقلاء البلاد يتمنون زوال هذا الخلاف الذي لم يكن على الجوهر قط، لأن الجوهر سليم، واخلاص المختلفين لا شك فيه"[3] إن المتأمل في هذا الشاهد المطول يقف عند مسألتين على الأقل غاية في الأهمية. أولاهما أن العروبي

[1] محمود الماطري 1897-1978 تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بين 1905-1916، تحصل على شهادة الباكالوريا بجزئيها 1918-1919، تحصل على شهادة الطب في باريس سنة 1926...شارك في الحياة السياسية منذ مطلع الثلاثينات، عين رئيس الحزب الحر الدستوري الجديد إثر مؤتمر قصر هلال 1934 وانشقاق جماعة الديوان الساسي ثم استقال في جانفي 1938، عين أول وزير للصحة بعد الاستقلال 1956، كما انتخب عضوا في المجلس القومي التأسيسي [انظر محمد علي بلحولة: الطبيب التونسي رسالة ومواقف 1893-1993، تونس مطبعة omega 1995 ص ص 226-235]

[2] علي المحجوبي، جذور الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص532

[3] خمسون عاما في القضايا العربية، مصدر سبق ذكره، ص413

الإسلامي محمد علي الطاهر يعتبر الاختلاف الذي حصل بين الحزب القديم والحزب الجديد اختلافا في طرق العمل وذلك لقوله "بدلا من أن يعملوا منفردين ليضطروا الحزب الحر الدستوري إلى العمل واليقظة" وثانيتهما إقراره أن "الخلاف لم يكن على الجوهر قط لان الجوهر سليم" وما نظنه يقصد بالجوهر الوطنية لأن ذلك أمر لا يختلف فيه اثنان بل يقصد بذلك عدم اختلاف التصورات بين الرموز القدامى والجدد وهنا يطرح علينا بإلحاح أكثر من سؤال لم هذا الجزم بعدم الاختلاف في التصورات؟ هل هو نابع من غياب معرفة حقيقية بالتكوين الفكري والنفسي لهؤلاء الرموز الجدد وخاصة بورقيبة؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فكيف يمكن أن نفهم التقارب بين الطاهر وبورقيبة في البداية؟ إن مثل هذا التساؤل يفرض علينا أن نقف عند طبيعة هذا الاختلاف حتى نفهم شدة التباعد الفكري بين التونسي الكورغلي الحبيب بورقيبة والفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر ومن ثم سر التقارب والوفاء اللامتناهي بين الشخصيتين.

لقد ذهبت القراءات التاريخية في فهم تاريخ تونس المعاصر مذاهب شتى في تفسير الخلافات بين الدستورين القديم والجديد فمنها قراءات تاريخية تركز على تباين طرق العمل[1] ولا تولي التباين الفكري أهمية تذكر، بل تكاد تلغيه ومنها ما يركز عكس ذلك على وجود تباين فكري سياسي حقيقي[2] بين نظرة قديمة ونظرة حديثة إلى الأشياء.

إن التركيز على جانب واحد من جوانب الاختلاف إنما هو "شبيه بالتركيز على الشجرة التي تخفي الغابة جميعها" لذلك يمكن للمرء أن يولي عوامل ثلاثة أهمية في فهم ذلك الخلاف.

أول هذه العوامل الاختلاف في المصالح أي أن رموز الحزب القديم كانوا اجتماعيا ينتمون إلى طبقة برجوازية لها "أصل وفصل " منبثقة أساسا من برجوازية مدينة تونس وكان يسيطر عليها آنذاك محامون قدامى وفلاحون كبار وتجار بالجملة"[3] فكان بديهيا أن يكون شغلهم الشاغل فضلا عن نضالهم السياسي ضدّ الاستعمار، الإبقاء اجتماعيا على مكانتهم والحفاظ على مصالحهم فكان ميسم نضالهم مرتبطا ارتباطا وثيقا

[1] انظر مثلا، علي المحجوبي جذور الحركة الوطنية التونسية، مرجع سلف ذكره، ص471

[2] انظر شارل اندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، ترجمة المنجي سليم والطيب المهيري والصادق المقدّم وفتحي زهير والحبيب الشطّي ومراجعة فريد السوداني، تونس/ الجزائر، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1976 ص 74- 75 .

[3] علي المحجوبي جذور الحركة الوطنية التونسية، مرجع سلف ذكره، ص559

بمصالحهم وعلى العكس من ذلك ظهر الشبان الجدد وهم "من أصيلي داخل البلاد والبرجوازية الصغيرة وزيادة على الطاهر صفر، فقد كان الحبيب ومحمد بورقيبة وحتى البحري قيقة... أصيلي الساحل... كانت هذه المنطقة إذن قلعة البرجوازية الصغيرة..."[1] هذه الطبقة تخلصت من "عبودية" المكانة الاجتماعية ومن "الأصل والفصل" ولم يكن يحكمها منطق الحفاظ على مصالحها الاجتماعية ورغم أن هدفها "مصلحيّ" كذلك هو الاستعاضة عن "الحسب و النسب" وعن المكانة الاجتماعية بمكانة أخرى "سياسية". تذهب بريح تلك الطبقة القديمة وبالتركيبة الاجتماعية القديمة وبممثليها وهم حملة فهم قديم للأشياء ويمكن أن نتبين ذلك انطلاقا من الوضع العائلي مثلا لـ"الكورغلي" الحبيب بورقيبة إذ يقول: "ولدت سنة 1903 بالمنستير بالساحل التونسي في عائلة شريفة تعرضت إلى قدر غاشم. فمعظم أهلي كانوا ضحايا لقمع البايات بعد ثورات منتصف القرن الماضي، لقد اضطرت الحاجة والدي للتطوع في الخدمة العسكرية يعد ذلك في نهاية المطاف مهنة محترمة مكنته من عيش محترم لكنه مضطر للاحتفاظ منها بذكريات أليمة إضافة إلى تقاعده منها برتبة ملازم أول وكان كثيرا ما يعلمني، بعد انتصاب الحماية عن رغبته في أن أتعلم حتى أجنب نفسي أعباء الخدمة العسكرية".[2] فلا يمكن للمرء أن يفهم الفكر البورقيبي دون أن يولي هذا الظرف العائلي الاجتماعي الذي ترك أثرا نفسيا سيكون له دور هام في نحت شخصية بورقيبة أهمية فإذا آمنا بأن المرء مكوّن من ثلاثة عناصر أساسية : الجسدي والنفسي والعقلي فإن الرغبة في الاستعاضة عن المكانة الاجتماعية يصبح أمرا ضروريا بالنسبة إلى فئة شبان الدستور الجديد وخصوصا بورقيبة الذي يقول: "كان والدي يجل العلم نظرا إلى كونه أمضى مدة من حياته بعيدا عن منطقتنا الريفية. لذا أولى اهتمامه إلى تعليمي وأخوتي بشكل مركز كثيف وكان تساوره مخاوف من أن يرحل ويتركنا دون رصيد خاصة أنا... انتهى به الأمر إلى زوال الثروة ومضى ببيع شجر الزيتون الذي يمتلكه. فاستطعت أن أدخل بذلك إلى مدرسة الصادقية الثانوية... وكانت تلك أحد آخر أمنيات أمي التي توفيت بعد ذلك بقليل."[3]

---

[1] علي المحجوبي : جذور الحركة الوطنية ، مرجع سلف كره ص 559 .

[2] Jean Lacouture, cinq hommes et la France Edition du Seuil, Paris, 1961, P109

[3] Jean Lacouture, Cinq hommes et la France, op. cit., p 110

لقد كان شغل هؤلاء الشبان الجدد نفسيا وفكريا أن يبرهنوا على أن القاع ليس عقيما وأن مقولة من ولد في عائلة فقيرة لا يمكن إلا أن يعيد تاريخها، مقولة مغلوطة، وهذا هو ما عنيناه باختلاف المصالح بين الدستوريين القدامى الراغبين في الإبقاء على مكانتهم الاجتماعية أي أن يبقى الهرم هرما والقاع قاعا والدستوريين الجدد الراغبين في قلب المعادلة بشكل يصبح فيه القاع هرما.

أما العامل الثاني فهو التباين بين نظريتين متناكرتين إلى الأشياء الأولى تستمد معناها من "روح الدين الإسلامي" والثانية تتغذى وتقتات من "الصعيد الزمني اللاديني". كان لتكوين الشبان الآخذين بهذه النظرة أثر كبير في فهمهم الظاهرة الاستعمارية ويمكن أن نلمس ذلك في رد الحبيب بورقيبة عن سؤال صحفي فرنسي حول الرموز الفرنسية التي أثرت في تكوينه الفكري والسياسي إذ قال: "قبل كل شيء أذكر م. كوليار (M. Collieres) أستاذي في مادة الفرنسية في المعهد الصادقي وإليه يعود الفضل في تكوين فكري وذوقي... بعدها تعرفت إلى فليسيان شالي (Félicen Challaye) واشتغلت على درسه في الأخلاق... علمت مبكرا ميله إلى توجهاتنا فاستدعيته إلى تونس كي يراقب حزبنا الجديد أثناء تكونه [يقصد بعد انشقاق 1934] وكذلك بعد الاستقلال... بعدها انبهرت بقاستون برجري (Gaston Bergery) الذي جاء ليدافع عن الوطنيين الشبان سنة 1931... فهم... جوهر قضية الاستعمار وساعدنا باستمرار وعندما زارني في السجن العسكري بتونس سنة 1939 كان لذلك بالغ التأثير في حراس السجن... أما صديقي الفرنسي المهم فهو المحامي أندري بيرتون (André Berton)... لقد كان شيوعيا... جاء ليدافع عن الشبان الدستوريين الذين احتفلوا بالإفراج عني سنة 1939... مثل بالنسبة إلي خير سند في أحلك الفترات وأصعبها... أما بالنسبة إلى شارل أندري جوليان (-Charles André Julien) جمعتني به روابط قبل جان رو (Jeans Rous) أحد أصدقائي الكبار كان ذلك سنة 1936 عندما كان كاتبا للجنة العليا المتوسطية لحكومة الجبهة الشعبية... عرفني بـبيار فيينو (Pierre Viénot) كاتب الدولة... يأتي بعد هؤلاء منداس فرانس (Mendès - France) وإدغار فور (Edgar Faure)... أما الجنرال ديغول

(Général De Gaulle) فقد احترمت شخصه إبان الحرب وقرأت مذكراته، يا له من كاتب ويا له من انشداد إلى نمط تفكير معين..."[1]

لقد كان لهذا التكوين أثره البعيد في فهم الظاهرة الاستعمارية ومن الأحداث بالنسبة إلى بورقيبة والرموز الجديدة إذ أصبحوا أشد انتباها إلى طبيعة سير المجتمع الخفي وأبلغ وعيا التفاوت الحضاري بين الغرب الإمبريالي المتطور المستعمر الذي يقود القاطرة الحضارية والمستعمرات المتخلفة التي لا تزال في طور الطفولة حضاريا وقد عبر عن ذلك مقال الحبيب بورقيبة في جريدة العمل سنة 1934 بعنوان "موقفنا إزاء الاستعمار" إذا يقول: "لا يخفى على ذي لب أن القوي كلما تغلب على من كان دونه في القوة فاستحوذ بذلك على ثروة ذلك الضعيف... إلا وسعى بكل مجهوداته في دوام تلك الحالة حتى تتخلص فريسته تلك من قبضة يده... وكذلك الأمم "المتمدنة" كلما تغلبت على أمة ضعيفة ووضعتها تحت كلاكلها إلا وأخذت كل التدابير التي تراها كافلة لدوام تلك الحالة."[2]

إن الحبيب بورقيبة بهذا الفهم التاريخي للظاهرة الاستعمارية اقتصاديا غادر البكائية والشكوى من الإستعمار باعتباره إجهازا على "الهوية" (الدين و اللغة و الثقافة) ذلك الفهم الذي عبر عنه جماعة الحزب القديم والتيار العروبي الإسلامي مثل محمد علي الطاهر وكذلك التيار الإسلامي. فبورقيبة إيمانا منه بفكرة التطور التي عبر عنها بقوله "الأمم المتمدنة" و"أمة ضعيفة" فهم أن الاستعمار اقتصادي أساسا. وهو ما نجده في قوله "استحواذ القوي على ثروة الضعيف".

هذا الفهم سيتضح أكثر في مقال الحبيب بورقيبة بعنوان "سعي الحزب من الناحية الاقتصادية" سنة 1937 إذ يقول: "لا يستطيع أحد أن ينكر بأن الدستور كان له فضل السبق بادراك ما بين السياسة والاقتصاد من الارتباط الوثيق في نظر الاستعمار فلقد كنا أول من فتح أبصار الجماهير لتفهم الأسباب الاقتصادية التي تشرح وتوضح السياسة العامة لحكومة الحماية ولنا اليقين بأن الحماية إذا كانت قد قدرت على نقل الثروات بمثل تلك المثابة وبمثل تلك السهولة من يد التونسيين إلى يد الأجنبي فما ذلك في

[1] Jean La couture, Cinq hommes et la France, op. cit., pp. 177-180.
[2] الحبيب بورقيبة: "موقفنا إزاء الإستعمار"، العمل، تونس الخميس 7 جوان 1934.

الغالب إلا لأن العنصر التونسي لم يكن يدرك بمزيد الوضوح الغايات البعيدة للاستعمار."[1]

إن هذا الفهم يستند إلى مزج بين القوة الاقتصادية باعتبارها المحرك الأول الفاعل الأهم في حركة الاستعمار والقوة السياسية وهو فهم سيمكنه من تقييم صحيح للممارسة السياسية الفرنسية في تونس وبالتالي من وضع طرق عمل نضالية تولى مصلحة فرنسا الاقتصادية أهمية مثلما سيمكنه من أن يرتج الباب في وجه المنظومة التقليدية التي لا تولي العامل الاقتصادي والسياسي ما تولي العامل الديني والأخلاقي من أهمية في فهم الاستعمار وأسباب التخلف. إن هذا ، ونحن هنا بإزاء العامل الثالث، هو جوهر الخلاف في نظرنا فبورقيبة ما كان له أن يحظى بمثل هذا الفهم لولا تكوينه الفكري ولولا وجود حلقة الرموز الفرنسية التي جمعته بها روابط متينة، وقد بين ذلك بقوله: "التحقت بكلية العلوم السياسية وكان ذلك يندرج ضمن الهدف الذي رسمته لنفسي بأن أكون رجل شعب ولذلك لم أختر درس السياسة وإنما درس الموارد العامة لقد كانوا يتحدثون في عهد اليسار عن منجم ثروة "mur d'argent" ولم أكن أعي معنى ذلك بالنسبة إلى فرنسا وإلى بلدي تيقنت حينها أن هناك بعض الأمور يجب أن تدرك وإلا فإننا سنبقى باعتبارنا تونسيين مغلوبين تدوسنا الأرجل، فقررت المواجهة ومكنتني هذه الدروس التي أتابعها من تبين أن الاستعمار لا يعني الذل والمهانة فحسب وإنما يعني أيضا الاستغلال وتحويل الثروات بالشكل الذي نصّب فيه تيار اقتصادي في الميزانية وفي القانون يعمل على تحويل الثروة في مجملها إلى مجموعات الاستغلال. كما تبين أن البلد المستعمر كان دائما ضحية عملية استنزاف لموارده المالية."[2] إنه ما كان لبورقيبة أن يسلك هذا المسلك في الفهم لو لم يعرف ما يربط حقيقة بين الاقتصاد والسياسة. لقد تفطن هذا المفكر السياسي إلى هذه العلاقة الحميمة التي تقوم عليها الظاهرة الاستعمارية كما تفطن إلى أن التاريخ في العصر الرأسمالي أصبح يحركه العامل الاقتصادي بالدرجة الأولى ومثل هذا الفهم حصل له كما ذكرنا نتيجة تكوينه ونتيجة الروابط المتينة برموز

[1] الحبيب بورقيبة: "سعي الحزب من الناحية الاقتصادية"، العمل، تونس 9 ديسمبر 1937.

[2] Jean La couture, Cinq hommes et la France, op. cit, pp 115 – 116.

سياسية فرنسية كتب في هذا الموضوع يقول حينما تفطن إلى العلاقة الوشيجة بين السياسي والاقتصادي : "لقد أدرك هذه الحقيقة "فليسان شلاي" حيث قال بأن الاستعمار هو في كل مكان نظام قائم على الضغط السياسي الغاية منه استغلال الشعوب المستعمرة (بالفتح) اقتصاديا."[1] وفليسان شلاي هو أستاذ بورقيبة. جمعته به علاقة متينة.[2] استدعاه إلى تونس أثناء تكون الحزب الجديد سنة 1934 وأثناء الاستقلال. ما الذي انجر عن هذا الفهم للاقتصاد باعتباره محرك التاريخ، محرك الاستعمار، محرك السياسة؟

قاد هذا الفهم بورقيبة إلى وعي ضرورة تغيير الثقافة حتما. ونحن نلمس ذلك من مستويين اثنين أولهما أنه حارب الاستعمار بجهاز مفاهيمي أنتجه الاستعمار نفسه. وثانيهما أنه بدأ يسرب مسألة ارتباط تونس وشعبها بالشعب الفرنسي وبالغرب. من ذلك مثلا ما صرح به الحبيب بورقيبة في عهد المقيم العام الفرنسي بيرطون الذي رفض الإصلاحات الجوهرية التي طالب بها الدستور الجديد ولم يقم سوى بزيادة عدد الممثلين التونسيين بالمجلس الكبير (6 جانفي 1934)[3]، إذ يقول: "فكانت واقعة المنستير التي سالت فيها الدماء وأظهرت أن الروح الجديدة التي دبت في الشعب لم تؤثر فيها تعطيل الجرائد... وبذلك اتضح أن صوت الشعب لا تصغي إليه الحكومة وسط المجالس الكبيرة والصغيرة والحجرات المتعددة ولكن على قارعة الطريق... فإلى الأمام أيها الشعب النبيل وليكن رائدك الدفاع عن حياتك والثبات على المبدإ والصبر على الاضطهاد فبذلك تصل إلى مستوى الأمم الحية وتبلغ إلى غايتك الشريفة... وهي التخلص من نير الاستعمار وربط علائق جديدة مع الشعب الفرنساوي الذي تربطك وإياه روابط اقتصادية وسياسية وأدبية لا ينكرها إلا عنود ولكن بشرط أن تكون مقامة على دعائم الحرية والمساواة."[4]

لقد حضرنا زمان بورقيبة والدستور الجديد الذي ترجم مسألة خوف السياسي من عامة الناس، هذه الفكرة قام عليها الفكر البورقيبي وأخذت عنه الفكرة الإسلامية فيما بعد. وهـذا عين ما نجده في قولــه: "إن صــوت الشعــب لا تصــغي إليه الحكومــة في وسط

[1] الحبيب بورقيبة:"سعى الحزب من الناحية الإقتصادية" العمل، مقال سلف ذكره.
[2] Jean La couture, Cinq homme et la France, op. cite. Pp 177-178.
[3] Charles-André Julien, L'Afrique du Nord en marche, op. cit. p 76.
[4] الحبيب بورقيبة: "موقفنا إزاء الإستعمار" العمل، مقال سلف ذكره.

المجالس... ولكن على قارعة الطريق" لقد آمن بورقيبة والحزب الجديد بهذه القدرة الهائلة الكامنة في صلب الجماهير الشعبية فالتحم بها وحاول استغلالها بشكل مكنه من انتزاع حقوق البلاد السياسية وهذا هو جوهر عمل الحزب الجديد وخصوصا بورقيبة لقد عمل على منح الشعب التونسي ثقافة سياسية قويمة وزرع بذور ثقافة تلائم الاستعمار الإمبريالي وتخرج المجتمع من تقليديته فلم يعد هناك مفهوم "الجهاد" بغاية الدفاع عن الدين بل أصبحنا إزاء مفهوم "الدفاع عن حياتك" والغاية الوصول إلى مستوى "الأمم الحية" و"التخلص من الاستعمار وربط علاقة اقتصادية وسياسية بالغرب" لأن المصلحة تقتضي أن نرتبط بمن هو أقوى منا وليس الارتباط والأخذ عن متخلف مثلنا وهو ما عبر عنه فيما بعد بقوله: "إن الجهاد والحرب المقدسة اليوم ليستا ضد الخونة، إنهما ضد التخلف التنموي وسياستنا تتمثل في بناء أمة قوية مزدهرة محترمة... وصدقوني إن تفسيري للنص الديني الإسلامي هو التفسير الأصح."[1]

لقد بدأ الفكر البورقيبي منذ بداية ثلاثينات القرن العشرين يقدّر موازين القوى الاستعمارية التي تقود العالم تقديرا واقعيا ومن ثم بدأ يقول بسياسة التغيير الاجتماعي، والثقافي والسياسي والاقتصادي، بإتباع سياسة المراحل الأنجلوساكسونية، فعلى المستوى الثقافي بدأ يركز الاهتمام على الأرض لا على السماء وعلى المستوى الاقتصادي بشر بربط علاقات اقتصادية بقاطرة الحضارة بدأت سنة 1934 بالإقرار بضرورة وجودها من زاوية المصلحة، ولا يمكن لعاقل أن ينكرها وانتهت باعتبارها مصدر هوية شمال إفريقيا حينما صرح قائلا: "إن الرباط و الجزائر و تونس وليبيا أكثر قربا إلى لشبونة و مدريد و باريس وروما منها إلى دمشق وبغداد والرياض."[2]

أما على المستوى السياسي، فقد بدأ ينهل منذ بداية ثلاثينات القرن العشرين من مبادئ الثورة الفرنسية المشبعة بروح الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية التي تميل إلى التغيير السلمي دون ثورات دموية. على هذا الأساس حارب فرنسا باعتماد مفاهيم الثورة البرجوازية الفرنسية (الحرية و المساواة و حقوق البشر...) واشترط أن تقوم العلاقة بفرنسا على "دعائم الحرية والمساواة" كما يقول في موضع آخر ينتقد السياسة البيرطونية

[1] Paul Balta, Le grand Maghreb, Paris, p 62.
[2] Paul Balta, op. cit., p61.

التي زادت من مجاعة البلاد والعباد: "كلنا يعلم أن تلك السياسة الخرقاء قد أتت على الحرث والنسل بقضائها على الثورة التونسية... ولكن ما كنا نظن أن الحكومة ستبقى على سياستها تلك وتحافظ على مبدإ الميز والإرهاق بعد أن فرغت الجيوب وامتصت الدماء وأخذ الجوع يقطع أحشاء أمة بأسرها وضعت ثقتها في دولة عظمى اشتهرت في سابق الأجيال باحترامها حقوق البشر."[1] .

نقرأ له أيضا في عهد المقيم العام أرمان قيون الذي عين خلفا لبيرطون سنة 1936 قوله :"إن امتصاص ثروة التونسي يسير بخطى واسعة... إننا لا نعتقد أن م. قيون لا يتصور كنه الضرر الذي يلحق بسمعة فرنسا في هذه البلاد من جراء نهب الثروة التونسية."[2] فقوله "إن م. قيون لا يتصور كنه الضرر الذي يلحق بسمعة فرنسا" يثبت أن بورقيبة كان يمارس السياسة باعتبارها "فن الممكن".

إن هذا المفكر السياسي كان يقدر الواقع الحضاري أي الهوة الشاسعة بين تونس وفرنسا حق قدره. لذلك حاربها من ناحيتين أساسيتين أولاهما "سمعة فرنسا بلد "فلسفة الأنوار"، ومبادئ الثورة البرجوازية التي أصبحت مقياس البشرية وثانيتهما انطلاقا من "الإيمان ببراديغم المصلحة" وهذا هو ما نجده في قوله: "إن م سارو سيجد الشعب التونسي مستعدا لأن لا يستكين لذلك التحدي وليقيم له الدليل على أنه أخطأ الطريق حتى يقتنع بأن الوسيلة الوحيدة لأن تحافظ بها فرنسا على المملكة التونسية وبالتالي على إفريقيا الشمالية بأسرها هي سلوك سياسة وفاق وحسن تفاهم وربط أواصر المشاركة والتعاون بين الشعبين."[3] لقد فهم بورقيبة أن أدواء الوطن لم تكن في العامل الخارجي أي الاستعمار الذي حمّله التيار الإسلامي والتيار العروبي الإسلامي ممثلا في محمد علي الطاهر مسؤولية التخلف الحضاري العربي والإسلامي فقط.

كما فهم أنه من مصلحة البلاد المتخلفة الأخذ عن القوي لا عن الضعيف،فجاءت دعوته إلى التعاون بين الشعبين ولكن على أساس من "الحرية والمساواة" فكان بديهيا أن يحارب تلك الرموز الداعية إلى الارتباط بمن هو متخلف مثلنا. من هنا كان نضال الحبيب

---

[1] الحبيب بورقيبة: "بوادر العاصفة"، العمل، 30 أوت 1934.
[2] الحبيب بورقيبة،: "أجهل أم تعنت؟" العمل، تونس، 30 ديسمبر 1937.
[3] المقال نفسه.

بورقيبة ومن لفّ لفّه مزدوجا حارب الاستعمار وفي الآن نفسه حارب الرموز القدامى، وحملة الوحدة العربية الإسلامية ممثلة في الحزب القديم ثم في بعض رموز الحزب الجديد فيما بعد، لذلك استعاض عن ذلك المفهوم الإسلامي الوحدوي والمفهوم العروبي الإسلامي بغرس بذرة مفهوم الوطنية منذ بدايات ثلاثينات القرن العشرين، وهو ما عبر عنه في الاجتماع الثاني للحزب الحر الجديد الذي انعقد أيام 30 – 31 أكتوبر و 1 – 2 نوفمبر 1937 عندما قال "وبمقابلة حالة الشعب ونفسيته اليوم وما كان عليه قبلا من الخمول والاستكانة يتضح لكل نزيه ما زرعناه من بذور الوطنية الصادقة في شعبنا التونسي."[1]

وقد بان في هذا المؤتمر للعيان الصراع الفكري بين نظرة قديمة ونظرة حديثة أي نضال هؤلاء الشبان الجدد وعلى رأسهم بورقيبة من أجل لفظ ميسم المجتمع التقليدي إذ ظهر مصطلح "الرجعية" مقترنا بسمة "شرذمة" أطلقها الحبيب بورقيبة على الزعماء القدامى يقول: "يجب علينا الاعتراف بأن تونس لها مصالح عامة لا تنطبق بصفة لزومية مع المصالح الشخصية التي لبعض الفرنسيين بتونس في حين ينبغي فيه تذكر أن تونس هي بلاد السيادتين، وهذا من شأنه أن يظهر وأن هناك سيادة تونسية مستقلة عن السيادة الفرنسية سيادة تونسية لها حياتها الخاصة ومناطق نفوذها وامتيازاتها معترف بها رسميا" ذلك موقفنا التي تحرجت منه صحف الرجعيين كجريدة تونس الفرنسية... فطلبنا بالحق المعترف به من الخصم الذي كان ينكر السيادة التونسية فأصبح يعترف بسيادتين يسهل الحصول على هذا الحق هو شطر أمانينا والحصول على الشطر الأول. يسهل مأموريتنا في الحصول على الشطر الباقي هذه هي السياسة المزدوجة... وهناك مسألة الاستقلال فتلك الشرذمة تتهمنا بأننا بعدنا عن المبادئ الدستورية لعدم مطالبتنا بالاستقلال وتناسوا دخولهم في لجنة بيرطون التي هي لجنة حكومية بينما أبينا نحن ذلك ولم يخرج منها المرحوم السيد أحمد الصافي إلا بعد إبعادنا وفيما نحن نقارع هجمات الاستعماريين في منفانا إذ بتلك الشرذمة تتوسل بالمكاتيب المخجلة ليسمح لها بيرطون بالمقابلة لتشكره وتصيغ له المديح..."[2]

[1] خطاب بورقيبة في المؤتمر الثاني للحزب الحر الدستوري، العمل، 10 نوفمبر 1937.
[2] خطاب بورقيبة في المؤتمر الثاني للحزب الحر الدستوري ، المقال نفسه.

لقد كان بورقيبة وطنيا ديمقراطيا على الأقل حتى بداية الاستقلال حارب الرموز القدامى لنفوره من استنساخ مجتمع قرآنه القرن السابع الميلادي ولنفوره من الفكرة، العروبية الإسلامية والفكرة الإسلامية، وتحفّظه إزاء الفكرة المغربية التي نشأت زمن نشأة نجم شمال إفريقيا[1] 1926 ومع جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا[2] سنة 1927.

هذا القول بالفكرة الوطنية يفترض وجوبا تقليص القول بما عداها من أفكار وتضخيم ما هو وطني قطري مما جعل مرجعه الفكري "التجربة الإنسانية" لا العربية ولا الإسلامية وهو ما سيؤدي إلى صراع بورقيبة مع التيار الإسلامي والقومي،[3] لأنه أخذ عن الأصل مباشرة دون واسطة الشرق ودون وصيته فهو بدوره يأخذ عن الغرب.

إن كل هذه النقاط تضعنا في حيرة فكرية معرفية حول طبيعة التقارب والوفاء اللامشروطين بين هذا الفكر البورقيبي والعروبي الإسلامي محمد علي الطاهر الذي نفى أن يكون الخلاف بين الحزب الجديد وخصوصا بورقيبة والحزب القديم فكريا. إننا بعد الوقوف عند ضرورة الجمع بين عوامل ثلاثة على الأقل : المصلحة والاختلاف الفكري والاختلاف في طرق العمل، لفهم تاريخي حقيقي لصراع الحزبين القديم والجديد وكذلك صراع رموز الحزب الجديد فيما بعد.

يمكننا أن نتبين عددا من الأسباب التي تفسر تقارب محمد علي الطاهر والحبيب بورقيبة في البداية من هذه الأسباب جهل العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر بحقيقة تكوين بورقيبة النفسي والفكري ودليلنا على ذلك هو جزمه جزما قاطعا بأن الاختلاف لم يكن في الجوهر قط "وعقلاء البلاد يتمنون زوال هذا الخلاف... فشبان تونس الذين ثاروا

---

[1] نجم شمال إفريقيا: "جمعية لمسلمي المغرب والجزائر وتونس تأسست في باريس ... يوم 20 جوان 1926، وهي منظمة الشغيلة المهاجرين تشكلت في كنف الحزب الشيوعي الفرنسي ... وكان هدفها استقلال الجزائر، إن نجم شمال إفريقيا، الذي كان تعبيرا عن نزعة قومية شعبية (شعبوية) وحظر عام 1937 – تطور متخذا الاسمين المتتاليين: حزب الشعب الجزائر (17 آذار 1937 – أيلول 1939)، ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية (تشرين الثاني 1938 – تشرين الثاني 1945) [انظر محمد قناش، محفوظ قداش "نجم الشمال الإفريقي" 1926 – 1937، الجزائر ديوان المطبوعات الجزائرية، ط 2، 1994، ص 40 ومحمد حربي جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية 1983، ص 23].

[2] جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا: تأسست في 15 ديسمبر 1927، لعبت دورا هاما في تاريخ الحركات الوطنية المغاربية خاصة بين 1928-1939 إذ ساهمت في انطلاق العمل التحرري للحركات الوطنية المغاربية [انظر خالد عبيد: مكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1949 شهادة الكفاءة في البحث إشراف الأستاذ علي المحجوبي، ك.ع.إ.إ.بتونس قسم التاريخ 1989، ص 4]

[3] Habib Bourguiba; La Tunisie et la France: Vingt Cinq ans de la lettre pour une coopération libre. Tunis Maison tunisienne de l'édition, p 54.

على اللجنة القديمة كان يمكنهم أن يعملوا في هذا الجو مع إخوانهم جنبا إلى جنب لتستفيد القضية التونسية أقصى ما يمكن الحصول عليه من المقيم الجديد."[1]

ومنها تركيز محمد علي الطاهر على الغاية البعيدة إذ يقول: "وليس معنى هذا أنني أطعن في وطنية فريق الشبان. معاذ الله فهم في اعتقادي ويقيني من المخلصين لوطنهم الذائدين عن حوضه ولكنهم أخطأوا السبيل وغفلوا بحسن نية عما يجب أن يكون."[2] إن خدمة مصلحة الوطن ومحاربة الاستعمار جعلتا الديوان السياسي ينال حظوة هامة عند العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر فحس شبان الديوان السياسي الوطني الحاد هو الذي جعل الفلسطيني ينتصب مدافعا عنهم بعد أن هاجمهم لانشقاقهم عن الحزب القديم إذ يقول: "فهؤلاء عندما قاموا في تونس بحركتهم هذه ظننا ونحن في الشرق أنها حركة انشقاق استعماري... ولكن بعد أربع سنوات سمعنا بحركة عظيمة في تونس قام بها الحزب الجديد، أي حزب بورقيبة هي التي أسفرت عن معركة (9 أفريل 1938) فقد هزت أعصاب المشارقة، وأدركوا أن هناك شيئا جديدا قام في تونس، وأن الزعامة بدأت تنتقل إلى أيدي شباب جدد، فأيدناها وأيدناهم، يعني أننا هاجمنا بورقيبة سنة 1934 قبل أن نعرفه شخصيا، ثم أيدته وحركته في جريدتي... الشباب وأبرزت كيف زينت تونس شوارعها بدم الثوار."[3]

ففي قوله: "ظننا أنها حركة انشقاق استعماري" دلالة على شدة رفض الرجل سياسة الإلحاق وتعلقه بمفهوم "المصلحة" إذ ماذا يعني مفهوم الوطنية بالنسبة إلى محمد علي الطاهر في بلدان الشمال الإفريقي وهو لا يعد في نظر التيار العروبي الإسلامي عربيا؟ إنها إذن المصلحة التي تخدم الشرق سياسيا وخصوصا فلسطين لأن حفظ الشام والمشرق في تصورهم ينطلق من ضرورة الدفاع عن الشمال الإفريقي والإبقاء على شخصيته مرتبطة بالعروبة والإسلام وهو ما نجده في مقال "ماذا في تونس" بتاريخ 13 أفريل 1938" وقعت المظاهرات التي أمر الوطنيون بإقامتها والمقصود بالوطنيين حزب الدستوريين الذي يقوده الزعيمان الأستاذ الحبيب بورقيبة والأستاذ البحري قيقة... أما ما

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سبق ذكره، ص ص 413 -414.
[2] المصدر نفسه، ص 414.
[3] المصدر نفسه ، ص 251.

يستخلص من هذه المظاهرات فهو أن الاستعمار في تأخر وتحرير الشعوب في تقدم لأن سير المظاهرات في تونس بطلب الدستور وإقامة الإضراب العام من حين إلى آخر بعد أن كان التلفظ بكلمات دستور وبرلمان وحرية واستقلال من الجرائم العظمى، إنما هو النذير بقرب نهاية الاستعمار إلى الأبد ونحن نرجو الله أن لا يميتنا قبل أن نشهد يوم دفنه."[1] فالتخلص من الاستعمار في بلاد المغرب يعني تخلص المشرق منه فهذا الربط عضوي في تفكير التيار الإسلامي والتيار العروبي الإسلامي. على هذا الأساس كان محمد علي الطاهر يدعم كل ثورة وكل حركة مقاومة للاستعمار وكل رمز من رموزها لا يتوانى لحظة في دعمها وتثبيتها وهو ما نجده في كلامه عن بورقيبة إذ يقول: "فجهاد بورقيبة هو الذي أوحى لنا أنه جاء بجديد ...أ ليس إنه قاتل الاستعمار فورا وفعلا وسفك دمه ودخل السجن؟"[2]

إن الربط الذي عمد إليه الطاهر بين القضية الليبية والقضية التونسية هو نفسه الذي دفعه إلى الاهتمام بالشأن الجزائري على الرغم من وضع الجزائر الخاص، لأن فرنسا كانت تعتبر الجزائر أرضا فرنسية مما زاد في تعقيد المسألة وصبغ به الحركة الاستقلالية الجزائرية بصبغة فيها الكثير من الخصوصية مقارنة ببقية الحركات الاستقلالية. لذلك لا بد عند تناولها من الحذر الشديد ذلك أن المفكرين السياسيين يختلفون اختلاف مكانتهم الاجتماعية في الاتجاهات الفكرية السياسية التي سادت في الجزائر منذ النصف الأول من القرن العشرين إلى حدود ثورة نوفمبر 1954 ويمكن اعتمادا على ما ذهب إليه صالح الفيلالي في مقاله "إيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية" الإقرار

[1] الشباب، عدد 981 – 58 – 1393 القاهرة، 13 أفريل 1938.
[2] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 251.

بوجود أربعة اتجاهات فكرية سياسية[1] هي الإلحاقية[2] والإصلاحية[3] والشيوعية[4] والراديكالية[5].

فالاتجاه الإلحاقي عمل على تحقيق مساواة بين الجزائريين والأوروبيين وتمثيل حقيقي للجزائريين في البرلمان الفرنسي مع الإبقاء على شخصية الجزائر الإسلامية، كان ذلك مع تأسيس "الشبان المسلمين" في عشرينات القرن العشرين لكن، بفشل هذه الأهداف ولدت "حركة فدرالية الأهالي الجزائريين" (Fédération des Elus indigènes d'Algérie) كان من أهم رموزها الدكتور بن جلول والصيدلي فرحات عباس والدكتور سعدان.[6] ورغم ذلك، لم يحقق هؤلاء الإلحاقيون مطامحهم السياسية الهادفة إلى الانصهار في الدولة "الأم فرنسا"، مما أفضى بابن جلول إلى تأسيس "التجمع الفرنسي الإسلامي الجزائري"، (R.F.M.A) Rassemblement France-Musulman Algérien سنة 1938 مع الحفاظ على الغاية الأساسية وهي إلحاق الجزائر بفرنسا[7].

وقد سبب هذا الواقع الجزائري فيما يشبه ردة الفعل على هذا الاتجاه الإلحاقي، في ولادة جمعية "العلماء المسلمين الجزائريين" عام 1931 بمشاركة مجموعة من الديانيين الإصلاحيين، أهمهم ابن باديس (1889 - 1940) محمد البشير الإبراهيمي (1889 - 1965) والطيب العقبي (1888 - 1960) وأحمد توفيق المدني (1899 – 1983)[8]. كتب Charles-Robert Ageron قائلا: "إن تركيز العلماء على الهوية العربية الإسلامية كان محاولة لمواجهة الإيديولوجيات الأجنبية، وبالتالي إنهاء حالة الاغتراب السياسي والثقافي لمجتمعهم"[9]، لذلك أولت هذه الجمعية الإصلاح الديني والثقافي حفاظا على الطابع الجزائري الإسلامي اهتماما كبيرا وتخيلت أنها الطريقة

---

[1] عادل الهرسي، الجزائريون في تونس (1956 - 1962) ونشاطهم السياسي والثقافي، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في اللغة والآداب والحضارة العربية، إشراف الأستاذ المشرف محمد الناصر النفزاوي، نوقش بالسنة الدراسية 2003 – 2004 منوبة، كلية الآداب، 2004، ص 136. [غ.م.]

[2] مثل هذا الاتجاه خاصة الدكتور بن جلول مؤسس فدرالية نواب قسنطينة 1927 ونائب في الجمعية الوطنية وعضو المجموعة الـ "61" وكذلك حزب فرحات عباس.

[3] مثل هذا الاتجاه جمعية علماء للمسلمين.

[4] مثل هذا الاتجاه "الحزب الشيوعي الجزائري".

[5] مثل هذا الاتجاه "حزب الشعب الجزائري" ثم "جبهة التحرير الوطني" (انظر محمد حربي جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، مرجع سلف ذكره، وصالح الفيلالي "إيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية: الفكر العربي ، عدد 85- 86 سنة 1996، ص.ص 20 -37) عادل الهرسي، ص 17.

[6] صالح الفيلالي، "ايديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية" المرجع السابق.

[7] عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية، 1962 بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 231.

[8] المرجع نفسه، ص ص 248- 250.

[9] عادل الهرسي، الجزائريون في تونس، مرجع سلف ذكره، ص 137.

الأمثل لدرء الاستعمار، لذلك كانت مقاومتها مزدوجة، فعلى الصعيد الداخلي حاربت الإلحاقيين وأصحاب النظرة الحديثة، فعندما صرح فرحات عباس قائلا: "ولو إني اكتشفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين ولما خجلت من ذلك... ومع ذلك فلن أموت من أجل وطن جزائري لأن ذلك الوطن ليس له وجود، ولقد سألت التاريخ... فلم يحدثني أحد عنه... ولقد استبعدنا جميعا هذه الأوهام لنربط نهائيا مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذه البلاد"[1] فقد رد علماء الجمعية عليه رافضين زحزحة شخصية الجزائر بقولهم: "إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ... فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة مكونة موجودة... ولهذه الأمة تاريخها... ولها وحدتها الدينية واللغوية."[2] كما قاومت الاستعمار سلميا من أجل الحفاظ على الدين واللغة، وهو الأمر الذي يؤكده ارتباطها بالمشرق اتقاء "شر" الفكر الحديث وتمسكا بعروة التيار العروبي الإسلامي الذي مثله خاصة محمد بشير الإبراهيمي الذي تعد "البصائر" مصدرا هاما يصلح لتحديد تفكيره السياسي.

أما الاتجاه الثالث الذي مثله "الحزب الشيوعي الجزائري" وليس في إمكان أي حزب شيوعي ألا ينفر من الإسلام ومن غيره من الديانات، وهذا هو بالذات ما سيحول دون تمكنه من المساهمة مساهمة فعالة في تاريخ الجزائر السياسي على عكس الاتجاه الراديكالي الذي آمن بوجوب اقتلاع الاستعمار.

ارتبط هذا الاتجاه بنجم شمال إفريقيا العمالي المؤسس سنة 1926 وبمصالي الحاج (1898 - 1974) زعيمه الذي كان يعتبر الأمة مقولة تحمل قيما ثورية، ويعطي الأولوية لمقياس الموقف السياسي حيال الاستعمار، لا للانتماء الطبقي."[3]

لقد ركب الفكر المصالي جواد الشعب مقاومة للاستعمار و نظرية إلى اقتلاعه، لذلك "فالإيديولوجية المصالية ذات جوهر شعبوي لا تستند فيها الثورة إلى صراع الطبقات، بل إلى الشعب بالمعنى العامي."[4] لقد كان مصالي الحاج مؤمنا إيمانا راسخا بأن الشعب محرك التاريخ بل الوحيد الذي باستطاعته أن يبدل الواقع."[5] لذلك راعى هوية

---

[1] عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر، مرجع سلف ذكره، ص ص 246 – 247.
[2] المرجع نفسه، ص 247.
[3] محمد حربي، جهة التحرير الوطني، مرجع سلف ذكره، ص 25.
[4] المرجع نفسه، ص 27.
[5] Mohamed harbi Le FLN Mirage et réalité des origines à la prise du pouvoir, Paris, Editions Jeune Afrique, 1980, p 28.

الشعب الجزائري الإسلامية لأنه إذا آمن بأن محرك التاريخ ومبدل الواقع هو الشعب، فقد آمن أيضا، أن محرك "محرك التاريخ" هو تلك الشخصية التي نحت عليها الشعب بمعنى الدين و اللغة.

ارتجّت فرنسا للشعوبية المصالية لأن ما يخيف السياسي هو عامة الناس فغلّقت الباب في وجه حزبه الذي اضطر إلى تأسيس حزب "الشعب الجزائري" PPA سنة 1937 في تحقيق مطلبه الاستقلالي، ثم سنة 1947 "الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية" MTLD[1] رغم ذلك لم ينجح مصالي الحاج لأسباب عديدة، أهمها عراقيل الاستعمار الفرنسي و الاختلافات الموجودة داخل الاتجاه الراديكالي الذي أدى إلى انشقاقه سنة 1953 وولادة جبهة التحرير الوطني FLN سنة 1954.[2]

إن الوقوف عند هذه الاتجاهات الأربعة هام بالنسبة إلى موضوع بحثنا، لأن ذلك سيسمح لنا بفهم حقيقة علاقة العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر بالساسة الجزائريين وموقفه بالخصوص من التيار الإلحاقي الإدماجي.

يقول محمد علي الطاهر: إن "التعاون بيني وبين فضلاء الجهاد الجزائريين السياسيين والدينيين: وفي أولهم وأقدمهم العلامة المجاهد إبراهيم طفيش[3] أحد أعلام وادي مزاب... ثم الأستاذ الشيخ أبو اليقضان[4]، صاحب جريدة وادي مزاب، وبعده بالأستاذ الطيب العقبي[5] والسعيد الزاهري[6] ومصالي الحاج "قبل انشقاقهم"،

---

[1] صالح الفيلالي، إيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية، الفكر العربي، مرجع سلف ذكره، ص 31.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] ابراهيم الطفيش: (1886-1965) زعيم سياسي، كاتب، ولد بالجنوب الجزائري تلقى تعليمه بجامع الزيتونة سنة 1917 انخرط في الحزب الدستوري التونسي مناهضا للاستعمار الفرنسي ولسياسة المقيم العام لوسيان سان لذلك تم نفيه من تونس سنة 1923 ومنع من دخول الجزائر فلجأ إلى المهجر المصري [انظر موسوعة أعلام العرب، مرجع سلف ذكره، ص ص 11-12]

[4] ابراهيم أبو اليقضان: (1888 -1973) أحد رواد الاصلاح بالجزائر درس بجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية كانت له صلة وثيقة بالشيخ عبد العزيز الثعالبي [انظر محمد صالح الصديق أعلام من المغرب العربي، الجزائر، موفم للنشر والتوزيع2000 ص ص722-743]

[5] الطيب العقبي (1888-1960) نشأ في عائلة معروفة بالورع والتقوى حيث سافرت سنة 1884 إلى المدينة المنوّرة وبها استقرت وفيها تربّى الطيب العقبي فحفظ القرآن وحضر الدروس بمسجد الرسول في جميع العلوم. وقبيل اندلاع الحرب الأولى بدأ الشاب الطيب يراسل بعض الصحف والمجلات في الشرق وينشر فيها مقالات حول السياسة والدين...فوجّهت إليه التهمة بأنه من أنصار الشريف حسين وأنه يتزعّم حركة النهضة العربية اعتقلته السلطات العثمانية قبيل الحرب ونفته إلى الاناضول بتركيا...عاد سنة 1920 إلى الجزائر...أصدر جريدة" الإصلاح" سنة 1931. شارك في تأسيس الجمعية [انظر معجم مشاهير المغاربة، مرجع سلف ذكره ص ص 367-369]

[6] محمد سعيد الزاهري: ولد سنة 1899 تتلمذ في سنواته الأولى من حياته على يدي علماء الدين، ثم التحق بدروس الشيخ عبد الحميد بن باديس بجامع الأخضر، التحق بعد ذلك بجامع الزيتونة حيث تحصل على "التطويع"كان من مؤسسي جمعية العلماء وعيّن عضوا في مجلسها الإداري...استقال من عضويته في جمعية العلماء سنة 1937 وأنشأ في وهران بمساعدة "الجبهة الشعبية" الفرنسية حركة باسم "تجمع المنضمات الإسلامية"

ملحق أول

شجرة العائلة للقومية الجزائرية من البدايات حتى الثورة

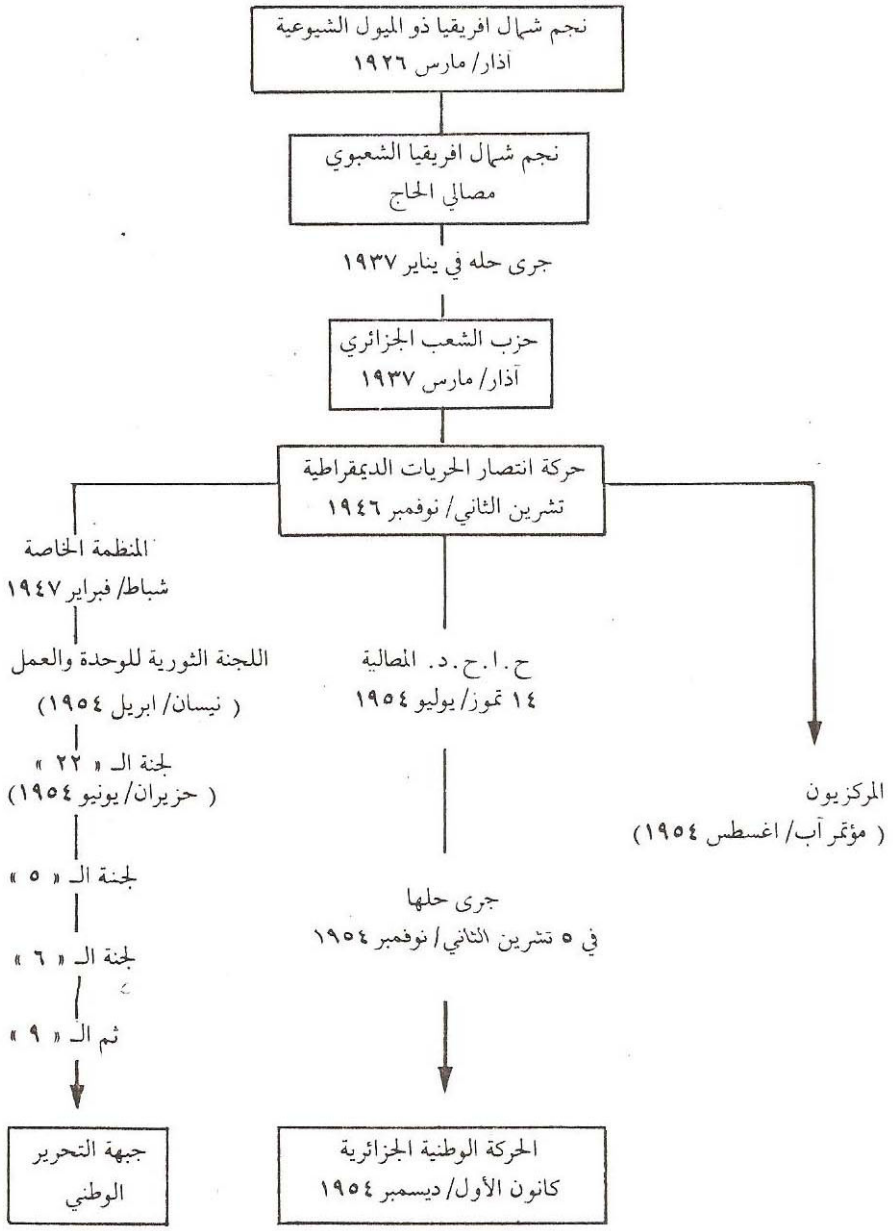

[1]. محمد حربي، جهد التحرير الوطني الأسطورة والواقع ... مرجع سلف ذكره، ص319

والأستاذ أحمد توفيق المدني[1] منذ أبعدته فرنسا من تونس إلى الجزائر... وثم كان الاتصال الأكبر بالمرحوم الإمام عبد الحميد بن باديس[2] منشئ ورئيس جمعية علماء الجزائر وصحفها العديدة ومدارسها القرآنية التي حفظت اللغة العربية وحرست الدين الإسلامي... وبعد ذلك تم التعارف الشخصي والتعاون الفعلي في القاهرة بيني وبين المرحوم الأستاذ المجاهد الفضيل الورتيلاني[3] منذ نزل مصر قادما من باريس سنة 1937... وأما العلامة الأكبر خليفة ابن باديس وحافظ تراثه الشيخ البشير الإبراهيمي[4] المجاهد والخطيب المنقطع النظير. فقد التقيت به في مصر وفي دمشق."[5]

ويمكن للمرء أن يلاحظ مسألة في غاية الأهمية، هي أن الفلسطيني محمد علي الطاهر، في علاقته بالساسة الجزائريين يكاد يحصر روابطه بالرموز المنتمية إلى جمعية علماء المسلمين، الجزائريين وبعبارة أدق في التيار العروبي الإسلامي لأن جل رموز الجمعية انتموا إلى هذا التيار الذي يرى أن الجزائر هي جزائر عبد الحميد بن باديس (1889 - 1940) وأتباعه مثل البشير الإبراهيمي، وأحمد توفيق المدني، والعربي التبسّي[6] (قتل سنة 1956)، والجزائر التي رسمها هؤلاء الديانيون السياسيون الإصلاحيون، ذات توجهات عروبية إسلامية، سمتها الأولى أنها ترفض الاندماج في التصورات الغربية الفرنسية خصوصا وتقول بإسلام جزائري يستمد معناه من خصوصية "الأمة" الجزائرية أولا، والمشرق ثانيا، فلا غرابة حينئذ أن يلتقي الطاهر بجمعية علماء الجزائر. وقد وضّح الطاهر ذلك قائلا: "ثم كان الاتصال الأكبر بالمرحوم الإمام عبد الحميد بن باديس منشئ ورئيس جمعية علماء الجزائر وصحفها العديدة ومدارسها القرآنية

---

[1] أحمد توفيق المدني: (1899-1983) مناضل، سياسي، مؤلف. ولد في تونس ودرس في الزيتونة، أتقن اللغة الفرنسية..نفته السلطات الفرنسية سنة 1927 انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أهم مؤلفاته "قرطاجنة في أربعة عصور أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الاسلام"، 1926، كتاب "الجزائر" ، الجزائر، 1963...[انظر موسوعة أعلام العرب مرجع سلف ذكره ص ص 35-36]

[2] عبد الحميد بن باديس: (1889-1940) درس بالمكتب القرآني ثم التحق سنة 1908 بجامع الزيتونة حيث تخرّج منه بشهادة التطويع سنة 1912...لعب دورا هاما في تأسيس جمعية علماء الجزائريين سنة 1931. وكان يرى أن سبب تخلف الأمة الاسلامية راجع إلى ابتعاده عن الاسلام الأول. ناضل في سبيل الجزائر والعروبة والاسلام انظر محمد صالح الصديق أعلام من المغرب العربي مرجع سلف ذكره ص ص 240-271

[3] الفضيل الورتيلاني: (1900-1959) ولد في بني ورتلان في منطقة القبائل الصغرى تلقى دراسته الاولى على يدي علماء الدين ثم التحق سنة 1930 بقسنطينة حيث نهل عن الإمام ابن باديس الذي اختاره مساعدا له في التدريس سنة 1933-1934 وكان الفضيل الورتيلاني من أبرز رجال جمعية علماء المسلمين الجزائريين [انظر محمد صالح الصديق أعلام من المغرب العربي مرجع سلف ذكره ص 603]

[4] محمد البشير الابراهيمي: ولد سنة 1889 وتوفي سنة 1965 من مؤسسي الجمعية مع ابن باديس والشيخ خير الدين والعربي التبسي وأحمد توفيق المدني، حاول الابراهيمي ربط الجزائر بالمشرق لإيمانه بعروبة الجزائر وإسلامها وربط صداقات مع أعلام الإصلاح في المشرق وخاصة محمد رشيد رضا [انظر عادل الهرسي الجزائريون في تونس، مرجع سلف ذكره ص 138]

[5] محمد علي الطاهر، خمسون عاما ، مصدر سلف ذكره، ص ص 126 – 127.

[6] العربي التبسّي: من رجال الإصلاح الإسلامي بالجزائر ومن أبرز أعضاء جمعية علماء تلقى تعليمه بتونس ثم التحق بالأزهر عاد بعد ذلك إلى الجزائر حيث اندمج في الحركة الإصلاحية إذ اقتفى نهج ابن باديس في الدعوة إلى الاصلاح الديني والاجتماعي والتربوي اغتيل سنة 1956 [انظر معجم مشاهير المغاربة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة 1995]

التي حفظت اللغة العربية وحرست الدين الإسلامي في البلاد الجزائرية." ألم تكن هذه هي الغاية نفسها التي عمل لأجلها العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر منذ تأسيس جريدته "الشورى" أي قبل تأسيس الجمعية؟ ألم ينتصب الطاهر وجريدته حافظين للغة العربية في الجزائر وحارسين للإسلام الجزائري كما يراه الطاهر، وكما يراه المشارقة محمد عبده ورشيد رضا، إذ يقول: "إن علاقتي بالجزائريين ابتدأت منذ أصدرت جريدتي "الشورى" سنة 1924 ... وقد كانت في أول أمرها بالهجوم على المستعمر الفرنسي الكبير المسيوجونار الحاكم العام للجزائر والنائب الفرنسي مورينو صاحب مشروع منع تداول اللغة العربية في الجزائر نهائيا."[1] إن العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر يقارب الرموز السياسية والدينية في الغالب انطلاقا من تماثل فكري، أي انطلاقا مما يفكر، وهو لا يفكر إلا انطلاقا من الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية في بلاد المغرب عموما، وفي الجزائر خصوصا، وهي التي عمل الشيوعيون الفرنسيون والجزائريون على دحضها ولفظها وقدموا تنظيرات أوروبية المنشإ لإنكار عروبة الجزائر، وبالتالي لتبرير مقولتهم الشهيرة "إن الجزائر أمة في طور التكوين".[2]

لذلك حينما بدأت فرنسا تستعد للاحتفال بالذكرى المائة لاحتلالها الجزائر وقررت أن تمتد الاحتفالات طيلة ستة أشهر انتفضت "شورى" محمد علي الطاهر مع الجزائريين دفاعا عن عروبة الجزائر وإسلامها، ومن يتأمل صفحات "الشورى"، يستخلص أنها حاربت على الصعيد الخارجي أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائر الرامية إلى فرنستها. كما قاومت على مستوى داخلي كل الاتجاهات الداعية إلى مشاركة الفرنسيين الاحتفال بهذه الذكرى. ففي المستوى الأول، نقرأ مثلا في مقال "ماذا في الجزائر؟": "لا تزال فرنسا تجد في إعداد المعدات للاحتفال بمرور مائة سنة على "تفضلها" باحتلال القطر "الجزائري" وقد خصصت من أموال ذلك القطر 200 مليون فرنك فقط لا غير لنفقات الخطة أما مزايا ذلك الاحتفال فكثيرة، فمنها إعلان ضم الجزائر إلى فرنسا ومنها إلغاء اللغة العربية."[3] كما نقرأ في مقال بعنوان "نوايا فرنسا في الجزائر": "تنوي فرنسا

---

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما ،ص127،

[2] الأحزاب والحركات اليسارية، المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، الجزء الأول ، د. ت. ص 517.

[3] "ماذا في الجزائر"، الشورى عدد 215، القاهرة، الأربعاء 10 رمضان 1947، الموافق لـ 20 فبراير 1929.

أن تنعم على الجزائر بمناسبة "عيد الاحتلال المئوي بترك العربية في المحاكم الشرعية الإسلامية وتجعلها فرنسية بحتة."[1] إن "شورى" محمد علي الطاهر كانت سباقة إلى الكتابة عن استعداد فرنسا لهذه الاحتفالات ومن ثمة لم تتردد أيضا في مقاومة كل مساس بشخصية هذا القطر شمال الإفريقي فاهتمت بكل ما يتعلق باللغة والدين والثقافة في الجزائر منذ أن تم الإعلان عن نية فرنسا الاحتفال بمئوية دخولها الجزائر، على يدي لويس دي برمون (Louis De Bourmont) سنة 1830، أي منذ بداية سنة 1929 تقريبا، إضافة إلى ذلك سعت "الشورى" إلى دحض مزايا فرنسا المدنية على الجزائريين وبيان تهافت مدائح جلب الحضارة إلى الجزائر وتوفير أسباب الرقي والتقدم لأن المستفيدين من ذلك في نظر الشورى هم الأجانب من الأوروبيين والفرنسيين وفي هذا الصدد نقرأ في العدد 286 مقالا بعنوان "عيد الرق المئوي للمسلمين الجزائريين تحت حكم الإفرنسي من 14 يونيو 1830 إلى 14 يونيو 1930: "فهل هناك عرب جزائريون فتحت لهم فرنسا أبواب العلم ومهدت لهم سبيل القيام بمشاريع اقتصادية؟ كلا لا يوجد شيء من ذلك أبدا"[2] إن شورى الطاهر حملت على عاتقها القيام بحملة مضادة لما تنشره فرنسا وما يروجه دعاة الإدماج والتجنيس من الاستفادة من "جنسية العنصر الغالب". هذا الأساس التبريري سعي الطاهر وجريدته الشورى إلى هدمه بـ:

1- بيان أساليب حكم فرنسا في الجزائر باعتبارها مناقضة لأساليب الحضارة التي تدعي فرنسا ترسيخها في هذا القطر المغربي.

2- مقارعة بعض الرموز الدينية الداعية إلى الإدماج.

3- محاربة دعاة الإدماج من الرموز الفكرية السياسية والصحف المعبرة عنهم، ففي المستوى الأول، نقرأ مثلا في مقال بعنوان "أمثلة للأساليب الإدارية الفرنسية التي تمس عروبة الجزائر وإسلامها وتهدف إلى زحزحة الشعب الجزائري خصوصيته."

(1) "المسلم الجزائري لا يتمتع بالحقوق السياسية والمدنية المعطاة للفرنسيين واليهود الجزائريين وللأجانب الأوروبيين المستوطنين في الجزائر وقد بقي الجزائري (سنوجه) أي عبد حقيقي.

---

[1] "ماذا في الجزائر"، الشورى عدد 230، القاهرة، الأربعاء، 12 محرم الموافق لـ 19 يونيو 1929.

[2] "عيد الرق المئوي للمسلمين الجزائريين تحت الحكم الا فرنسي من 14 يونيو 1830 إلى 14 يونيو 1930"، الشورى 13 أوت 1930.

(2) لقد خلقوا للعرب الجزائريين نظاما قضائيا استثنائيا وقوانين خاصة لا تحترم أشخاص العرب.

(3) إن التعليم في الجزائر تلك البلاد العربية ذات اللغة العربية لا يعطى بالعربية بل باللغة الفرنسية وليس هذا فحسب، بل إن التعلم محصور في دائرة ضيقة. وعلى نوع خاص، وذلك لأن الإفرنسيين لا يريدون للعرب تعلما جديا... وبهذه الحواجز كلها أصبح عدد الأميين ينوف على 98 في المائة من الأهالي وهذا أكبر مظهر من مظاهر عصر المدنية الإفرنسية.

(4) تقوم فرنسا سرا بحرب حقيقية ضد الدين الإسلامي الذي تسميه (عدو الرقي والتقدم)..."[1]

لقد بيّنت الشورى انطلاقا من هذه الأمثلة أن الابتعاد عن القومية واللغة والدين ليس طريق تحقيق نهضة الجزائر كما يتصوره دعاة الانصهار في مبادئ حضارة الغالب، وهو الأمر نفسه الذي ذهب إليه أحمد توفيق المدني في مقاله "بين الموت والحياة" الذي نشره بجريدة "الإصلاح" الجزائرية تحفظا منه إزاء كل دعوة اندماجية شأنه في ذلك شأن الفلسطيني محمد علي الطاهر إذ كتب سنة 1930: "وهل يمكن لشعب الجزائر العربي المسلم أن يصبح شعبا فرنسيا خالصا في آدابه ولغته وتقاليده، وعوائده، ويتخلص ولو في عدة قرون من دمه الخاص وكل مميزاته وورائثه؟"[2] لقد التقى العروبي الإسلامي المشرقي محمد علي الطاهر بالإسلامي المغربي الجزائري أحمد توفيق المدني حول نقطة واحدة هي أن: "الإسلام في الجزائر سائر في طريق الموت" و"بأن العربية في الجزائر سائرة نحو الاضمحلال."[3] أي حول النقطة التي عبر عنها المدني بقوله: "فالطريقة التي أرى أن الجزائر الفتية المسلمة يجب أن تسير عليها هي طريقة المحافظة على الذاتية الدينية والعربية."[4]

إن ما جمع العروبي الإسلامي المشرقي بمعظم الرموز السياسية في بلاد المغرب العربي هو هذه الرغبة في المحافظة على "الذاتية الدينية والعربية" من ذلك أن أحمد

[1] "عيد الرق المئوي للمسلمين الجزائريين" الشورى، مقال سلف ذكره.
[2] أحمد توفيق المدني حياة كفاح (مذكرات) القسم الثاني في الجزائر 1925 – 1954، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 1982، ص 162.
[3] المرجع نفسه، ص 164.
[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

توفيق المدني حارب ظاهرة التجنيس "وبصفة قاسية ومركزة في مجلة الشهاب... وفي غيرها من صحف الشرق ومجلاته كالشورى والرابطة العربية."[1]

أما النقطة الثانية، ونقصد بها محاربة "الشورى" وصاحبها دعاة الإدماج من رجال الدين فنجد صداها فيما كتب الطاهر: "نشر بعض أشياخ الطرق الصوفية... يجب على أتباعنا وأحبابنا... أن يعتقدوا أن طاعة الله هي طاعة فرنسا النبيلة الكريمة وأن رضى الله إنما هو فيما نقدمه لفرنسا من البر والتقوى ومن الطاعة والإخلاص فهي دولتنا وأمّنا والله تعالى أمرنا أن نطيع الله والرسول وأولي الأمر... (يعني من الفرنسيين). هذا هو البلاغ الذي نشره بعض أشياخ الصوفية في الجزائر ألا قاتل الله الإلحاد والتضليل بلغ الأمر بهؤلاء الملاحدة إلى حد تحريف كلام الله تقرّبا إلى أعداء دينهم وأعداء وطنهم لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا."[2]

إننا نجد في مواضع كثيرة من كتابات الطاهر إشارات إلى رجال دين مشارقة ومغاربة على حد سواء ما كان لهم أن يجدوا في كتاباته حظوة لولا حسهم "الوطني" وخدمتهم الجسد العربي والإسلامي فهذا التعلق "بالخصوصية العربية الإسلامية" أولا و"بالوطنية" ثانيا هما اللذان جعلا الطاهر يصنف الرموز الدينية والسياسية صنفين: صنف يؤيده لأنه يخدم تلك المنظمومة الإسلامية، وصنف يعاديه لأنه لا يخدم تلك المنظومة الفكرية. ومن رجال السياسة الذين حاربهم الطاهر نخص بالذكر الدكتور ابن جلول وهو من أتباع "سياسة الحقوق الفرنسية"[3] أوردت "الشباب" : "ولن يقدر مستأجر جريدة النجاح هذه ولا ابن جلول الزاعم أنه مسلم إفرنسي لا شغل له بالعربية والعروبة أن ينكر أن المسلمين في الجزائر تحت اليهود لا تحت الإفرنج وحدهم... وابن جلول نفسه ومامي إسماعيل نفسه هما تحت اليهودي في الجزائر في نظر فرنسا."[4] لقد أرادت "الشباب" من هذا الكلام أن تدحض مقولة " الحقوق الفرنسية" خاصة إذا علم المرء أن هذا النقد الموجه إلى ابن جلول جاء بعد تأسيسه "التجمع الفرنسي الإسلامي الجزائري"

---

[1] أحمد توفيق المدني حياة كفاح ، ص 168.
[2] "ماذا في الجزائر" الشورى، عدد 230، 19 جوان 1929.
[3] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح مرجع سلف ذكره، ص 125.
[4] "ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهو يعلمون تمويهات جريدة النجاح الإفرنسية وأمثالها وحقيقة الإستعمار الإفرنسي" الشباب، عدد 105 – 10 ماي 1939.

Rassemblement Franco-Musulman Algérien (R.F.M.A) سنة 1938 ومن ثم محافظته على نزعته الإلحاقية، الحقوقية رغم فشل مطالب هذا التيار الإدماجي سياسيا بفشل مشروع رئيس الحكومة الفرنسية بلوم Blum 1936 هو "مشروع قانون يسمح للجزائريين المسلمين أن ينالوا حقوق المواطنة الفرنسية بدون أن يتخلوا عن هويتهم العربية الإسلامية."[1]

يثبت هذا النقد الموجه إلى ابن جلول على صفحات جريدة "الشباب" أن الفلسطيني العروبي الإسلامي كان رافضا كل مشاريع الإلحاق، منصهرا بذلك في الموقف السياسي لجمعية علماء المسلمين الجزائريين، وكذلك في الموقف السياسي لمصالي الحاج الذي اعتبر مشروع بلوم، "أداة لإبقاء هيمنة المستوطنين الأوروبيين."[2]

لقد كان الطاهر يعتبر أن مثل هذه المشاريع لا تؤكد فحسب سيطرة الأجانب من الأوروبيين على الجزائر، بل تؤدي كذلك إلى اضمحلال ذاتية الجزائر وذوبانها خاصة أنه كان يرى أن حملات التبشير والتنصير في الجزائر كانت بدعم من الحكومة الفرنسية إذ أوردت "الشباب": "كما أنهما (يقصد الدكتور ابن جلول ومامي إسماعيل صاحب جريدة النجاح) لا يقدران أن يكابرا في أن اعتداءات فرنسا على المسلمين لم تكن قاصرة على أموالهم وأملاكهم ودمائهم بل تجاوزت ذلك إلى دينهم... فدعاية الكردنال لا فيجري التبشيرية ومساعي رهبانية الآباء البيض في تنصير المسلمين لم تكن بلا موافقة الحكومة الإفرنسية بل لم تكن دون عضد وتعزيز منها وقد نجحت هذه المساعي إلى حد محدود... كما يتضح ذلك من (كتاب الجزائر) تأليف الفاضل الشهير السيد أحمد توفيق المدني."[3]

لقد كان محمد علي الطاهر في علاقته بالساسة الجزائريين، متسامحا إلى حد ما، إذ جمعته علاقات متينة بالرموز السياسية المنتمية إلى جمعية علماء المسلمين الجزائريين وخاصة الذين تبنوا العروبية الإسلامية إيديولوجية، إضافة إلى علاقاته برموز فكرية سياسية أخرى تنتمي إلى تيارات فكرية سياسية متحفظة إزاء العروبية الإسلامية[4]، من

---

[1] عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، مرجع سلف ذكره، ص 234.
[2] المرجع نفسه، ص 235.
[3] ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه" الشباب، مقال سلف ذكره.
[4] التحفظ إزاء العروبية الإسلامية شائع في الكتابات الجزائرية وحتى الأدبية منها، انظر مثلا
Ali Hammami, Idris, roman-Nord Africain, Alger, Sned, 2eme Ed., 1976.
وانظر، عن الحمامي، جليلة المؤدب، ثلاثة رموز فكرية سياسية، مرجع سلف ذكره (غ. م.)

بينهم الزعيم مصالي الحاج ومعنى ذلك أن المرجع الثاني الذي به يحدد الفلسطيني الطاهر علاقته بالساسة الجزائريين، والمغاربة عموما هو مرجع "الوطنية": وإلا فبماذا نفهم ذلك التلاقي بين أحد وجوه الفكر السلفي ممثلا في العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر وأحد أبرز المفكرين الوطنيين الجزائريين.

نحن لا ندعي أن العلاقة بين العروبي الإسلامي الطاهر ومصالي الحاج كانت حميمة، لكن الطاهر لم ينكرها ، إضافة إلى ذلك فنحن لا نعثر له على موقف واحد معاد لمؤسس نجم شمال إفريقيا على الرغم مما هو معروف عن هذا التنافس الشديد بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمصاليين عموما قبل اندلاع الثورة الجزائرية.

لقد كانت الجزائر التي اهتم بها الطاهر تسمى قديما المغرب الأوسط لوقوعها بين تونس، المغرب الأدنى، ومراكش المغرب الأقصى ولذلك لم يكن في إمكان الطاهر أن لا يهتم بالقضية الإستقلالية المراكشية المكمل الضروري للحديث عن بلاد المغرب.

لقد بدأت علاقة الطاهر بالساسة المراكشيين منذ اندلاع ثورة الريف، ثورة محمد ابن عبد الكريم الخطابي فكان بذلك من "أوائل الذين ناصروا كفاح المغرب وعرفوا به وحشدوا له الأنصار... فتوطدت بينه وبين المكافحين المغاربة أوثق الصلات."[1] على حد شهادة صديقه السياسي المغربي ومستشار الملك الحسن الثاني أحمد بن سودة.

إن الطاهر كان يرى في كل ثورة تنشب في العالم العربي والإسلامي مشرقا ومغربا عزاء له ولفلسطين وبريق أمل لخلاص وطنه من خطر الاستعمار والصهيونية معا.

فإلام يهدف العروبي الإسلامي وهو المتضخم نفسيا مما أصاب بلاده إن لم يكن يفكر تفكيرا "وطنيا نفعيا" وهذا ما عبر عنه ابن سودة بقوله: "وكأني به وهو ينفر بجهاده في كل واجهة إسلامية وإلى جانب كل قضية عربية ومع كل مجاهد من بلاد الإسلام كان يقوم بعمل يشبه ما يقوم تاجر حذق من استثمار أمواله... لدعم رأسماله الأساسي، ألا وهو فلسطين."[2] لذلك ناصر الطاهر ثورة عبد الكريم الخطابي، وحمل على العرب والمسلمين لتخاذلهم تجاه هذه الثورة الاستقلالية. فقد أوردت الشورى في العدد 37 تحت عنوان "عبد

[1] سميح شبيب: محمد علي الطاهر، مرجع سلف ذكره، ص 5.
[2] المرجع نفسه، ص 4.

الكريم أيها العرب" ما يلي:"مضت على عبد الكريم سنوات وهو يثخن في الاسبانيول ويستأصل جيوشهم وما من عربي يأبه له أو يساعده بفرز دقة من الخبز أو ضمادة من القطن. وكل ما يقال من كون العالم الإسلامي يمد عبد الكريم بالمال والأطباء فهو كذب... عبد الكريم جاره الله وحده لا يساعده شرقي ولا غربي وإعانة مصر لجرحى الريف... لا تبلغ عشر مبلغ ينفقه بعض أمراء مصر في شراء كلب من أروبة."[1]

إن تأثير هذه الحرب التحريرية تجاوز منطقة الريف من المغرب الأقصى ليشمل بلاد المغرب[2] والمشرق على حد سواء ففي حين تغنى المغاربة بأمجاد هذه البطولة المغربية، عدها المشارقة رمزا لقيم الإنسان العربي التي طالما تغنت بها الأشعار العربية لذلك جاء في الشورى: "أيها العرب ... هذا الرجل ظهر فأحيى دارس ذكركم وبرهن على أنكم لم تموتوا وسواء كان من معه عربا أو بربرا فالجميع عرب ومستعربون والمغرب الأقصى وشمالي إفريقيا كله معدود ممالك عربية."[3]

ويمكن أن نضيف ما أوردته "الشورى" في موضع آخر عن الخطابي باعتباره الإنسان الذي يمكن أن يكون مطرا في أرض تزداد قحطا حضاريا، بطريقة تبرز انشداد الطبيعة إلى الله انشدادا تاما في فكر صاحب الشورى، إذ نقرأ: "إن حروب الريفيين مع الإسبان والفرنسيين اليوم لمثلنا الأعلى على ما قلنا عن عزة إخواننا المغاربة. إن رجلهم الأوحد وزعيمهم الفرد وبطلهم الأعظم محمد بن عبد الكريم... انتدبته القدرة الإلهية ليكون رمز غيرة الله على عباده المساكين في تلك الديار النائية وانتخبته الطبيعة البشرية دليلا واضحا لما فطر عليه العرب من كريم الجوهر وصفاء المعدن وإباء الضيم ورفض العار."[4]

---

[1] "عبد الكريم أيها العرب" الشورى، عدد 37: 2 جويلية 1925.

[2] يقول علال الفاسي: "وكانت حرب التحرير الريفية بمراكش في عنفوانها، وكان صداها يتردد في تونس وسائر العالم العربي فيبعث على الأمل ويشجع على الكفاح ... فتغنى التونسيون كالمغاربة والجزائريون بأمجاد البطولة المغربية." ورد ذكر هذا الشاهد في كتاب علال الفاسي، الحركات الإستقلالية في المغرب العربي، المغرب، دار الطباعة المغربية [د.ت.]، ص 58.

[3] "عبد الكريم أيها العرب"، الشورى، مقال سلف ذكره.

[4] "اذكروا الريفيين"، الشورى، عدد 35، 18 جوان 1925.

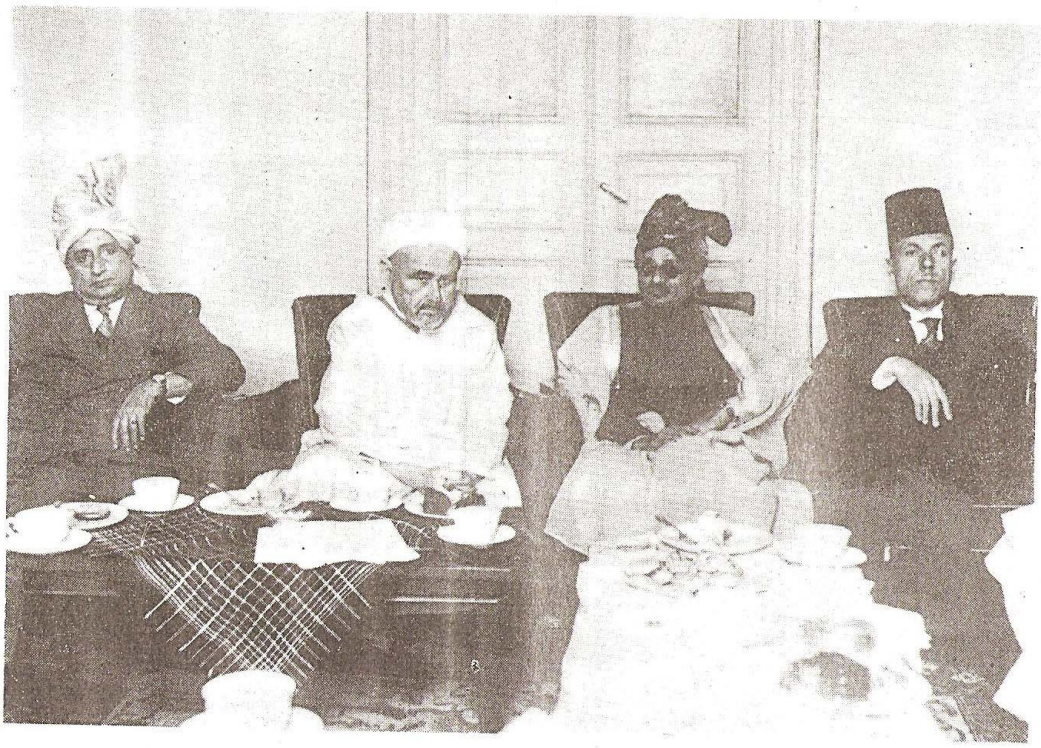

في دار الشورى بالقـــاهرة

من اليسار:

السيد عبدالله الجفري – الامير عبد الكريم الخطابي – سلطان لحج عبد الكريم الفضلي – محمد علي الطاهر

محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره.

هذان الشاهدان يشيان بأن تكشف الأساس البرغماتي يجعل الفرد أكثر تسامحا وتساهلا في معتقده، فإذا استحضر المرء كلام الشريف حسين بن علي: "إذا إن مصر ليست من البلاد العربية وتونس والجزائر بطريق أولى." قد يفهم سر تعظيم الشورى للحرب الاستقلالية التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي، ذلك أن نجاح هذه الحرب يمثل الشرارة الأولى لاندلاع ثورات أخرى مسلحة تؤدي إلى موجة من الاستقلالات التي تعطى العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر الأمل في تخليص فلسطين من الصهيونية وهو ما عبر عنه الوزير الفرنسي بانلفي بعد زيارته مراكش بقوله" "إن بقاء عبد الكريم ليس استقلالا لزاوية من المغرب اسمها الريف بل هو ذهاب لشمال افريقية كله من يد فرنسة."[1] و هو ما عبرت عن ذلك جريدة "الديبا" الفرنسية حينما قامت المفاوضات بين فرنسا والأمير الخطابي: "إن ذلك من أكبر المصائب على فرنسا في شمال إفريقيا لا لأن هذا الاعتراف يؤدي حتما إلى قيام ثورات في الجزائر وتونس ومراكش فقط بل يتعداها إلى كل الإمارات... فتقوم كلها بمطلب حريتها واستقلالها."[2]

إن العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر كان يرى في مثل هذه الثورات الترياق المنقذ لوطنه فلسطين، لذلك لم يكن ليأخذ بالسياسة الأنجلوساكسونية التي تقول بالتغيير البطيء، ولا تؤمن بالثورة في إحداث كل تغيير خلافا لما يراه العروبي الإسلامي الذي لا يحجم عن إعطاء العدد والكم قيمة في إحداث كل تغيير اجتماعي. و لا يستنكف عن تمجيد التغيير السريع، ونحن نجد صدى ذلك فيما أوردته الشورى عن استسلام بطل الريف عبد الكريم الخطابي: "على أن هناك عظة يجب أن يتعظ بها الشرق، ألقاها البطل السجين على الشرق المنكوب بالاستعمار... "أردت أن أجعل الريف بلادا مستقلة كفرنسا وإسبانيا وإن أنشئ فيها دولة حرة ذات سيادة لا إمارة راضخة لأحكام الحماية أو الوصاية... لأن غرضنا كان الاستقلال الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة الاستقلال الذي يكفل لنا الحرية التامة."[3]

---

[1] "بشأن الريف جواب من أحد أعضاء جمعية الأمم إلى الأمير الأرسلاني"، الشورى عدد 38، 16 جويلية 1925.
[2] المقال نفسه
[3] الشورى عدد 100، 17 أكتوبر 1926.

إن الطاهر لم يكن يقدر موازين القوى الاستعمارية تقديرا واقعيا ودليلنا على ذلك أنه كان من أنصار التغيير السريع الانقلابي إضافة إلى إيمانه بفاعلية "العدد" وهي مسألة تميز بها الفكر التقليدي، الإسلامي والعروبي الإسلامي على حد سواء كتب الفلسطيني عن الخطابي "أفلا تدعون قرابة رجل يقاتل بنصف مليون نسمة دولتين عظيمتين أوروبيتين أحصاؤهما 62 مليونا؟ فرنسا وإسبانية. أفلا تكافئون هذا الرجل على إحيائه لاسم العرب."[1] إن هذه الحظوة التي لقيها الخطابي على صفحات "شورى" الفلسطيني محمد علي الطاهر تدل على أن العروبي الإسلامي كان شأنه في ذلك شأن المغربي الريفي ميالا إلى النضال المسلح باعتباره أفضل وسيلة لانتزاع الاستقلال. ثم إن قوله "أفلا تكافئون هذا الرجل على إحيائه لاسم العرب" هو عين ما ذهب إليه واحد ممن كتبوا عن ثورة الريفي عبد الكريم الخطابي: "فقد مرت على الشعوب الإسلامية سنون كثيرة كانت فيه موضع استخفاف واحتقار من قبل العالم الغربي... وقد أتيح لعبد الكريم أن يرفع هذا الصوت ثانية، ويرغم العالم على الإصغاء إليه وقد كان المغاربة يعتبرونه حامي الإسلام والمدافع عن الاستقلال."[2]

لقد خيم صمت مطبق على مراكش بصمت ثورة الريف، إلى حين تاريخ صدور الظهير البربري في ماي سنة 1930، إذ مزقت هذه الحادثة ستار الصمت فتفاعلت عوامل مراكشية صرف وأخرى خارجية فكان أن نهض وعي "عروبي" كتب لاندروم: "إن اللحظة الحاسمة في تاريخ نشوء القومية المغربية جاءت ... في 16 أيار (مايو) 1930 عندما أصدر الفرنسيون الظهير البربري ... إن الظهير البربري أتاح للحركة الوطنية فرصة مناسبة لأن تفضح التدخل الفرنسي في الشؤون الإسلامية ونوايا فرنسة في التفرقة بين المسلمين."[3] لقد بقيت مراكش إلى حدود تاريخ صدور الظهير البربري[4]،

---

[1] "عبد الكريم أيها العرب" الشورى، مقال سلف ذكره.

[2] لاندروم، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، بيروت، لبنان، دار الثقافة، ط 2، 1980، ص 189.

[3] المرجع نفسه، ص 190.

[4] "يرتكز " الظهير البربري" الذي صدر- تحت ضغط الحماية الفرنسية – في 16 أيار/ مايو 1930، على تفرقة بين البربر والعرب في الأمور التشريعية والمدنية بحسبانه البربر – خلافا للعرب – أصحاب منظومات عرفية ومحلية خاصة لا ينطبق عليها النظام الشرعي المطبّق في عموم البلاد، وهو نظام شرعي إسلامي...كما أنه يمنح المحاكم الفرنسية سلطة البتّ في المخالفات التي هي من طبيعة جنائية والتي تقع في المناطق البربرية" عبد الإله بلقزيز، العربي مفضال، أمينة البقالي: الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية 1947-1947 محاولة في التأريخ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1992 ص30.

بمنأى عن الوعي "العروبي"[1]. إذ لم يتسرب فعل الفكرة العروبية، إلى الرموز الفكرية السياسية المراكشية إلا بعد حادثة الظهير البربري على حد تعبير عبد الكريم غلاب[2] في كتابه "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي."[3] ويعود ذلك أساسا إلى "تضخيم" المشرق العربي هذه الحادثة برموزه السياسية والدينية وبصحفه وإضفاء بعد ديني على هذه القضية ونذكر من بين هؤلاء الرموز الأمير الدرزي شكيب أرسلان أما الصحف فنذكر جريدة "الشورى" ومجلة "الفتح": يقول لاندروم: "ترددت أصداء الاحتجاج ضد الظهير خارج حدود المغرب فقد بدا العالم الإسلامي وكأنه أحس فجأة بوجود "قضية مغربية"، فقد ارتفعت الأصوات الحانقة من تونس إلى القاهرة فبغداد... إن أخبار الأحداث المغربية ضخمت كثيرا، وجعل من مسألة الظهير قضية ليس بعدها قضية في خطورتها."[4]

لقد وثقت هذه القضية المراكشية عروة الرموز الفكرية السياسية المراكشية بالرموز المشرقية إذ استغل المشارقة هذه الحادثة لتعزيز الشعور بالانتماء "العروبي" والإسلامي خاصة إذا علم المرء أن مراكش عرفت تاريخيا بخصوصية فكرية ونفسية واجتماعية تستمد معناها من الإسلام دون العروبة وهذا ما عبّر عنه عبد الإله بلقزقيز بقوله" شكّل الإسلام أهم مقوّم من مقوّمات الكيان المغربي،...لقد صهر كل المقومات الأخرى واستوعبها بصورة تركيبية...ومكّن المغاربة من تحديد شخصيتهم، و صاغ وعيهم الجماعي بالنسبة إلى العالم. وبكلمة، فقد مثّل فضاء تكوينهم الفكري، والنفسي والاجتماعي. ولاعتبارات تاريخية لم يرق شعور المغاربة بالعروبة إلى مصاف شعورهم بالإسلام"[5] هذه الاعتبارات التاريخية أهمها أن المغرب الأقصى هو البلد الوحيد من بلدان

---

[1] نقصد بالوعي العروبي ما ذهب إليه عبد الإله بلقزيز في كتاب"الحركة الوطنية المغربية" إذ يقول: "نعني بالوعي العروبي الانتساب إلى العروبة بصفتها رابطة تاريخية، ثقافية اجتماعية، تتجاوز الانتماء إلى المجال الوطني...هو وعي الهوية خارج التحديد السياسي لها، ...في مقابل هذا المعنى تبدو عبارة الوعي القومي "مثقلة بمضمون وحدوي إيديولوجي" [أي تحمل] وعي ضرورة الوحدة العربية " عبد الإله بلقزيز الحركة الوطنية المرجع نفسه ص 17.

[2] عبد الكريم غلاب: ولد سنة 1922 درس في جامعة القرويين ثم التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة...مثل دورا هاما في تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة ورئاسته...تحمّل مسؤوليات قيادية في حزب الاستقلال منذ سنة 1960 [انظر عبد الإله بلقزيز الحركة الوطنية، المرجع نفسه ص ص278-279]

[3] عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، الجزء الثالث، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005، ص ص 50 -51.

والملاحظ أن: عبد الكريم غلاب يستعمل عبارة "الوعي القومي" ونحن هنا استعملنا عبارة الوعي العروبي [انظر عبد الإله بلقزيز، الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص 17.]

[4] لاندروم، تاريخ المغرب، مرجع سلف ذكره، ص 181.

[5] عبد الإله بلقزيز الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره ص 20-21.

بلاد المغرب الذي لم يخضع لحكم الإمبراطورية العثمانية لذلك حافظ على تسميته "المغرب الأقصى"، من هنا لم يتسرّب إليه الشعور "بالعروبة حينما تغلغل الفكر القومي في العالم العربي وانطلاقا من هذا المعطى حاول المشارقة تسريب هذا الشعور إلى المغرب الأقصى "مشبعا إسلاما" "خصوصا منهم العروبيين الإسلاميين، مثل أرسلان ومحمد علي الطاهر. كتب لاندروم: "كان على الوطنيين وهم يضعون برنامجهم، أن يأخذوا بعين الاعتبار عوامل خارجية بالإضافة إلى العوامل المغربية الصرف. فإن شكيب أرسلان الذي كان يقيم في سويسرا، كان يوجه أفكار الشباب في أنحاء العالم ... ويرسم لهم طريق العمل بدقة، ويزودهم بعقائد القومية العربية الجديدة."[1]

على هذا الأساس طالب الأمير الدرزي العالم الإسلامي، بالدفاع عن الإسلام في مراكش حينما صدر الظهير البربري، وطلب من الصحف المشرقية "أسلمة" القضية أي جعلها قضية تمس في جوهرها الدين الإسلامي، فاستجاب لهذه الدعوة عدد من الصحف منها شورى الفلسطيني محمد علي الطاهر، حيث نقرأ له مثلا: "أصدرت فرنسا في المغرب الأقصى مرسوما سلطانيا... بإلغاء الشريعة الإسلامية وإلغاء العمل بها بين برابر المغرب الأقصى وعوضتها بعوائد بربرية قديمة وطردت كل المعلمين الذين يلقنون القرآن الكريم لأطفال البربر... إن لهذه الحوادث... لتنبئ بأن المستقبل في المغرب الأقصى سيكون للعروبة وللإسلام."[2] ولقد حدث نتيجة هذا الإيمان في فكر الطاهر "أن المستقبل في المغرب الأقصى سيكون للعروبة والإسلام." أن اجتهد في تضخيم دور الجنس واللغة والدين باعتبار أن هذه المفاهيم من المقومات الثابتة في تحديد هوية الأمم في نظر التيار العروبي الإسلامي دون تركيز على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وكأنه يؤمن فقط بدور الثقافي في حل مشكل الإستعمار وإن لم يستند إلى أسس طبيعية واجتماعية واقتصادية صلبة وهو في الحقيقة إيمان يترجم سمات التفكير العروبي الإسلامي، لأن الأمر يتعلق برغبة في الحفاظ على أسس المجتمع التقليدي المراكشي، وهي رغبة مثلت مدار اهتمام المشرق بأكمله إذ يقول الحسن بوعياد مصورا ما وقع "من ردود فعل ضد الظهير البربري في المشرق العربي المسلم، وعلى الأخص دورها في هذا

[1] لاندروم، تاريخ المغرب ، مرجع سلف ذكره ص 189.
[2] الشورى عدد 295، 15 أكتوبر 1930.

الواجب المحتم على كل مسلم... وكذلك ما قامت به مجلة الفتح خاصة من تبيين لهذه القضية متمثلا في الدفاع عن وحدة الشعب المغربي والتشهير بصليبية الظهير البربري وكذلك ما قامت به جمعيتا الشبان المسلمين والهداية الإسلامية."[1] ونحن نضيف إلى مسعى مجلة "الفتح" التي ذكرها الحسن بوعياد إلى بيان "صليبية الظهير البربري" مسعى "شورى" محمد علي الطاهر ومن ذلك مثلا ما ورد تحت عنوان "العرب والإسلام بإزاء صليبيات جديدة وفلسطين الصهيونية" من تمجيد لآراء الكاتب الفرنسي "أوجين يونغ" المعروف بدفاعه عن الإسلام إذ نقرأ: "ومما يجب ذكره أن الميسيو أوجين يونغ ليس باشتراكي ولا بشيوعي حتى يقال إنه يصرح بمثل هذه الأقوال عن مبادئ اشتراكية مضادة للاستعمار. ولكن السيد يونغ مقتنع بأن هذه السياسية مضرة جدا بفرنسا ... وفي هذا الكتاب عدا غيره من كتابات الأفرنسيين المنصفين ما يكفي لإقناع المكابرين بأن قضية تنصير البربر ليست بحلم من الأحلام بل هو عمل واقعي راهن قامت به الحكومة الفرنسوية في المغرب ولا تزال سائرة عليه بدون مبالاة بعواطف العالم الإسلامي."[2]

لقد بينت "شورى" الفلسطيني محمد علي الطاهر أن فرنسا الدولة اللادينية التي "طردت في بلادها القسس والرهبان" وقاومت البابوية إنما جاءت إلى بلاد المشرق وبلاد المغرب ليس للبسطة الاستعمارية والتوسع السياسي والاقتصادي وإنما من أجل التبشير والتنصير ومن ثم محاربة الإسلام، لذلك يمكن القول "إن قضية الظهير البربري لم تبرز الوعي الوطني المغربي فقط بل أدمجت المغرب الأقصى المسلم في الوحدة الإسلامية جاعلة جميع المسلمين يقاسمون إخوانهم المغاربة محنهم. وأخذت القضية التي أتقن شكيب أرسلان حبك خيوطها أبعادا شرقية."[3] إن المسألة هنا تجاوزت مجرد قضية ظهير بربري إلى واقع فكري حضاري أشمل لتدل على رغبة في الإبقاء على أسس مجتمع تزحزحت بسبب تصادمه مع الغرب لذلك لا يتحرج الرموز المراكشيون والمشارقة من ذكر قرائن تترجم في جوهرها أن مقاومة الظهير البربري هي مقاومة لا هوادة فيها لأن الأمر يتعلق بميدان حساس يمس مقومات ثابتة في فكر التيار الإسلامي، والتيار العروبي الإسلامي إذ

---

[1] الحسن بوعياد، الحركة الوطنية والظهير البربري لون آخر من نشاط الحركة الوطنية في الخارج 1348 هـ 1930 م، الدار البيضاء، دار الطباعة، ط 1979، ص 13.

[2] "العرب والإسلام بإزاء صليبيات جديدة – وفلسطين والصهيونية"، الشورى عدد 329، 24 جوان 1931.

[3] شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، مرجع سلف ذكره، ص 172.

يقول الحسن بوعياد: "وأبلغ بيانا يدل على ذلك افتتاح الفرنسيين مدارس في أواسط البربر خالية من كل ما يذكرهم بالعربية والإسلام. وهذه المدارس منها ما هو للبنين ومنها ما هو للبنات... وفي هذه المدارس يتلقون مبادئ الفرنسية والدروس المسيحية؟ وفي كتب المطالعة تمجيد وتأليه لفرنسا، وشتم للعرب وتنقيص من كرامة المسلمين."[1]

إن الأمر إذا يتعلق بميدان حساس حاسم هو ميدان التعليم خاصة إذا علم المرء أن التيارين الإسلامي والعروبي الإسلامي لديهما إحساس حاد بخطر التعليم الحديث على البنية الاجتماعية التقليدية وعلى المواقع الاجتماعية للرموز الفكرية الممثلة لهما."[2] لذلك نرى محمد علي الطاهر لا يتحرج في الدفاع عن تعليم يثبت دور الميتافيزيقي والسياسي من ذلك أننا نقرأ على صفحات جريدته الشباب نقدا لسياسة فرنسا في ميدان التعليم إذ أنها "اعتمدت ملايين الفرنكات في ميزانية أوقاف المسلمين لإعانة التبشير ولم تعتمد فيها أي شيء للقضاء الإسلامي ولا التعليم الإسلامي بل منعت المسلمين من التعليم في المساجد والمدارس وهي تفعل هذا كلما رأت في التعليم روحا إسلامية."[3] إن التعلم الذي ينشده الفلسطيني الإسلامي محمد علي الطاهر وغيره من رموز التيارين العروبي الإسلامي والإسلامي هو تعليم مقيد بقيدين أولهما قيد الآثار الباقية من القرون الخالية، وثانيهما قيد الحفاظ على استنساخ مجتمع شبيه بمجتمع القرن السابع الميلادي والحفاظ على التركيبة الإجتماعية الممثلة له وعلى مكانة رموزه الإجتماعية، ولعل أبرز من مثل هذه الطبقة الإجتماعية القروي علال الفاسي[4] أحد أهم ممثلي "الفكر السلفي الجديد"[5] في مراكش وزعيم كتلة العمل الوطني التي وحدت المراكشيين وحملت لواء النضال الوطني

---

[1] الحسن بوعياد، الحركة الوطنية والظهير البربري، مرجع سلف ذكره، ص 32.

[2] محمد الناصر النفزاوي، التيارات الفكرية السياسية، مرجع سلف ذكره، ص 204.

[3] مراكش تستغيث، الشباب عدد 83 – 43 "77" ديسمبر 1937.

[4] علال الفاسي، ولد في مدينة فاس سنة 1910 درس في جامعة القرويين ونال "العالمية منها في سن مبكرة تزعّم الانوية الأولى للعمل الوطني في فاس وبرز مبكرا باعتباره داعية سلفيّ معاد للاستعمار ويجتذب الطلاب والجمهور الواسع إلى حلقاته، انتخب في نهاية 1936 رئيسا لكتلة العمل الوطني...نفي إلى الغابون ولم ينته نفيه إلا سنة 1946 حيث تولى رئاسة حزب الاستقلال ثم التحق بالمهجر المصري سنة 1946 وهناك اتصل بعبد الكريم الخطابي وانضم إلى "لجنة تحرير المغرب العربي". تولى بعد الاستقلال وزارة الشؤون الإسلامية (1961-1963) [انظر منال الشرعبي الوهابية السعودية وأثرها في "السلفية الجديدة في مراكش" ماجستير في الحضارة المعاصرة ، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاويي، جامعة تونس الأولى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم اللغة والآداب والحضارة العربية 2006-2007. ص 127.وكذلك عبد الإله بلقزيز الحركة الوطنية المغربية، مرجع سلف ذكره ص 276.

[5] مثلت الوهابية السعودية [التي بيّنا أهم ملامحها في القسم الأول من البحث] بذرة أولى ستعطي أكلها في مراكش (دون غيرها من بلاد المغرب) ما سيعرف "بالسلفية الجديدة": "وقد كان عمل أبي شعيب الدكالي بمثابة الارهاصات الأولى لمولد السلفية الجديدة التي دعا إليها وبثها في المجتمع المراكشي الشيخ محمد العربي العلوي...ويمكن اعتبار عمل الشيخين المصلحين الدكالي والعلوي بمثابة العمل القاعدي الذي نشأ ت على أساسه السلفية الجديدة..فتكونت بذلك نخبة من السلفيين الشبان" كان أهمهم علال الفاسي انظر منال الشرعبي الوهابية السعودية، مرجع سلف ذكره ص ص 124-125.

المراكشي بعد صدور الظهير البربري إذ يقول عبد الكريم غلاب "الظهير (المرسوم) البربري، وهذا اسمه التاريخي، كان النقطة التي أفاضت الكأس والطريق التي انفتحت أمام الخلايا وقد توحدت في خلية واحدة ستبرز تحت اسم "الكتلة الوطنية" ويتضح اسمها بعد فيصبح "كتلة العمل الوطني".[1]

ما يمكن أن نستنتجه إذا هو أن الظهير البربري قد كان له أثر هام في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر على المستويين الداخلي والخارجي. ذلك أنه على المستوى الخارجي وثق الصلة بين مراكش وسائر بلاد المغرب من ناحية وبين مراكش والبلاد الإسلامية عموما والمشرق العربي خصوصا فقد "تزامن إصدار الظهير البربري مع إقامة المؤتمر الإفخارستي بتونس من طرف [كذا] السلط الفرنسية [ونحن تعرضنا لذلك في الفصل المتعلق بتونس] ومع الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر [وكنا قد أشرنا إلى ذلك في الفصل المتعلق بالجزائر] مما ولد ثورة وسخطا كبيرين في نفوس المغاربة وكانت هذه الأحداث سببا في التفاعل والتضامن بين الشعوب المغربية."[2]

أما على المستوى الداخلي فقد شكّل الظهير البربري وعيا مخصوصا مثل منعطفا هاما بالنسبة إلى هذا القطر المغربي ونقصد بهذا الوعي المخصوص.

(1) رسم شخصية مراكش أي التأكيد على انتماء مراكش العربي والإسلامي"[3]

وهذا ما نجده عند القروي علاّل الفاسي إذ يقول:" إن وطنيتنا عربية، وبلادنا عربية ولنا الحق في أن نطالب العرب بالتكتل حول كلمة سواء هي العروبة التي تحمل في محتواها رسالة الإسلام"[4] ،إضافة إلى أن العامل المحرك لهذا الوعي – إلى جانب ما ذكرنا- هو دراسة عدد هام من رموز الحركة الوطنية المراكشية بفلسطين والقاهرة حيث مكّنهم هذا الأمر من الاتصال بقضية فلسطين منذ نهاية العشرينات[5]

(2) مثل التقاء الديني بالسياسي عاملا محددا لتاريخ الحركة الوطنية المراكشية.

---

[1] عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، الجزء الثالث، مرجع سلف ذكره، ص 337.

[2] منال الشرعبي، الوهابية السعردية وأثرها في "السلفية الجديدة" في مراكش، ماجستير في الحضارة المعاصرة، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة والآداب والحضارة العربية، 2006 - 2007، ص 121.

[3] كان الفاسي يؤكد إلى جانب اتجاه كتلة العمل الوطني السلفي، "أن مشروعها ليس سياسيا فحسب بل ديني واجتماعي أيضا فمن بين أولويات هذه الحركة التأكيد على انتماء مراكش الإسلامي العربي" [انظر منال الشرعبي، مرجع سلف ذكره، ص 134.]

[4] عبد الإله بلقزيز، الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره ص21.

[5] المرجع نفسه، ص ص 29-34.

لقد بقيت مراكش وفية وفاء لا يحد للإسلام الأول، أي بعبارة أخرى إن هذه الأرض المغربية بقيت منشدة انشدادا تاما إلى النسخة الاجتماعية الأولى التي أشادها الفاتحون من الصحابة والتابعين إلى حدود القرن العشرين. و يظهر ذلك في توسل الرموز الفكرية السياسية بـ"السلفية الجديدة" باعتبارها مصدر نحت شخصية مراكش من ناحية ثم باعتبارها نواة أولى للنشاط السياسي المراكشي "ويعتبر علال الفاسي رمز السلفية المراكشية ومؤسسها والزعيم السلفي الأول في مراكش... فقد نظر الفاسي للسلفية الجديدة وحاول تطبيقها في مشروعه السياسي وجعلها إيديولوجيته الخاصة وإيديولوجية الحركة الوطنية... وقد اثر الشيخ محمد العربي العلوي[1] تأثيرا كبيرا في الفاسي ورفاقه."[2] لقد كان علال الفاسي يتخذ من التراث مرجعا أساسيا آمن بتطويره، فمثلت هذه المسألة العمود الفقري في نظرة علال إلى الأشياء. يقول الفاسي إثر صدور الظهير البربري "تقدمنا نحن الذين كنا جنود السلفية وأعوانها للقيام برد الفعل العظيم الذي قاوم الخطر الماس بالدين في الصميم وإذا بنا في حركة سلفية ووطنية في وقت واحد."[3] وبهذا التفت الرموز الفكرية والسياسية على اختلاف تكوينها حول الإسلام والعروبة لأنها رأت فيهما:

(1): سبيل الوحدة مقابل التجزئة "الاثنية والجغرافية" التي شهدتها مراكش منذ القديم وعمقها الاحتلال بإصدار الظهير البربري.

(2) سبيل الخلاص من نير الاستعمار خصوصا بعد تداخل الديني بالسياسي.

إن الباحث إذا توقف عند هذه المسائل أمكن له فهم سر تعظيم الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر المراكشي علال الفاسي، وعددا من شبان الحركة الوطنية المراكشية على صفحات جريدته "الشباب": فناصرهم وحشد لهم الأنصار في أصعب مراحل الحركة الوطنية المراكشية ونقصد بذلك أواخر ثلاثينات القرن العشرين حينما اشتد الصراع بين زعماء الحركة المراكشية بقيادة الفاسي والجنرال نوجيس في عهد حكومة الجبهة الشعبية حيث: "عمد الجنرال نوجيس – وهو الخبير بالمغرب – إلى محاولة تصفية الحركة الوطنية، فاتهمها بأنها تثير اضطرابات أمنية، معتمدا على تخوف

[1] محمد العربي العلوي: يعتبر من أبرز دعاة السلفية في المغرب كان له أثر هام في تكوين أهم رموز الحركة الوطنية المغربية فشكل بذلك النواة الأولى لتداخل الديني بالسياسي [انظر منال الشرعبي: الوهابية السعودية، مرجع سلف ذكره، ص 125.]

[2] منال الشرعبي، الوهابية السعودية، مرجع سلف ذكره، ص 121.

[3] المرجع نفسه، ص 129.

حكومته من تسرب الاضطرابات من المنطقة الشمالية، ومنع كتلة العمل الوطني (التي اتخذت لها اسم الحزب الوطني بعد منعها في اضطرابات 1936) واعتقل زعماءها، وزعيم الحركة القومية المنشقة عن الكتلة (زعيم الكتلة علال الفارسي وزعيم الحركة القومية محمد بلحسن الوزاني[1])"[2]

ذهبت مساعي الجنرال نوجيس بريح "الأفكار التحررية النظرية"[3] التي ميزت توجهات الجبهة الشعبية، لذلك نجد الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر يجند قلمه، دفاعا عن الرموز الفكرية السياسية المراكشية وتثبيتها مؤكدا للجنرال نوجيس أن سعيه إلى تصفية الحركة الوطنية المراكشية وقتلها في مهدها، أمر غير ممكن لأن هذه التربة التي لم ترض بغير الإسلام دينا منذ الفتح الإسلامي إلى القرن العشرين لن تنجب سوى أمثال الريفي عبد الكريم الخطابي، كتب الطاهر: "فإذا كان الاستعمار يظن أنه بالقبض على هؤلاء الرجال سيقضي على روح الاستقلال في مراكش فقد أخطأ التقدير، لأن هؤلاء الزعماء ليسوا كل مراكش بل هم جماعة أنجبها الشعب بعد طول المخاض وسينجب غيرهم، في لحظة لأن الشعوب التي نضجت تستطيع أن تنجب عشرات مثل الحسن بوعياد والسيد الهاشمي والسيد علال والسيد اليزيدي. وكلما ضغط الاستعمار على الناس ازدادوا نضجا واستبسالا، وسنرى وسيرون ما الله بغافل عما يعملون."[4]

لم حصر الفلسطيني محمد علي الطاهر كلامه عن الحركة الوطنية المراكشية في الشق الفاسي: أي في الشق القروي ذي التكوين التقليدي؟

إن المتأمل في شاهد العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر لا يسعه إلا التوقف عنده بترو لأن هذا الكلام كتبه الفلسطيني في مرحلة تاريخية مفصليّة هامة بالنسبة إلى الحركة الوطنية المراكشية، ونقصد تصدع وحدة كتلة العمل الوطني للأسباب التالية:

---

[1] محمد بلحسن الوزّاني: ولد في فاس سنة 1910، درس في ثانويتها العصرية، ثانوية مولاي إدريس، حضّر الباكالوريا في باريس. درس في المدرسة الحرة للعلوم السياسية في الكوليج دوفرانس...شارك في تأسيس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين سنة 1927 وانتخب عضوا في مكتبها وأمينا عاما لها سنة 1829. انخرط كذلك في نجم الشمال الإفريقي...بعد انفصاله عن كتلة العمل الوطني وامتدادها "الحزب الوطني " أسس "الحركة القومية" ...كما أسس حزب الشورى والاستقلال بعد فترة نفيه...[انظر عبد الإله بلقزيز الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره ص276. وانظر ماجستير الحضارة العربية الحديثة والمعاصرة، شادية الهرمي: محمد بن الحسن الوزاني حياته وتفكيره السياسي، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، ك.ع.إ.إ.، تونس 2006 – 2007 (غ.م.)]

[2] عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب، مرجع سلف ذكره، ص 342.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] محمد على الطاهر، "ماذا في المغرب الأقصى فيه مثل الذي بفلسطين"، الشباب عدد 77 – 37، "71"، 36 نوفمبر 1937.

- ظهور مشكلة الزعامة بعد توسع القاعدة الشعبية للكتلة في عهد حكومة الجبهة الشعبية.

- اختلاف التصورات والنظرة إلى الأشياء بسبب اختلاف التكوين الفكري والسياسي لعدد من الرموز الفاعلة في الكتلة (ولا يمكن للمرء أن يتجاوز الفرق بين تكوين متصلب للقرويين ممثلا في الفاسي و تكوين منفتح للرموز المتكونة بفرنسا ممثلا في محمد الحسن الوزاني). ويؤكد محمد الضريف في كتابه "الأحزاب السياسية المغربية" أن التحول الذي أصاب الكتلة الوطنية وتحولها من حزب منغلق على نفسه إلى حزب منفتح على القواعد الشعبية هو الذي طرح مسألة السلطة داخل الحزب إذ أن فكرة القيادة الجماعية لم تعد صالحة."[1]

إن اقتصار الطاهر في كلامه عن الحركة الوطنية المراكشية على ذكر الرموز الفكرية السياسية التي تمثل الشق الفاسي بشكل مكثف بداية من سنة 1937 تاريخ حصول الانشقاقات في مراكش إنما يدلّ ضرورة على رفض الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر القول بزعامة الشق غير الفاسي للحركة الوطنية المراكشية وهذا أمر قد يفهمه الباحث إذا ما استحضر توجهات الفاسي الإيديولوجية التي ذكرناها سابقا أي التوجه "السلفي الجديد" الذي جعل من أولوياته تثبيت انتماء مراكش العربي الإسلامي وربط هذا القطر المغربي بالمشرق العربي.

يمكن للباحث أن يقلب نظره في صفحات جريدة الطاهر "الشباب" بداية من سنة 1937، وسيجد أن أكثر المقالات تتعلق بالرموز الفكرية السياسية الممثلة لعلال الفاسي (الحسن بوعياد و الهاشمي و محمد اليزيدي...) أي هؤلاء الذين تخرجوا من جامع القرويين، وإن وجد ذكرا لمحمد الحسن الوزاني على صفحات الشباب وغيره من الرموز الفكرية والسياسية ذات التكوين الحديث فإن ذلك من باب الإقرار بوطنية هؤلاء الشبان، أما الزعامة المراكشية فإن محمد علي الطاهر يحصرها في شخص الزعيم علال الفاسي."[2] ونحن نلتقط ذلك في ثنايا المقالات التي نشرتها الشباب أثناء نفي علال الفاسي

[1] منال الشرعبي، الوهابية السعودية، مرجع سلف ذكره، ص 135.
[2] سنتواصل نظرة العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر إلى علال الفاسي باعتباره زعيم الحركة الوطنية المراكشية حتى بعد استقلال المغرب الأقصى، كما أن العلاقة الحميمة بين الطاهر والقروي الفاسي ستتأكد أثناء وجود هذا الأخير بالمهجر المصري.

إلى الغابون . من ذلك مثلا ما ورد بعنوان "علال الفاسي زعيم الحركة الوطنية المغربية لا يدرى عنه شيء من أربعة أشهر". و نلمس أيضا هذه الزعامة في تعظيم "الشباب" علال الفاسي ورفضها ما يتعرض له هذا الرمز من نفي وسوء معاملة من قبل الاستعمار الفرنسي إذ أوردت الشباب: "لا يخفى أن الحكومة الإفرنسية قد أبعدت السيد علال الفاسي زعيم الحركة المغربية المقاومة للاستعمار في المغرب وذلك إلى بلاد غابون الواقعة على خط الاستواء وقد قصدت ... إسكان هذا الزعيم في تلك المنطقة التي هي أوبأ البلاد هواء وأشدها حرارة لأجل القضاء على حياة هذا الشاب النادر في شبان المسلمين من جهة العقل والعلم وعلو الهمة وبعد العزيمة وشرف المبادئ"[1].

إن اعتبار محمد علي الطاهر علال الفاسي "جوادا عربيا أصيلا" يمثل "مطرا" في أرض مراكش جعله لا يتوانى لحظة واحدة في الدفاع عنه وإعلاء مكانته الاجتماعية والسياسية والفكرية ليس فقط بالنسبة إلى مراكش بل أيضا إلى العالم العربي والإسلامي من هنا كتبت الشباب "فليعلم الفرنسيس أنه إذا أصاب علال الفاسي شيء في منفاه هذا فيكون شهيد ظلمهم وضحية سوء قصدهم ويحسبه العالم الإسلامي كله قتيلا قتلته فرنسا بيدها ظلما وعدوانا ويبقى في قلوب المسلمين جرح من عملهم هذا لا يلتئم مدى الدهر ولا ينفع بعد ذلك فرنسا رضاء المغربي."[2]

لقد كان الفلسطيني مخلصا لمذهبه ميالا إلى مناصرة معتنقي إيديولوجيته ولا غرابة في ذلك فكل مخلص لمذهبه إنما يدافع عن نظرته إلى الأشياء وعن ممثلي وحملة هذه النظرة، إضافة إلى ذلك فقد تميز محمد علي الطاهر بتسامحه الفكري مع من يخالفه إيديولوجيا إذا كان وطنيا. أي خادما لوطنه وهو العامل الثاني المحدد والفاعل في علاقات الفلسطيني بساسة بلاد المغرب في حين أنه لم يكن يتردد لحظة واحدة في محاربة كل رمز فكري يراه غير خادم لوطنه أو يستأنس فيه مقولة "الأجير الثقافي" ومن بين هؤلاء الذين اعتبرهم الطاهر من أذناب الاستعمار الفرنسي وحاربهم بلا هوادة على صفحات جريدة "الشباب" نذكر عبد اللطيف الصبيحي.

---

[1] علال الفاسي زعيم الحركة الوطنية المغربية لا يدري عنه شيء من أربعة أشهر"، الشباب عدد (120 – 80 – 415) 26 أكتوبر 1938.
[2] المقال نفسه.

وقد أورد الحسن بوعياد في كتابه الحركة الوطنية والظهير البربري ما يثبت عكس ما ذهب إليه الفلسطيني محمد علي الطاهر إذ نجد ما نصه ثنى عنوان "كتاب [ويقصد الرسالة التي بعث بها إلى الجنرال حاكم ناحية مراكش بشأن رفضه الظهير البربري] الزعيم المغربي عبد اللطيف الصبيحي": "المرحوم السيد عبد اللطيف الصبيحي من الشبان المغاربة الذين يفخر المغرب بإنجابهم. لقد كان رحمه الله شابا مخلصا وقاد الفكر ... إذ لو أطال الله عمره لخدم أمته بما يسرها وبالإطلاع على كتابه هذا إلى الجنرال حاكم ناحية مراكش يظهر ما كان له من علو الهمة والإخلاص. وقادة الحماية تفرسوا فيه ما يمكن أن يأتيهم من جهته، فكانوا يحاربونه كلما واتتهم الفرصة."[1] كما نقرأ في موضع آخر من الكتاب تعرض عبد اللطيف الصبيحي للسجن والنفي "الأستاذ السيد عبد اللطيف الصبيحي من شباب المغرب المتحمس في مقاومة الظهير المشئوم بعد ما سجن بمدينة مراكش جاءت الأخبار بنفيه إلى الصحراء."[2]

لم اعتبر الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر الرمز المراكشي عبد اللطيف الصبيحي[3] غير خادم لوطنه؟ نحن نكتفي هنا بمجرد طرح السؤال.

يقول محمد علي الطاهر: "جريدة باللسان الفرنسي اسمها (لافوا ناسينال) الصوت الوطني (المغرب الأقصى) لصاحبها عبد اللطيف الصبيحي، فاستغربنا كيف تصدر في مراكش الآن جريدة بينما السلطة الإفرنسية تقفل الجرائد. واستغربنا كذلك كيف سمحت السلطة لرجل وطني مخلص بإصدار جريدة في مثل هذا الوقت... ولما تصفحنا هذه الجريدة وجدناها كما ظننا، ثم سألنا أحد أحرار المغاربة فقال إن عبد اللطيف الصبيحي كان وطنيا مشهورا ولكنه في المدة الأخيرة نكص على عقبيه وباع دينه بدنياه وأصدر تلك الجريدة لخدمة الاستعمار وخداع أمته لا حياه الله."[4]

---

[1] الحسن بوعياد، الحركة الوطنية والظهير البربري، مرجع سلف ذكره، ص 192.

[2] المرجع نفسه، ص 292.

[3] تجدر الإشارة إلى أن عبد اللطيف الصبيحي متخرج من مدارس فرنسا العليا بالرباط وفرنسا أي أنه صاحب تكوين فكري سياسي حديث [انظر الحسن بوعياد، تاريخ الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص 192.]

[4] الشباب عدد 104 – 64 – 399، 25 ماي 1938.

الزعيم علال الفاسي ومحمد علي الطاهر

فهل إن هذا الموقف من الصبيحي ناتج عن إيمان قوي حقيقي بسوء طوية هذا الأخير أم أن الاختلاف في التكوين النفسي والتكوين الفكري والسياسي بين الرموز الفاعلة في التاريخ يجعل من البعض يحظى بعناية هامة عند الطاهر والبعض الآخر يجابه بالنفور. إن المسألة تبدو بديهية في زمن عبر فيه بعض المثقفين عن "تكشف الأساس غير الأخلاقي للعمل السياسي".

وكان من بين هؤلاء الذين سيلازمهم هذا الإيمان الفلسطيني محمد علي الطاهر الذي سيستمر في معاداته هذا الرمز المراكشي إذ أوردت "الشباب" "نحن نسأل أولئك الذين يدافعون عن فرنسا في معاملتها الجائرة للمراكشيين [يقصد عبد اللطيف الصبيحي] ما الذي اجترحه حزب العمل القومي من السيئات حتى تقبض فرنسا على ثلاثة آلاف شخص منهم وتزجهم في السجون وتحكم على نحو ألفين منهم بالحبس... وعلى عدد من نبهاء فاس وأدبائها ومدرسي جامع القرويين – أزهر المغرب – بالأشغال الشاقة؟... ثم إني أسألك أيها السيد عبد اللطيف الصبيحي المنبري اليوم للدفاع عن فرنسا بالرغم من كل ما سامت وطنك وملتك من خسف وعسف وإرهاق وإعنات ألم يبق الزعماء المبعدون إلى الصحراء... عرضة للضرب والتعذيب... فهل تقدر أن تقول إن نوجسيك هذا – الذي هو سلطان المغرب – الحقيقي – قد أصدر أمرا بالتحقيق عن كيفية موت السيد محمد القري؟ ... أفهذه هي الأمة التي جئت تنصح لقومك بأن يبذلوا دماءهم في سبيلها بحجة أنها دولة ديمقراطية؟"[1]

كما يمكننا أن نضيف إلى الأسباب التي ذكرنا من اعتبار الطاهر عبد اللطيف الصبيحي "أجيرا ثقافيا" اختلاف الموقع من التحالفات العالمية قبيل الحرب العالمية الثانية في فترة شهدت تأزم الموقف الدولي قبل اندلاع الحرب وانقسام الرموز الفكرية السياسية والمثقفين إلى شق مناصر لدول الحلف مثل عبد اللطيف الصبيحي وشق مناصر لدول المحور مثل العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر الذي " أراد أن يقاوم الدعاية الإنجليزية التي تصور الإنجليز أصدقاء العرب... فأخرج عشرات الآلاف من النسخ القديمة من جريدة الشباب والعلم اللتين كان يصدرهما قبل الحرب عن فظائع الإنجليز في

[1] "ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون"، الشباب عدد 106 – 440 – 17 ماي 1939.

فلسطين وصار يعطيهما تدريجيا لبائع جرائد... فكان الناس يقابلون بين إذاعات الإنجليز ونشرياتهم في أثناء الحرب وبين ما يقرؤون عن فظائعهم القديمة ... فيذكرهم ذلك بحقيقة الإنكليز."[1] إن ميل الطاهر إلى ضرورة مناصرة دول المحور [ألمانيا و إيطاليا...] لا يعود أساسا إلى إيمان فكري إذ يقول مخاطبا عبد اللطيف الصبيحي. "إن ألمانيا وإيطاليا دول دكتاتورية وإننا نحن ينبغي أن نكون ضد الدكتاتورية... ففرنسا لا تقل عن ألمانيا وإيطاليا استبدادا وظلما وعبثا بالقوانين ومنعا للمساواة والشواهد بين جوانبك ... وانكلترا أم الديمقراطيات هي أيضا ظالمة غاشمة وإن كان عندها وعند أختها فرنسا رائحة الديمقراطية فعلى كل حال لا يكون هذا بإزاء المسلمين، فالدول المذكورة كلها بإزاء المسلمين سواسية في الشر مع أن المسلمين أشرف منهم"[2] إن موقف الطاهر من الإنكليز ينبع أساسا من تفكيره الوطني الواقعي إذ كان يفكر في سبيل خلاص وطنه فلسطين من الاستعمار الصهيوني مما دفع السلطات البريطانية في مصر إلى أن تودعه السجن سنة 1940 "وقد أشار أحد كبراء الإنكليز إلى "أن مشكلتنا مع محمد علي الطاهر مشكلة لا علاج لها، فهو إذا حبسناه هاج أصحابه علينا، وإن تركناه هيج الرأي العام علينا."[3]

إن ما يمكن أن نستنتجه في نهاية هذا الفصل الأول من القسم الثاني أن علاقة الطاهر بالساسة المغاربة بين 1924 و1945 مقيدة بقيدين اثنين بصفة عامة.

أولهما قيد مبادئه الفكرية العروبية الإسلامية، وثانيهما قيد التفكير الوطني الذي بدأ يتسرب إليه مع تضخم شعوره بابتلاع الصهيونية لوطنه فلسطين وتأكده من ضياعه. فكان لتضخم نفسيته دور هام في الاهتمام ببلاد المغرب وقد عبر عن ذلك التونسي محمد الصادق بسيس خير تعبير بقوله: "تمكنت يوما من مراجعة مجموعات سنين من جريدته الشورى فوجدتها طافحة بأصداء أصوات المغاربة المعذبين، ومرجعا هاما في المجهول من التاريخ الوطني لتونس والمغرب والجزائر لأن كتاب الوطنية التونسية خاصة حين ضاقت أمامهم السبل وأغلقت الصحف بعد إصلاحات لوسيان سان لم يجدوا في الشرق إلا محمد علي الطاهر ينشر لهم ما يكتبون من غير توقيع أو إمضاء مستعار، وهو الذي

[1] خيرية قاسمة، محمد علي الطاهر قلم فلسطين في مصر، شؤون فلسطينية عدد 39 نوفمبر 1974، ص 154.
[2] ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون"، مقال سبق ذكره
[3] خيرية قاسمة، محمد علي الطاهر، قلم فلسطين في مصر، مقال سلف ذكره، ص ص 154 – 155.

يتحمل بعد ذلك خسائر تعطيل جريدته في مصر، ومنع دخولها للأقطار المضطهدة فكانت تهرب كالمخدرات إليها."[1]

إننا إزاء ما بينا من علاقة الطاهر بساسة بلاد المغرب قبل تأسيس الجامعة العربية نتساءل كيف كانت علاقة العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر بهم بعد تأسيس الجامعة العربية خصوصا التونسي الحبيب بورقيبة وعن سر العلاقة الحميمة التي جمعت بينهما بداية من انتقال بورقيبة إلى المهجر المصري، وهما فكريا متنافران، متنابذان.

[1] محمد علي الطاهر خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 51.

الفصل الثاني

محمد علي الطاهر والساسة المغاربة

بعد تأسيس الجامعة العربية (1945 - 1974)

في دار الشورى بمصر ١٩٤٩

في حفلة شاي اقيمت للزائر السلطان فضل بن عبدالكريم سلطان لحج (السابق) فـــوق علامة × فالسيد عبد الله الجفري مستشار السلطنة علامـــة × × فالزعيم الحبيب بورقيبه عند السهم الاعلى ، فالزعيم علال الفاسي عند السهم الثاني الاعلى وحولهم لفيف من عظماء العالم العربي والمشرقي والمغربي ، منهم الوزير المصري الكبير الدكتور محمد صلاح الدين باشا والسيد محمد رشيدي الزعيـــم الاندونيسي ، والسيد محمد العربي العلمي من كبراء وسفراء المغـــرب ، والسيد محمد بن عبود زعيم منطقـــة طيطوان « بشمالي المغرب » وشاعر اندونيسيا العربي علي احمـــد باكثير ، وسفير اليمن الخ

محمد علي الطاهر خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص855

إن الغاية من هذا الفصل الثاني من القسم الثاني هي تتبع مواقف العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر السياسية من ساسة بلاد المغرب بعد تأسيس جامعة الدول العربية بين 1945- 1974، هذه الفترة متشعبة لأسباب عدة منها لجوء عدد كبير من الرموز الفكرية السياسية المغربية إلى المهجر المصري وهي رموز بمختلف مشارب فكرية، ومنها تنامي الدعوة إلى الفكرة المغربية بداية من سنة 1947 خاصة بعد تحرير المغربي محمد بن عبد الكريم الخطابي إذ سيعطي "تحرير القائد الكبير محمد بن عبد الكريم الخطابي استقراره في القاهرة دفعة قوية للعمل المغاربي الموحّد ضد الاستعمار"[1] نضيف إلى ذلك تأسيس "مكتب المغرب العربي" ولجنة "تحرير المغرب العربي" ومنها ما يتعلق كذلك بتزايد "الوزن المتنامي للانشغالات القطرية، وبروز الصراع والانقسام"[2] داخل الحركات الوطنية المغربية أي أن هذه الفترة مثلت فكريا وسياسيا بعبارة أدق مرحلة مدّ وجزر. إنها مرحلة صراع شديد بين الفكرة القومية العربية والفكرة الوطنية والفكرة المغربية و"يمكن للمرء أن يعود إلى مواقف أمثال جمال عبد الناصر وأحمد بن بلة ومحمد حسين هيكل من تونس البورقيبية أو ليبيا الادريسية أو المغرب الحسيني"[3] كي يستخلص صورة واضحة عن تناكر هذه الأفكار.

إن هذا الواقع الجديد هو الذي سبب ابتعادنا في هذا الفصل عن تتبّع علاقة محمد علي الطاهر بالساسة المغاربة في كل قطر من الأقطار الأربعة، كما كان الشأن في الفصل الأول من هذا القسم وتركيزنا على موقف الطاهر من الخلافات الفكرية السياسية بين الرموز المغاربة من جهة و الرموز المغاربة والمشارقة من جهة أخرى لأنه عاصر مدّ هذه الخلافات وجزرها مثلما عاصر صراع تلك الأفكار ومن ثم فإن موقفه من هذه الخلافات الفكرية السياسية يسمح للمرء بالنظر إلى مدى التطابق عنده بين المبادئ العروبية الإسلامية والممارسة من ناحية و تفسير ميله إلى أن يكون أكثر "تفهما" في علاقته بساسة بلاد المغرب مقارنة بالساسة المشارقة من ناحية أخرى.

---

[1] عبد الإله بلقزيز، الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص 64.

[2] المرجع نفسه، ص 66

[3] محمد الناصر النفزاوي "من مظاهر الصراع على اتحاد المغرب العربي" رواية "إدريس" للجزائري علي الحمامي نموذجا"، الشعب عدد 941، 27 أكتوبر 2007 ص14

ويوجد عامل آخر أكثر أهمية في نظرنا من العوامل التي ذكرنا سالفا وجه عملنا هذه الوجهة هو الحاجة إلى محاولة فهم الإشكالية التي طرحناها في مقدمة العمل ونعني سر هذا التقارب بين رمز فكري سياسي مرجعه عقلي هو الحبيب بورقيبة ومثقف شرقي ينتمي، لأن مرجعه ديني، إلى المدرسة السلفية في شقها العروبي الإسلامي. ويزداد الأمر إشكالا إذا استحضر المرء الصراع التاريخي الذي خاضته السلفية ضدّ التاريخية العقلانية، والتاريخية المادية.

نحن إذا إزاء فترة مفصلية، نعني الفترة الممتدة بين 1945- 1974 وهي الفترة التي اجتمع فيها الرمزان إذ التقيا رغم تباعد الفكر والانتماء الإيديولوجي على حد عبارة سيرج لوزيك (Serg Losique): "الرجال لهم ما يجمعهم، إنهم يلتقون حيث تفرّقهم السياسة"[1] إنهما التقيا في فترة حارب فيها جل المشرق بورقيبة وتونس البورقيبة فيما بعد كما حاربه عدد من الساسة التونسيين والمغاربة على حدّ سواء.

إن هذه الإشكالية هي التي تفسر، إذا، تركيزنا على تتبع علاقة محمد علي الطاهر بـ"التونسي الحبيب بورقيبة" أكثر من اهتمامنا بعلاقاته ببقية الساسة المغاربة عسانا أن نتبين سر القبول الذي لقيه بورقيبة لدى العروبي الإسلامي الطاهر.

غادر بورقيبة تونس إلى المهجر المصري في شهر مارس سنة 1945، أي في السنة التي تم فيها تأسيس الجامعة العربية وتحديدا بعد أربعة أيام من قيام الجامعة ومنذ وصوله حصل التقارب بينه وبين محمد علي الطاهر الذي كتب: "عندما جاء بورقيبة مهاجرا إلى مصر مشينا معه بطبيعة الحال وأيدناه، فقد جاء من سجون طويلة... في تونس وفرنسا وهجرة إلى إيطاليا، ثم عودة إلى تونس ثم جهاد آخر، ثم اختفاء فهرب ثم المجيء إلى مصر"[2] . كان ذلك بعد عجز بورقيبة واقعيا ونفسيا عن مجابهة أحداث تلك الفترة العصيبة على الحزب الدستوري الجديد وزعيمه فاختار أن يتجه صوب المشرق العربي[3] وهذه نقطة يمكن اعتمادها في فهم سر التقارب بين بورقيبة ومحمد علي الطاهر، فزعيم الديوان السياسي حين لجأ إلى مصر كان في حاجة ماسة إلى عامل مساعد ماديا

[1] تطوان في عهد الحماية 1912-1956 مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، منشورات المجلس البلدي، 1992 ص109
[2] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 251
[3] Jean La couture. Cinq homes et la France. Op. ci. tp142

ومعنويا حتى يتمكن من التعريف بالقضية التونسية ويمكن للمرء أن يتبينه من قول محمد علي الطاهر: "سمعت عن بعض الناس أن زعيم تونس الحبيب بورقيبة وصل إلى مصر، فبحثت عنه إلى أن وجدته في فندق بسيط متواضع جدا فأسرعت لتحيته والسلام عليه ومن يومها وأنا أرافقه وأقوم بمواخاته وخدمته كواجب [كذا] علي من الناحية الأخوية ومن ناحية النكبة الاستعمارية فكما أن الظروف الطيبة تجمع الأشخاص، فالظروف السيئة أيضا تجمع المظلومين"[1]

إن العلاقة في هذا المستوى مادية أساسا أي هي نفعية. كان صاحب الشورى في نظر بورقيبة وسيلة لخدمة غاية قدم من أجلها إلى مصر إنها "المصلحة" و"المنفعة" ولا يمكن أن نتناول هذا الوعي البرغماتي إلا إذا نزلناه في فضائه التاريخي، وأخذنا في الاعتبار الواقع الاجتماعي والاقتصادي أي الميل الاجتماعي (intérêt social) إلى أشخاص يمثلون عاملا محفزا وعاملا مساعدا. وهذا هو ما عبر عنه ألفريد أدلر[2] " ولكي يفهم الإنسان من الداخل لا بد أن نستوضح الإطار الخارجي الذي يعيش فيه والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في دوافعه الإنسانية وتكوين تفكيره"[3].

إن الحاجة الماسة إلى صاحب الشورى أثناء وصول الحبيب بورقيبة إلى القاهرة يمكن أن تعتمد في فهم هذا التقارب ذلك أن علاقات الطاهر بالرموز السياسية والملوك والزعماء تسمح له بجمع مساعدات مادية هامة للحركات التحررية ولزعمائها حتى تتمكن من دعم نضالها ضد الاستعمار فهذه مسألة هامة ولا يمكن إغفالها. وخير دليل على ذلك ما جمعه العروبي الإسلامي من مال للحبيب بورقيبة ، منحه ملك العراق للفلسطيني الهاشمي إذ يقول أحمد ابن سودة مستشار الملك الحسن الثاني بعد الاستقلال وصديق محمد علي الطاهر "وكانت له مع الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة روابط متينة استمرت إلى أن توفاه الله وأذكر أنه ذهب مع الحبيب بورقيبة إلى العراق أيام الملكية، وجمع له

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سبق ذكره ص 249

[2] ألفريد أدلر (1870-1939) أحد أتباع فريد (Freud) ومن مؤيدي أفكار مدرسة التحليل النفسي أنشأ مدرسة علم النفس الفردي عام 1912 (ورد في مقال د. بشير العربي سيكولوجيا شخصية بورقيبة. من خلال مذكراته وخطبة، السلسلة الثالثة: الحركات الوطنية التونسية والمغاربية رقم 11، أعمال المؤتمر العالمي الثالث حول السلطة وآليات الحكم في عصر بورقيبة بتونس والبلاد العربية، تونس منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ص 133)

[3] بشير العربي، سيكولوجيا شخصية بورقيبة من خلال مذكراته وخطبه، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ستين ألف جنيه بقيمتها ووزنها في ذلك الوقت أخذها هبة من الملك فيصل... وكذلك كان شأنه مع جميع المناضلين يوظف علاقاته الواسعة لمساعدتهم ومساعدة شعوبهم"[1]

ويزداد الأمر وضوحا عندما يستحضر المرء معاناة الرموز الوطنية من الصعوبات المادية في المهجر المصري، فمنذ أكتوبر 1946 كان التونسيون يعانون من أزمة مالية كتب الحبيب ثامر رسالة إلى عز الدين عزوز جاء فيها:" مسألة المال هي الآن صعبة الحل لأنه بالرغم من جهودنا تبقى مواردنا غير منتظمة...نحن نتخبط كلنا في أزمة مالية"[2] فأن يجد الحبيب بورقيبة دعما ماديا من الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر فهذا أمر لا يمكن لبورقيبة أن يتردد لحظة في قبوله وقبول صاحبه وهو الذي عرف بتفكيره البرغماتي.

وقد كتب عجاج نويهض في الموضوع نفسه: "لمح أبو الحسن أن الأوتيل الذي نزل فيه أبورقيبة ليس "ماشي الحال"، ولا حال أبورقيبة... قام أبو الحسن بتبديل الحال تبديلا حسنا... وبذل أبو الحسن جهده في تمهيد الطريق لبورقيبة ليظهر مناضل تونس في القاهرة، وفي صحفها، وأنديتها، وعند زعمائها وأهل الرأي فيها، ظهورا يليق بمناضل تونس وممثلها في العراك الفرنسي الدولي ثم رأى أبو الحسن أن هذا ينبغي أن تتلوه حفلة تكريم لبورقيبة تقام في أحد الفنادق الكبرى. وكانت الحفلة... بالغة الحد رفعة "وسعة" وصحة اختيار في المدعوّين وهم صفوة رجالات مصر وسيداتها"[3]

إن هذا الدعم المادي الذي عضده دعم آخر لا يقل أهمية عن الأول أي الدعم المعنوي الذي وفره محمد علي الطاهر للحبيب بورقيبة أمران من شأنهما أن يؤكدا أن ما سيجمع بورقيبة بالطاهر مما سيبدو كأنه "شذوذ فكري سياسي" إنما يفسر في جزء منه وفيما يتصل ببورقيبة بتذكر "الأيادي البيضاء" زمن الشدة.

أما فيما يتصل بالطاهر فإن الأمر أكثر تعقيدا إذ كيف نفهم تركيز الطاهر على بورقيبة وهو الذي كان يمثل واحدا من تيارين: تيار وطني يمثله بورقيبة وتيار منافس له أكثر تشبعا بالفكرة المغربية وذي ميول عروبية إسلامية فضّل العمل في ظل محمد بن

[1] سميح شبيب، محمد علي الطاهر تجربته الصحافية في مصر...مرجع سلف ذكره ص9
[2] خالد عبيد مكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1949 تونس، قسم التاريخ 1989 ص 115
[3] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص621

عبد الكريم الخطابي خاصة إذا علم المرء أن محمد علي الطاهر كان وراء تحرير الخطابي من الأسر ووراء فكرة لجوئه السياسي إلى المهجر المصري.

إن هذا الواقع قد يفسر في نظرنا بأمرين أولهما يأس العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر من العرب المشارقة لسببين اثنين السبب الأول هو فشل تجارب الثورات المسلحة في بلاد المشرق، والثاني، بداية تسرب اليأس من الجامعة العربية إلى نفس محمد علي الطاهر ومن ثم التأكد من عدم قدرتها على حل قضية فلسطين ونحن نقرأ لمحمد علي الطاهر سنة 1947 قوله بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني وحركته التحررية بالعراق: " فالعالم العربي لغفلته وانسياقه وراء سادته الذين ضلوا وأضلوا قد خذل ويا للأسف أهم حركة عربية تحررية في هذا العصر كان العراق قائدها، فتمكن الاستعمار بواسطة أعوانه من القضاء على الجميع... كما أن الأمة العربية لا يمكن أن تنسى أن جيش حكومة شرق الأردن- الأردني اسما والانجليزي جسما وفعلا- سيحمل وزر هزيمة العراق، بل هزيمة العالم العربي كله، لأن هذا الجيش ما حركوه منذ خلق إلا لإخماد ثورة فلسطين ثم دفعوه لمحاربة العراق"[1].

إن إيمان الطاهر بالكفاح المسلح باعتباره سبيلا أوحد للخلاص من الاستعمار هو الذي جعله يناصر كل ثورة تندلع في العالم العربي والإسلامي خصوصا المشرق لتأثيره المباشر في وطنه فلسطين واعتقاده بإمكانية امتداد الثورة إلى أرض فلسطين ومن ثم تحررها من نير الصهيونية والاستعمار الانجليزي، إلا أن خذلان الساسة المشارقة الحركات المسلحة المشرقية قد زاد من تضخم نفسية الطاهر، وفقدانه الثقة في الساسة المشارقة و تحديدا الساسة الهاشميين الأردنيين[2] الذين سيحاربهم أيما حرب إلى حين مماته ومثال ذلك قوله: "إن ما يطلبه بعض حكام الأردن الغرباء هو أخذ القسم الجبلي من فلسطين إلى شرق الأردن... بعد أن وافقوا على تقسيم فلسطين... مع العلم أن معنى ذلك زوال العروبة منها إلى الأبد... إن الحكومة التي تضع بلادها تحت

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 191

[2] لقد كتب الطاهر عددا كبيرا من المقالات التي هاجم فيها الملك عبد الله انظر على سبيل المثال "محمد علي الطاهر يرد على عبد الله"، "خمسون عاما في القضايا العربية ص 516- كما نشر الطاهر وثائق على صفحات الشباب تثبت خدمة الساسة الهاشميين غير مصالح العالمين العربي و الإسلامي، انظر مثلا العدد 26-46"381" 12 جانفي 1938 والعدد 93-53"388" 9 مارس 1938

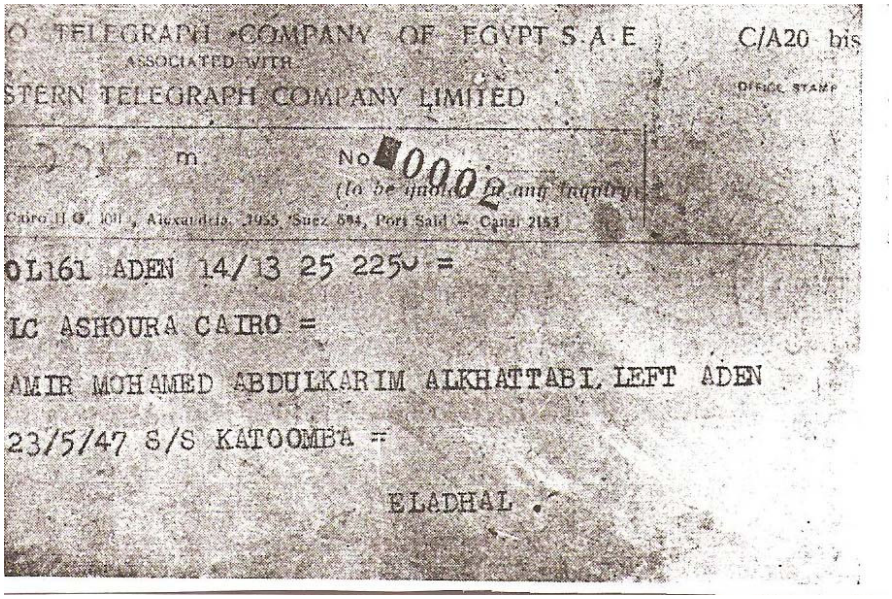

TELEGRAPH COMPANY OF EGYPT S.A.E. C/A20 bis
ASSOCIATED WITH
STERN TELEGRAPH COMPANY LIMITED
OFFICE STAMP
No 0002
(To be quoted in any inquiry)
Cairo H.O. 101, Alexandria 3055, Suez 884, Port Said — Canal 2153

OL161 ADEN 14/13 25 2250 =
LC ASHOURA CAIRO =
AMIR MOHAMED ABDULKARIM ALKHATTABI LEFT ADEN
23/5/47 S/S KATOOMBA =
ELADHAL .

هذه الوثيقة هي برقية تلقاها محمد علي الطاهر من عدن بشأن الريفي عبد الكريم الخطابي ظلام السجن، مصدر سلف ذكره، ص 881.

هذه الوثيقة هي البرقية التي بعث بها محمد علي الطاهر إلى الملك فاروق يلتمس منه تحرير الخطابي من الأسر ظلام السجن، المصدر نفسه، ص 882

سلطة الأجانب لتكون مباءة للاستعمار وترضى بتقسيم فلسطين وتهديدها... لا يجوز بوجه من الوجوه أن تبقى بين دول الجامعة لحظة واحدة"[1]

إن يأس الطاهر من السياسة والساسة المشارقة سيتضاعف أكثر عندما يتنبه إلى حال الجامعة العربية وحال رموزها السياسية وهم على مرأى ومسمع من ابتلاع أرض فلسطين وتشريد أهلها يقول الطاهر: "بعد مضي العام الأول على قيام الجامعة وعندما كان العالم العربي لا يزال مأخوذا بها، تنبهت إلى حالها... وقد حذرت الأمة العربية من الركون إلى الجامعة حتى لا تضيع فلسطين من أيدينا... ولعل أبرز ما تؤاخذ عليه جامعة الدول العربية أنها هيئة قوالة أكثر منها فعالة، وقد أدى الكلام الكثير من الجامعة إلى الأضرار بقضية فلسطين وخصوصا في مسألة الأرض"[2]

لم يبق أمام العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر سوى أن يمزق ستار الصمت وهو يرى تكشف الأساس السياسي لعرب المشرق، وهو أساس لا يخدم قضايا العالمين العربي والإسلامي خصوصا وطنه فلسطين، فكان أن حمله ذلك إلى أمر ننزله ضمن الأمر الثاني ألا وهو اتجاه محمد علي الطاهر بعد يأسه من الساسة المشارقة نحو "القبلة المغربية" في فترة بدا فيها الساسة المغاربة أكثر "تفاهما" و"تقاربا" من المشارقة وفي وقت بدأت تظهر فيه بوادر الإعداد لعمل مسلح موحد بين بلدان شمال إفريقيا خاصة بعد تحرير الخطابي. فكان بديهيا أن يولي الطاهر وجهه الثورة المغربية المرتقبة ودليلنا على ذلك أن الفلسطيني كان وراء تحرير الريفي عبد الكريم الخطابي، إذ يقول: "وآخر ما أفخر به وهو من توفيق الله أنني في 23 مايو 1947 تلقيت برقية من السيد عبده حسين الادهل من فضلاء بلدة "الشيخ عثمان "بجوار عدن يقول فيها إن الأمير عبد الكريم الخطابي مجاهد الريف الشهير قد غادر عدن على متن الباخرة كاتومبا... وقد ألهمني الله يومها أن أكتم النبأ عن الجرائد، ولكنني لم اكتمه عن ملك الشباب فاروق الأول... فأبرقت إلى جلالته بعد منتصف ليل 27 مايو سنة 1947 التلغراف الآتي وهو: وردتني برقية من عدن بأنه قد مر بها الأمير عبد الكريم الخطابي... وهو الآن بطريقه لمنفاه الجديد بجنوب فرنسا وستصل به الباخرة كاتومبا غدا الثلاثاء للسويس فإنقاذه معلق بإشارة كريمة من

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما،...مصدر سلف ذكره صص187-188
[2] محمد علي الطاهر، ظلام السجن...مصدر سلف ذكره صص794-799

جلا لتكم بدعوته للنزول ولا سلطة لفرنسا عليه سوى سلطة الخاطف على المخطوف... إن مكارم جلالتكم التاريخية بنظر العالم الإسلامي هي التي أوحت لي رفع هذا الحادث لمقامكم السامي مع الدعاء بحفظ الذات العلية"[1]، إن صحت الرواية التي تثبت أن محمد علي الطاهر كان خلف تحرير عبد الكريم الخطابي[2] فمعنى ذلك أن العروبي الإسلامي لم يكن ليبذل عبثا مثل هذا المسعى ولم يكن "بريئا" في حساباته السياسية تجاه الساسة المغاربة ونقصد أن الطاهر كان يعلم جيدا قيمة الخطابي وقدرته على جمع كلمة الساسة المغاربة في ظل ما أبدوه من استعداد لعمل موحد ضد الاستعمار الفرنسي، ذلك منذ تأسيس جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية[3] سنة 1945 ثم مكتب المغرب العربي سنة 1947 فلجنة تحرير المغرب العربي سنة 1948 بزعامة الخطابي. إن العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر كان يأمل وهو يرى تقارب المغاربة أن تقوم ثورة مسلحة ضد الاستعمار الفرنسي تخلص بلاد المغرب من نيره وتنقل هذه النزعة المسلحة إلى العدوة الأخرى نعني المشرق وحصرا فلسطين[4] .

إذ يمكن للباحث إلى حدود تاريخ تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي أن يجد مبررا معقولا لتبرير اهتمام الطاهر بالساسة المغاربة ومن ضمنهم علاقته بالزعيم التونسي الحبيب بورقيبة الذي بقي إلى حدود هذا التاريخ مسايرا فكريا لتوجهات الساسة المغاربة والمشارقة على حد سواء وهو ما يفسره نشاطه في جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ثم مكتب المغرب العربي غير أن الباحث يجد صعوبة جمة في فهم تلك العلاقة التي جمعت العروبي الإسلامي الطاهر بالعقلاني بورقيبة بداية من تاريخ نشوب الخلافات داخل مكتب المغرب العربي وبداية تكشّف الأساس الفكري البورقيبي الذي سيلاقي رفضا قاطعا من المشارقة والمغاربة في حين سيزداد العروبي الإسلامي احتضانا لهذا الفكر البورقيبي "الشاذ" وخير دليل على ذلك هو وقوف الفلسطيني محمد علي الطاهر في الصف البورقيبي في كل خلاف ينشب بينه و بين خصومه من أنصار الفكر

---

[1] محمد علي الطاهر ظلام السجن، مصدر سلف ذكره ص ص 871-872

[2] للمزيد من الاطلاع على هذه المسألة انظر خمسون عاما في القضايا العربية مصدر سلف ذكره ص 577 وفيه يروي الطاهر أنه أبرق إلى الملك فاروق بعد اجتماعه في "دار الشورى" بالزعيم الحبيب بورقيبة والزعيم علال الفاسي والمرحوم امحمد بن عبود واتفقوا على ذهاب الزعماء الثلاثة إلى السويس والاجتماع بالأمير الخطابي قصد إقناعه باللجوء إلى مصر

[3] خالد عبيد، مكتب المغرب العربي ..مرجع سلف ذكره ص26

[4] انظر الموضوع محمد الطاهر براهمي: محمد بن عبد الكريم الخطابي في المهجر المصري، ماجستير في الحضارة المعاصرة، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، ك.ع.إ.إ.، تونس، 2005، (غ.م.).

العروبي الإسلامي المغربي مثل الحبيب ثامر ويوسف الرويسي ومن أنصار "الخطابية" وأنصار سلفية علال الفاسي الجديدة.

ولنا في الرسالة التي بعث بها الفلسطيني محمد علي الطاهر إلى الحبيب بورقيبة طالبا منه التدخل في أمر الخلافات الحادة التي نشبت داخل مكتب المغرب العربي بين الشق البورقيبي والشق الثامري وأدت إلى إقفال المكتب بعد كسر باب غرفة الحبيب بورقيبة[1] ، ما يؤكد مدى احتضان الطاهر الحبيب بورقيبة ومدى إخلاصه له رغم التناكر الفكري الحاد بينهما إذ هو لن يقتصر على الوقوف في الصف البورقيبي فيما يتعلق بخلافاته مع المغاربة فحسب بل سينتصر له في خلافاته مع المشارقة حتى عندما يتعلق الأمر بفلسطين ونحن نقصد هنا موقف بورقيبة من القرار الأممي بتقسيم فلسطين سنة 1947 الذي قال "إننا نقبل بقرارات هيئة الأمم التي صدرت سنة 1947 فإن رفضت إسرائيل ذلك أصبح من حق الدول العربية أن تهجم كلها على إسرائيل دفعة واحدة لتنفيذ قرار ملزمة به جميع دول الأرض لإرغام اليهود على ترك ما استولوا عليه بخيانة من جهات عربية معروفة، وإعادة مليون عربي تشردوا إلى أوطانهم"[2]

لم قبل الفلسطيني هذا الكلام الصادر عن الزعيم التونسي في حين رفضه من الساسة المشارقة؟ بل حارب كل من سولت له نفسه إبداء أي استعداد للقبول بهذا القرار الاممي[3] القاضي بتقسيم فلسطين فقد كتب الطاهر في الموضوع: " ومع أن تونس لم تكن موجودة في الدنيا كدولة سنة 1947 وغير مسؤولة عن شيء من الخيانات التي مكنت اليهود مما وصلوا إليه فقد تعهد الرئيس بورقيبة بإرسال جيشه أيضا إلى فلسطين للمشاركة في حرب الإنقاذ"[4] بم نفهم هذا "التفهم" اللامحدود و اللامتناهي للفكر البورقيبي ؟ وهل مرد ذلك إلى أن زعيم الحزب الجديد كان سياسيا عقلانيا يقدر الواقع ذلك أنه لم يبد قبولا بقرار تقسيم فلسطين إلا وهو مدرك جيدا أن إسرائيل لن تقبل بهذا القرار ومن ثم طالب بالتدخل العسكري العربي لاسترجاع أرض فلسطين وهو أمر طالما عمل لأجله العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر وحلم به، لكن السؤال الحقيقي هو هل أن بورقيبة

[1] جليلة المؤدب ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية، مرجع سلف ذكره ص 138
[2] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 335
[3] انظر على سبيل المثال موقفه من الأمين العام لجامعة الدول العربية في الصفحة 228 من كتاب خمسون عاما في القضايا العربية الذي كم سيحاربه الطاهر إلى حين خلعه من أمانة الجامعة العربية من قبل الضباط الأحرار بمصدر إثر ثورة 1952.
[4] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص 335

كان جادا فيما يقول أم انه كان يدرك بدافع من عقلانية وقدرته على قراءة الواقع انه حتى في حال رفض إسرائيل تطبيق قرارات الهيئة الأممية فإن الساسة العرب على الأرجح لن يقبلوا بهذا الأمر. معنى ذلك أن بورقيبة لن يجد حرجا فيما يقول بل إن هذا الكلام عزز في الحقيقة مكانته لدى الفلسطيني محمد علي الطاهر وهذه نقطة أخرى هامة لفهم قبول الطاهر بورقيبة من هنا يصبح الحديث عن أثر الفكر العروبي الإسلامي في ممارسة الطاهر السياسية أو عن مدى توجيه هذا الفكر علاقات الطاهر السياسية بالرموز المغاربة حديثا إشكاليا ذلك أن الباحث إذا توقف عند علاقة الطاهر ببورقيبة لا يكاد يعثر على الشروط التي كان الطاهر يطلبها أساسا للموالاة بل لا يكاد المرء يعثر سوى على تقارب مصلحي نفسي لأن الطاهر حينما يئس من عرب المشرق كما ذكرنا سالفا واتخذ من بعض عرب المغرب قدوة كان في ذلك مساوقا تقريبا للقرار الاممي سنة 1947 نتيجة تأكده من تضييع الساسة المشارقة بلده خصوصا بعد حرب 1948 بين العرب وإسرائيل التي يقول عنها: "واستمرت دوامة الاستعمار تطحن في كيان الفلسطينيين ويخمد الانكليز في أنفاسهم إلى أن استيقظت الدول العربية سنة 1948 أو تظاهرت بالاستيقاظ... وجردت الحسام ظننت أن مهمّتي من هذه الناحية تكون قد انتهت وجاء الدور لأهل العقد والمطل فلا حاجة لأمثالي إلى الكلام بعد أن خطبت المدافع ونطقت البنادق... فإذا بالهدنة الأولى تقع بغتة بتأثير موقف الملك عبد الله في الأردن، وتهديد رئيس حكومته توفيق باشا أبو الهدى المنتصر لمجلس جامعة عزّام باشا بالانسحاب وسحب الجيش الأردني من ميدان القتال، فكانت هذه الهدنة الإجرامية ثالثة الكوارث والمصائب على بقية أهل فلسطين... بعد أن وقعت بين يدي جماعة شرق الأردن وعبثهم، ونوري السعيد ودسائسه، ويوسف ياسين وتهريجه، وعبد الرحمان عزّام... وتضليلاته وكثرة كلامه... وانتهت فلسطين من ذلك الحين"[1]

إن الاستناد إلى القول بفعل الفكر في الواقع التاريخي وإغفال ملامح نفسية الفلسطيني المتأزمة المتضخمة بسبب فقدان الأرض والوطن نتيجة "لامبالاة" الساسة المشارقة يحولان، ما من شك في ذلك دون فهم حقيقي للنوايا وللأبنية الفكرية المستترة

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره ص ص 416-417

خلف علاقة الطاهر بالساسة المغاربة ويمكن للمرء أن يعتبر أن الفترة الممتدة بين 1945-1950 مثلت انعطافا نفسيا و فكريا بالنسبة إلى الطاهر للأسباب التالية.

- التأكد من ضعف الجامعة العربية وعدم قدرتها على حل مشكلة فلسطين منذ السنوات الأولى من تأسيسها

- صدور القرار الأممي بتقسيم فلسطين سنة 1947

- الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1948 التي أدت إلى ابتلاع الصهيونية جزءا من فلسطين وبداية الاعتراف بالدولة الإسرائيلية

وإذا أضفنا إلى هذا العامل النفسي، تزايد الاهتمامات القطرية بتسرب مفهوم "الوطنية" إلى العالمين العربي والإسلامي وما صاحب ذلك من اختلاف في "النظرة الحضارية" لدى الرموز السياسية التي كانت تقود نضال شعوبها فإنه يمكن للمرء أن يفهم بداية تركيز محمد علي الطاهر على "وطنه فلسطين" منذ سنة 1950 إلى حين مماته سنة 1974 أكثر من انشغاله بهواجسه الفكرية ذلك أن هذا المفكر السياسي أدرك جيدا أن تعويله على عمل مغاربي موحد ضد الاستعمار في حل قضية بلاده لم يعد أمرا ممكنا انطلاقا من سنة 1949 فهذا التاريخ مثّل نقطة تحول ومنعرجا هاما لأن بعد "وفاة الحبيب ثامر (13 ديسمبر 1949) تراجع المد المغاربي وهذا ما يفسر تفسيرا كليا انتصار النزعة الانفصالية الإقليمية ونضال كل بلد لوحده: تونس (1952-1955) والمغرب الأقصى (1953-1955) والجزائر (1954-1962)"[1] إن تمكن فكرة "أقلمة" النضال السياسي على حساب "مغربة" النضال السياسي أو مشرقته وأسلمته"[2] تفيد أن القضية لم تعد ترتبط بصراع ضد الاستعمار ورغبة في التحرر من سيطرته فحسب بل كانت كذلك صراعا إيديولوجيا حادا بين تصورات ورؤى للعالم.

ناضلت كل واحدة من هذه الأفكار ضد الاستعمار من ناحية وضد الأفكار الأخرى من ناحية ثانية، ولئن كان هذا الصراع موجودا بطريقة أو بأخرى فإنه قد بلغ أشده في بداية خمسينات القرن العشرين حينما بدأت تظهر بوادر استقلال البلدان في الأفق

[1] محمد المختار ناصري، الحركة الوطنية التونسية بين البورقيبة واليوسفية 1934-1961، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف الدكتور عبد الجليل التميمي، تونس، ك.ع.إ.إ.، 1991، ص ص 57 – 58.

[2] جليلة المؤدب، ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية، مرجع سلف ذكره، ص 122.

و قد عبر الدستوري الجديد يوسف الرويسي عن هذا الوضع العالمي الجديد الذي بدأ "ينهار فيه صرح الاستعمار في آسيا و تتزلزل الأرض بمعاقله الإفريقية وتتحفز بقية الشعوب المغلوبة علي أمرها لاغتنام الفرص التي تخلقها الظروف فتحطم قيود الاستعمار و تفك سلاسل العبودية[1]" وهو وضع يؤكده قرب حصول القطر المغربي ليبيا علي استقلاله سنة 1951.

إن هذا الوضع المبشر بقرب زوال الاستعمار خاصة الفرنسي جعل الرموز السياسية مشغولة بهواجس "الشخصية الحضارية" التي يجب أن يكون عليها كل قطر بعد الاستقلال و يمكن للباحث أن يستنتج ذلك من كلام الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة أثناء وجوده سنة 1951 في تركيا الكمالية إذ صرح قائلا: "فكرت كثيرا في التجربة الكمالية، فلا بد من أخذها أو تركها ويمكن الوصول لنفس النتائج أو إلى نتائج أفضل بوسائل أقل تسلطا تأخذ بعين الاعتبار أكثر روح الشعب[2]" لقد صرح الزعيم الحبيب بورقيبة بهذا الكلام مباشرة بعد خيبة أمل مفاوضات حكومة شنيق سنة 1951 التي شارك فيها رموز الدستور الجديد و هو ما جعل مختلف الرموز السياسية المعارضة للتوجه البورقيبي من تونس (الرويسي و إبراهيم طوبال...) يرون في ذلك خيانة لتونس و للتوجه القومي الذي اقر في ليلة القدر سنة 1946 و مؤتمر المغرب العربي سنة 1947. شأنهم في ذلك شأن الساسة المغاربة خاصة عبد الكريم الخطابي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الساسة المشارقة (الجامعة العربية و الإخوان المسلمون في مصر) فبورقيبة خالف توجهات المؤتمر المبنية على توحيد الكفاح ضد فرنسا ولن يجد نصيرا ضمن الرموز المشارقة سوى العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر.

إن الإشكال الجوهري هنا الذي نعده ذا أثر تاريخي هام وجّه الواقع السياسي نحو تمكن النضال القطري على حساب فكرة نضال سياسي موحد بداية من سنة 1950 هو إذا كانت الأحزاب المغربية المشاركة في مؤتمر المغرب العربي قد اتفقت على توحيد الكفاح المسلح ضد فرنسا فهل كان هذا الموقف السياسي يلائم حقيقة الأحزاب السياسية المشاركة في المؤتمر وهي:

---

[1] الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956 تونس منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، ص95.
[2] محمد المختار ناصري، الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص 55.

- الحزب الدستوري الجديد (تونس)
- حزب الشعب (الجزائر)
- حزب الاستقلال (المغرب)

وهل أن هذه الأحزاب كانت متفقة على موقفها:

1) من الفكرة العربية
2) في علاقة المغرب ببلدانه الثلاثة بالمشرق وبالغرب[1]

إن هذين السؤالين هامان بالنسبة إلى بحثنا لأنهما يتيحان لنا إمكانية تقفي موقف الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر من هذه الأحزاب السياسية من سنة 1950 إلى سنة 1974 إذ من الصعب على المرء إن أراد الحديث عن الحزب الحر الدستوري الجديد أن يجد ما يوحد فكريا وسياسيا بين جميع رموزه (أمثال الحبيب ثامر، يوسف الرويسي وعلي البلهوان والهادي شاكر وصالح بن يوسف والحبيب بورقيبة والهادي نويرة وحتى الباهي الادغم)

فهؤلاء الدستوريون الجدد لئن وحّدت بينهم فكرة الاستقلال فقد فرّق بينهم اختلاف تصوراتهم لما يجب أن تكون عليه تونس المستقلة وهي أساسا مبنية على فهم حضاري لا يمكن إغفاله في طرح المسألة. لذلك يمكن القول إن الحزب الجديد كان ذا وجهين على الأقلّ:

1) وجه قطري وغربي (مثله خاصة الحبيب بورقيبة)
2) ووجه مغربي عربي إسلامي (مثله خاصة ثامر توفي سنة 1949 واستمرت الفكرة ممثلة في يوسف الرويسي ثم صالح بن يوسف)

إن على المرء أن يتوقف طويلا كلما استعاد تاريخ الحركات الوطنية والأحزاب والرموز السياسية إذ أن عددا من المفكرين ما زالوا يفسرون التناكر والخصومات بين زعماء بلاد المغرب بالأحداث التي رافقت استقلال هذه البلدان في خمسينات القرن العشرين ولكنا إذا تأنينا ألفينا أن هذا التناكر يستمد مقوماته من رؤية مخصوصة للعالم إذ ما الذي دفع الشق البورقيبي من الدستور الجديد إلى أن يعدل عن فكرة الكفاح الموحد بين

[1] تم الاستعانة بدروس الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، السنة الثانية من المرحلة الأولى عربية، بعنوان "نظرة بورقيبة وعلال الفاسي إلى التاريخ "، ك.ع.إ.إ.، 2001 – 2002.

البلدان المغربية الثلاثة بعد أن كان قد التزم بتوجهات مؤتمر المغرب العربي إن هذا العدول يتمثل في نظرنا أولا في المشاركة في حكومة شنيق التفاوضية التي تشكلت في 17 تشرين أول سنة 1950 وثانيا في مفاوضة بورقيبة - منداس فرانس الذي تولى الحكم في 18 حزيران سنة 1954 وتشكيل حكومة برئاسة الطاهر بن عمار أدت إلى إعلان استقلال داخلي. وقد عبر عن هذا العدول الدستوري الجديد يوسف الرويسي قائلا:

"إن هذه الظاهرة الغريبة التي تبدو في شكل تحول خطير في الاتجاه القومي في تونس قد أعطت الرأي العام الخارجي صورة غير صحيحة عن مدى انتشار الوعي في تونس وعن صدق نضال حركتها الوطنية وأثارت استياء عميقا في جميع الأوساط الوطنية العربية في المشرق والمغرب على السواء فلم تتمالك هذه الأوساط عن إبداء حيرتها في تفسير الحافز الذي دفع بعض قادة الدستور الجديد إلى التراجع عن خطة النضال المغربي الموحد التي سار عليها الحزب في الماضي إلى الانكماش في حدود القطرية الضيقة... واستجابة لما يحتمه عليّ الواجب كمسؤول [كذا] في قيادة الحزب أعلن معارضتي الشديدة... كل محاولة ترمي إلى ربط تونس بوحدة خارجة عن محيط وحدتها الطبيعية وهي وحدة الأمة العربية".[1] إن كلام يوسف الرويسي الذي بقي على معتقده "الثامري" العروبي الإسلامي يلخص هذا الصراع الحضاري بين الرموز السياسية المغربية وهو يعتبر المشرق العربي قبلة المغاربة الأولى برفضه "ربط تونس بوحدة خارجة عن محيط وحدتها الطبيعية وهي وحدة الأمة العربية" ومن ثم فإن مرجع هذه الرؤية التجربة العربية والإسلامية، أي أن هذا الاتجاه الثامري، الرويسي اليوسفي يتبنى فكرة بناء مغرب عربي ذي وجهة إسلامية تنكر مسألة الخصوصية لذلك رفض بورقيبة فكرة نضال موحد بين بلدان المغرب الثلاثة، لأن ذلك سيؤدي حتما إلى بناء مغرب يكون بعد الاستقلال مرتبطا حضاريا بالقبلة العربية الإسلامية، لأن بورقيبة لا يقول بالفكرة العربية و الإسلامية بل وحتى المغربية إن لم تكن "متوسطية" أفليس هو الذي كان يردّد: "إن الرباط والجزائر وتونس وطرابلس أقرب إلى لشبونة ومدريد وباريس وروما من دمشق وبغداد والرياض"[2] فدمشق وبغداد هما موطنا الفكرة العربية والرياض موطن

[1] الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، مرجع سلف ذكره ص ص 96-98

[2] Paul Balta Le Grand Maghreb, op.cit, p61

الفكرة الإسلامية أما المغرب والجزائر وتونس فهي موطن الفكرة المغربية التي جاءت في حديث بورقيبة مرتبطة بالوجهة المتوسطية، أي الغربية.

إن التجربة البورقيبية مرجعها إنساني و هذا هو أساس الصراع البورقيبي القومي والإسلامي على هذا الأساس شارك الدستور الجديد في حكومة شنيق التفاوضية لإيمانه بأن الغرب قبلته وقدوته في بناء الدولة بعد الاستقلال والمسألة لا ترتبط بمفهوم "الخيانة" كما يفهم هنا خصومه العروبيون الإسلاميون من الدستوريين الجدد بل بإيمان فكري وقد لا يستغرب المرء ذلك حينما يتأمل في ما كتبه قبل الاستقلال: "من المسلمين من ينادون، ردة فعل منهم طبيعية على الغرب وشروره وعاهاته بالعودة اللامشروطة إلى كل ما صنع عظمتنا في الماضي أو بدقة أكثر إلى كل ما كان موجودا زمن عظمتنا الماضية وهم ينادون إجمالا ببعث المجتمع الإسلامي على عهد الخلفاء الأوائل بعثا كاملا، هذا المجتمع الذي يمثل حقا عصر الإسلام الذهبي"[1] إن هذا النص البورقيبي الطويل لا يتضمن فكرة واحدة لم يتضمنها نص فرح انطون الشامي الارتدكسي الذي كتب بعد سنتين من ولادة بورقيبة ما أوجزته العبارة الأنطونية البليغة "إن الأصل لا يقلد مهما كان مقلده مخلصا"[2] على أن ما تجب الإشارة إليه هو أن نص بورقيبة إذا كان تاريخه هو ما قبل الاستقلال أي قبل بداية مفاوضات بورقيبة وحزبه الجديد مع فرنسا وخروجه عن قرارات مؤتمر ليلة القدر 1946 ومؤتمر المغرب العربي 1947 فقد كان مضمونه مبثوثا في كل ما كتب منذ بداية ثلاثينات القرن العشرين ويمكن أن نقرأ له أيضا منذ هذا التاريخ ما كتبه عن الحضارة الغربية وتفضيل الوجه الفرنسي منها:" نحن لا نشجب كل اتصال بالحضارة الغربية هذه المرحلة الرائعة في مسيرة الإنسانية أو بالرجال الذين يعبرون بألق عما فيها من عظمة وجمال غير أننا لا نريد أن يكون التطور... هو ثمن استغلال بغيض ومدمر لإنسانية الإنسان ومناقض لمبادئ العدالة والإخاء اللذين هما قاعدة هذه الحضارة نفسها واللذين إليهما تدين بقوتها وإشعاعها الفريد"[3]

[1] Habib Bourguiba, La Tunisie et la France, Op. Cit., p 267.

[2] محمد الناصر النفزاوي، الدولة والمجتمع، مرجع سلف ذكره، ص 166.

[3] Habib Bourguiba, La Tunisie et la France, Op. Cit., p 56.

إننا نعثر هنا على جوهر الصراع البورقيبي الثامري أولا ثم البورقيبي الرويسي ثانيا ثم البورقيبي اليوسفي بداية من سنة 1955 وهو على مستوى مغربي عين الصراع البورقيبي الخطابي. لقد صرح بورقيبة بعد فشل مفاوضات حكومة شنيق أن وجهة الدستور الجديد ستظل فرنسا إذ قال" بحضور Gry Mollet الكاتب العام للحزب الاشتراكي الفرنسي والسيد غورس... و شارل أندري جوليان و سافاري... "إن موقف الحزب الحر الدستوري التونسي لم يتغير حيث مازال هذا الموقف يرتكز على مبدإ إجراء مذكرات بين تونس و فرنسا مباشرة للوصول إلي استقلال لا تنقطع بسببه علائق الود و التعاون التي يقع الاتفاق عليها بكل حرية بين الطرفين"[1] فهذا الإصرار البورقيبي علي التحالف مع المغرب والارتباط به حضاريا سبب عداء لبورقيبة لا يحد من:

- رموز الدستور القديم
- رموز الاتجاه العروبي الإسلامي في الحزب الجديد مثل تامر، الرويسي، بن يوسف
- من الجامعة العربية التي كانت "مستاءة من تصريحاته المعادية للعروبة أمام الصحافيين الفرنسيين في باريس"[2] سنة 1951
- من الأخوان المسلمين بمصر حيث حاربته صحفهم "وهي قوية آنذاك كانت تشن عليه حملة من أجل أفكاره "المناوئة للإسلام" بتحريض من شيوخ الحزب الدستوري القديم"[3]
- من عبد الكريم الخطابي "على أساس أنه تنكر للوعود التي قطعها على نفسه عند تأسيس جبهة تحرير المغرب العربي"[4]

إن هذا التصور البورقيبي الحضاري بقدر ما باعد بينه وبين التونسيين والمغاربة والمشارقة قرب بينه وبين الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر الذي سيدافع عن توجهات الحبيب بورقيبة وسينصره على خصومه في مختلف خطواته خاصة:

---

[1] محمد المختار ناصري، الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص 54.
[2] محمد المختار ناصري، الحركة الوطنية، مرجع سلف ذكره، ص 59
[3] المرجع نفسه، ص60.
[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

1) في انضمام حزبه إلى حكومة شنيق التفاوضية سنة 1951
2) في تزعمه مفاوضات منداس فرانس 1954 وما ترتب عليها
3) في بناء تونس ما بعد الاستقلال

نقرأ للطاهرفي السياق ذاته سنة 1951 دفاعا عن بورقيبة بسبب ما نشره بعض الدستوريين الجدد من الشق العروبي الإسلامي تنديدا بسياسة بورقيبة "قرأت شيئا في "المنبر" الاغر لكاتب تونسي من القاعدين في مصر عن الجهاد لبلادهم التونسية، يغمز فيه بأساليب ملتوية من قناة زعيم تونس الحبيب بورقيبة المجاهد الشهير وكان ظاهر الكتابة يدل على الغيرة الوطنية وأما باطنها فكان يصرح بالتحامل والحقد ويبخس الأستاذ بورقيبة جهاده وتضحياته وسابقته... لذلك أريد أن اسأل هذا الكاتب الغيور على تونس والساخط على بورقيبة: ألم ينقذك هذا الرجل الذي تتحامل عليه من غربتك في اسبانيا، ويأتي بك وأسرتك إلى مصر ويجعلك أمينا لصندوق مكتب المغرب العربي فكنت أحد أسباب الشقاق الذي فيه ومصدر المتاعب والقلق..."[1] ومما يزيد أمر احتضان الطاهر لبورقيبة اللامحدود غرابة أن هذا الكلام الذي كتبه العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر دفاعا عن بورقيبة رافق تصريحات بورقيبة المعادية للعروبة أمام الصحافيين الفرنسيين في باريس سنة 1951 وكلامه عن تمسك الدستور الجديد بالقبلة الفرنسية بل أكثر من ذلك وأخطر بالنسبة إلى العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر في الوقت نفسه تقريبا الذي أبدى فيه إعجابه بالتجربة الكمالية وإمكانية الاستفادة منها وهي التي تقوم أساسا على العلمانية (بفتح العين) أي فصل الدين عن الدولة وهو أمر لا يقول به التيار العروبي الإسلامي فكيف يقبله الطاهر إذا لم يكن مأتاه بورقيبة؟

إن الطاهر هنا كان ينظر إلى بورقيبة من وجهة نظر "وطنية" أساسا أي انه كان يرى فيه خادما لوطنه، لذلك يقول: "إن الأستاذ بورقيبة رفض منصب رئاسة الوزارة بتونس وترك أسرته وزوجته وغادر أهله ووطنه - الذي هو وطنك أيضا -وانطلق يجوب أنحاء الأرض ويركب الأخطار من تونس إلى أوروبا ثم مصر فجزيرة العرب... ليذيع مظلمة تونس ويرفع صوتها في أرجاء الدنيا وأنت قاعد في دكانك وفي دارك بالقاهرة

[1] محمد علي الطاهر خمسون عاما مصدر سلف ذكره ص 698

تعيش آمنا مستريحا وأولادك أفلا يكفيك هذا؟ إن جميع الجرائد قد نشرت البرقيات والفصول الضافية عن جهاد بورقيبة في سبيل تونس في جميع أنحاء المسكونة وقرأه الناس جميعا، أفلم يصل نبأ هذا الجهاد العجيب الفذّ إلى سمعك غير الكريم أم إنك لم تدر به لأنك "مشغول" بالدكان وجمع المال وتربية الأنجال؟[1]

إن هذا المفهوم ونقصد الوطنية الذي تسرّب إلى تفكير الطاهر منذ خمسينات القرن العشرين هو الذي جعله متسامحا متفهما للتفكير البورقيبي الذي ظل دائما معتدا بخصوصية القطر المغربي التونسي ناشدا له مكانة تحت شمس الحضارة الغربية لا شمس العروبة ولا شمس الفكرة الإسلامية، فهل يبقى بعد ذلك مجال للشك في كون الحبيب بورقيبة غادر سقف "كفاح مغربي موحد ضد فرنسا "لأنه كان لا يقول بما يراه الاتجاه الخطابي أن "المغرب العربي بالإسلام كان وللإسلام عاش وعلى الإسلام سيسير في حياته المستقبلية"[2]

إن هذا التوجه الفكري السياسي للشق البورقيبي ينهض دليلا واضحا على غياب التوافق الفكري والسياسي في الأحزاب المشاركة في مؤتمر المغرب العربي، ولجنة تحرير المغرب العربي، وقد تعزز هذا التوجه سنة 1954، تاريخ قبول بورقيبة الاستقلال الذاتي فأثبت بذلك تهافت:

1) فكرة مغربية تتجه وجهة عروبية إسلامية لا تراعي الخصوصية المغربية.

2) مسعى "حزب الاستقلال المراكشي" الذي نهج لنزعته الملكية المحافظة نهج مناصرة ذوي التوجه العروبي الاسلامي[3] وكذلك الشأن بالنسبة إلى "حزب الإصلاح الوطني" المغربي بقيادة عبد الخالق الطرسي الذي بدأت بذور الفرقة بينه وبين بورقيبة بداية من هذا التاريخ وستتواصل إلى ما بعد الاستقلال ولسوف يقف الطاهر منها موقف المناصر للحبيب بورقيبة فرغم كل ما ذكرنا بقي الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر محافظا على ولائه لزعيم الدستور الجديد، كان من المدافعين عن الاتجاه البورقيبي التفاوضي مع فرنسا إذ كتب محمد علي الطاهر مقالا بعنوان "زعيم تونس

[1] محمد علي الطاهر خمسون عاما مصدر سلف ذكره ص 698.
[2] جليلة المؤدب ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية مرجع سلف ذكره ص 136
[3] محمد الناصر النفزاوي في دروس ألقاها بجامعة 9 أفريل تحت عنوان "نظرة بورقيبة وعلال الفاسي إلى التاريخ السنة الجامعية 2001-2002

الحبيب بورقيبة بين الدسائس والحسد وأولاد الحرام" بعد زيارة منداس فرانس تونس في 31 جويلية 1954 كان هدفه:

1) دفع شبهة "الخيانة" التي رماه بها أنصار الاتجاه العروبي الإسلامي من الحزب الجديد (يوسف الرويسي و صالح يوسف) وإثبات وطنيته إذ يقول: "نشرت مجلة تصدر في بلد عربي أشياء عن تونس وزعيمها الأستاذ الحبيب بورقيبة اشمأزّ منها كل مخلص للعروبة، فقد حاولت المجلة المشار إليها تشويه جهاد السيد بورقيبة والتشكيك فيه إلى درجة اتهامه بالخيانة... أيها التونسي الذي لم تظهر اسمك ودسست على المجلة "الفلانية" ذلك الخبر الملفق على الأستاذ الحبيب بورقيبة الزعيم التونسي المجاهد الأسير ونسبته إلى جرائد باريس لتتهمه بالخيانة... فأنت تعرف وتعلم وترى بعينك أعماهما الله أن الحبيب بورقيبة يتعقبه الاستعمار منذ عشرين عاما بالسجن والتشريد... والتعذيب."[1]

سعى الفلسطيني كذلك إلى بيان أن بورقيبة لا يخدم غير بلاده وأن له حسا وطنيا حادا ومن يقرأ بترو جميع كتابات الطاهر المتعلقة ببورقيبة يمكن أن يتبين في مواضع كثيرة أن السياسي التونسي ما كان أن ينال مثل هذه الحظوة من الطاهر لولا إيمان الفلسطيني بشدة تعلق زعيم الحزب الجديد بالخصوصية التونسية وخدمتها وإن كان ميالا إلى ربط تونس بقاطرة الحضارة الإنسانية يقول الطاهر: "إنك قرأت في الصحف الفرنسية والعربية واطلعت على البرقيات الواردة من باريس نفسها أن الفرنسيين طلبوا منه وهو أسيرهم في جزيرة جروا أن يستنكر قتل التونسيين للفرنسيين في تونس، فأبى الزعيم السجين وقال لهم بكل جرأة أن هذا حق التونسيين مع من يعتدي عليهم، ولما نسب إليه أنه لا يهمّه إلا الحكم نفى ذلك ساخرا من منطقهم ثم لما عرض عليه أن يتولى رئاسة الوزارة رفض تولي الحكم إلا بشروط، وهاهي الوزارة قد تألفت في تونس برئاسة شخص آخر"[2] [ويقصد الطاهر بن عمار]

2) الدفاع عن اتجاه بورقيبة التفاوضي مع فرنسا إذ يقول: "إن مصر مع ضخامة إمكانياتها والتي عدد سكانها أكثر من خمسة وعشرين مليونا وهي أقوى سلاحا من تونس بعدة مرات لا تزال تتفاوض مع الانجليز منذ ستين عاما فهل من العيب أن تتفاوض تونس

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما مصدر سلف ذكره ص 300
[2] المصدر نفسه الصفحة نفسها

مع فرنسا أسابيع؟ إن ما يقرب من ربع سكان تونس هم من الفرنسيين والطليان واليهود والمالطيين والإسبانيين واليونانيين إلخ، وكلهم مسلّح لتقتيل التونسيين حرصا على ما في أيديهم من غنائم، فإذا كانت فرنسا والجاليات الأجنبية في تونس قد رضوا بعد 73 عاما بمفاوضة التونسيين الذين يكاد الاستعمار يبيدهم، فالحمد لله إذن على صلابة التونسيين وشكرا للظروف التي أرغمت أولئك المستعمرين الآلهة على النزول من عالمهم العلوي إلى عالمنا الأرضي السعيد."[1] إن هذا الشاهد الطويل دون غيره يدلّ على "إيغال الطاهر في الواقعية" ذلك أنه انطلق في تبريره قبول بورقيبة التفاوض مع فرنسا من "قيمة العدد سوسيولوجيا" في إحداث كل تغيير، إضافة إلى ذلك يبدو الفلسطيني أكثر تقديرا للواقع ولموازين القوى في تعامله مع قضايا بلاد المغرب في حين أن موقفه لم يكن كذلك إذا تعلق الأمر بالمشرق.

إن انحياز الطاهر للمطالب الوطنية البورقيبية لن يقف عند هذا الحد إذ سيبلغ به سخطه على الاتجاه المعارض[2] درجة يغالي فيها أحيانا عندما يرسم صورة زعيم الحزب الجديد فيسمه أحيانا بـ"صقر العروبة"[3] وأحيانا أخرى "بالبطل النادر" على نحو ما يفعل "التاريخيون العقلانيون" إيمانا منهم "بالفرد الخلاق" وبالرمز الفاعل في التاريخ إذ يقول: "إن مثل بورقيبة البطل النادر المثال الذي يستحق التقدير والتحية والدعاء لا نسمح لأحد بانتقاصه بكلمة... وأخيرا فإني أبعث إلى الحبيب بورقيبة وهو في منفاه بباقة من الورود والنسرين، مصحوبة بالدعاء من أعماق القلوب بأن يوفقه الله في المفاوضة مع فرنسا."[4]

لا يتحرج الطاهر في المقابل من وصف منتقدي بورقيبة بعبارات قاسية إذ يقول: "أيها التونسي المزعوم المخلول... وأغلب ظني أنه فرنسي يهودي خبيث يتربص بتونس الدوائر ويدبر للتونسيين الشقاق، وإلا لكان قد أظهر نفسه أو أذاع دسيسته في تونس نفسها وأعلن للتونسيين اسمه، ولكنه لن يستطيع، لأنه غير معروف عند أمته وغير معروف في القافلة، لا عند الناس ولا بين الحيوانات... فيا أيها الخبيث اللئيم المنسوب إلى تونس كذبا

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما مصدر سلف ذكره ،ص 301.
[2] انظر خمسون عاما، المصدر نفسه، ص 711، حيث يتعرض المقال نفسه إلى يوسف الرويسي.
[3] انظر خمسون عاما، المصدر نفسه، ص 916.
[4] المصر نفسحه الصفحة نفسها.

بعد أن نجوت بنفسك وفزت بجلدك وتركت مواطنيك يذبحون هناك وهربت إلى القاهرة... هل تظن أن خروج فرنسا من تونس سهل إلى هذه الدرجة التي تتخيلها."[1]

لقد بذل الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر كل ما في وسعه من أجل إثبات وطنية بورقيبة وعقلانية توجهه التفاوضي مع الاستعمار اللتين أدّتا إلى حصول تونس على الاستقلال الذاتي في عهد حكومة ادغار فور المقامة على أنقاض حكومة منداس فرانس هذه الاتفاقية التي ستعمق الهوة بين:

1- الاتجاه البورقيبي والاتجاه العروبي الإسلامي داخل الحزب الجديد (أدت مفاوضات حكومة شنيق إلى تناكر بورقيبة والرويسي كما أدت مفاوضات 1954 إلى حصول الصراع البورقيبي اليوسفي المعروف).

2- بين بورقيبة وحزب الاستقلال المغربي (علال الفاسي).

3- بين البورقيبية والناصرية أي بين الوطنية والعروبية.

لقد سبق أن تناولنا بالتحليل الصراع البورقيبي الرويسي الذي بدأ سنة 1951 بشكل واضح إذ أن مفاوضات حكومة شنيق أظهرت هذا الصراع للعيان مثلما هو شأن مفاوضات بورقيبة – منداس فرانس التي أبانت للعيان الصراع البورقيبي - اليوسفي الذي بلغ أشده بوقوع الحرب الأهلية التونسية في منتصف خمسينات القرن العشرين بضحاياها الألف أي أكثر من ضعف من سقطوا أثناء مقاومة فرنسا بين 1952 – 1954 وهم أربعمائة[2] إن الباعث لهذه الحرب الأهلية ولهذا التناكر البورقيبي اليوسفي هو امتداد لما كان يحرك الصراع البورقيبي الثامري في مرحلة أولى ثم الصراع البورقيبي - الرويسي في مرحلة ثانية.

نكتفي في هذا المستوى بدراسة موقف الفلسطيني محمد علي الطاهر من هذا الصراع أكثر من تركيزنا على الخصومة، التي كان للخطاب الذي ألقاه صالح بن يوسف في 6 أكتوبر سنة 1955[3] أثر هام في تأجيجها تأجيجا لن يخمد إلا باغتيال صالح بن يوسف في ألمانيا سنة 1961 بأمر من بورقيبة حسب اعترافاته العلنية.

---

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما مصدر سلف ذكره، ص916

[2] محمد الناصر النفزاوي، "في الحبيب بورقيبة والحبيب ثامر ومن بينهما"، الطريق الجديد، لسان الحزب الشيوعي التونسي، عدد 10، نوفمبر 2002.

[3] الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، مرجع سلف ذكره، ص 119

"يقول صالح بن يوسف "أيها المؤمنون، أحييكم من هذا المسجد [يقصد جامع الزيتونة] الإسلامي العظيم الذي كان ولا يزال يشع منه نور الإسلام الخالد وفي هذا المحراب التاريخي الذي ينطق كله مجدا وعروبة وإسلاما... تحية... قد حملني إياها إخوانكم العرب والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من مصر إلى ليبيا إلى الشام إلى بغداد... إلى يثرب مدينة الرسول الأعظم... إن أولئك الإخوان العرب المسلمين... يهيبون بكم أن تكافحوا، وأن تضحوا بكل عزيز غال لتحرير هذه الأرض التونسية تحريرا كاملا شاملا ويتحرر المغرب العربي كله من ربقة الاستعمار الفرنسي البغيض وحتى تبقى أرض المغرب العربي أرضا عربية مسلمة يهيبون بكم أن تشدوا بعضكم... وتقفوا صفا واحدا متراصا لتحطيم هذه الاتفاقيات."[1]

إن هذا الخطاب يكشف حقيقة ما جد في منتصف خمسينات القرن العشرين مما يتصل بالتباعد بين النظرة البروقيبية والنظرة اليوسفية "الجديدة" وفيما سبق نتبين:

1- أن صالح بن يوسف يرى أن "شخصية" تونس عربية وإسلامية.

2- أن "أرض المغرب" أرض عربية مسلمة.

3- أن موقف تونس وبلاد المغرب من التحالفات العالمية لا يمكن أن يتجاوز إلى غير "الشام" و"بغداد" و"مصر" مواطن الفكرة العربية و"يثرب" موطن الفكرة الإسلامية.

ومن الواضح أن مثل هذا الموقف يعارض موقف بورقيبة الذي كان يرى "أن الرباط والجزائر وتونس وطرابلس أقرب إلى لشبونة ومدريد وباريس وروما من دمشق وبغداد والرياض." ففي أي صف وقف الطاهر؟ يبدو أن الطاهر تناول المسألة لا من خلال الناحية النظرية ولكن من خلال ما تكون عنده من أفكار حول الخصمين بورقيبة وابن يوسف إذ يقول عن الرويسي نصير ابن يوسف: "ذكر ملفق المقال [يقصد يوسف الرويسي] أن صالح بن يوسف قد عارض السيد الحبيب بورقيبة في عقد اتفاقية آذار "مارس" سنة 1956 وإنها تعتبر تونس من نوع "الكومنولث" مع فرنسا تقريبا – أو أنها "كومنويلث" - ومع أن هذا كله غير صحيح، فالذي يعرفه الناس هو أن صالح بن يوسف

[1] الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص 116.

قد وافق على ما دون ذلك بكثير جدا ولأنه حبذ قبل ذلك اتفاقية السيد الطاهر بن عمار مع منديس فرانس... ولما نوقش السيد صالح في ذلك قال يومها إن ظروف الثورة بتونس وانهيار جبهة المقاومة من الداخل جعلتنا نرضى بهذا القليل لنظفر في المستقبل بالكثير... ودافع عنها بحضوري وفي مكتبي بالقاهرة... أما ما حصل عليه بورقيبة فهو "استقلال تونس"[1]

لم يكن العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر متحفظا إزاء النهج البورقيبي في رؤيته المخصوصة لبلاد المغرب رغم أن هذه الرؤية قوبلت برفض العروبيين الإسلاميين، ومن الإسلاميين وحتى العروبيين، بل إن الطاهر دافع عنها بلا قيد متحللا من كل المبادئ الفكرية منسجما انسجاما غريبا مع الواقع التاريخي ونظرة بورقيبة إلى القضايا، إذ يقول مدافعا عن تصور بورقيبة بلاد المغرب "ونعى الكاتب الجاهل [يقصد يوسف الرويسي] على بورقيبة قيامه بربط الأوشاج بين تونس والمغرب وبين تونس وليبيا وإنه يسعى من وراء ذلك إلى ضم هذه المجموعة مع الجزائر إلى (كومنويلث فرنساوي) فهل صحيح أن بورقيبة إن استطاع إنقاذ الجزائر وقدر على دمجه في تلك الكتلة المغربية التي يسميها بورقيبة (المغرب العربي الكبير) يكون قد أخطأ؟ وإنه بذلك سيبعد المغرب عن العالم العربي؟... وماذا على الكاتب المسكين في تلقيب تلك المجموعة بأنها (المغرب العربي) فليست كتلة مغربية حقا؟ أم أنه في منطقه يحب تسميتها بالمغرب الشرقي؟ فإن كان كذلك فلماذا يلقب الكاتب نفسه بأنه مدير مكتب المغرب العربي بدمشق؟"[2]

يبدو تفكير الفلسطيني محمد علي الطاهر في هذا الشاهد ضبابيا إلى أبعد الحدود إذ كيف يقبل هذه الرؤية البورقيبية التي استبدلت المفاهيم التي بنى عليها الطاهر منطق العلاقات والتحالفات بمنطق بورقيبي لا يقول بـ"الأخوة في الدين بل بمفهوم المواطنة الذي هو مفهوم أينع في التربة الحضارية الغربية شأنه في ذلك شأن فكرة المساواة، أو

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 711 – 712.
[2] المصدر نفسه، ص 714.

الديمقراطية أو الحرية أي هو مفهوم رأسمالي تشم منه رائحة الجمارك، تبادل السلع ، والمال بصفة عامة."[1]

إن هذه النقطة سوف تكون محور الصراع بين تونس البورقيبية ومصر الناصرية ودمشق القومية والرياض العروبية الإسلامية و نقصد بين الفكرة الوطنية ممثلة في بورقيبة وما عداها من الأفكار. ذلك أن هذا الصراع ولئن اتخذ أشكالا مختلفة فإن جوهره لا يعدو أن يكون صراعا حقيقيا بين هذه الأفكار في خمسينات القرن العشرين. وعلى المرء أن يتذكر دائما ما كان الحبيب بورقيبة يردده باستمرار من أن "الرباط والجزائر وتونس وطرابلس أقرب إلى لشبونة ومدريد وباريس وروما من دمشق وبغداد والرياض"، يقول الفلسطيني محمد علي الطاهر: "إن علاقة سورية بتونس منذ تحررها وقيام استقلالها سنة 1956 لم تكن علاقة صافية، بل كانت من أول أمرها متخبطة... لأن غفلة حكام تلك الأيام جعلت العلاقة مع تونس... مبنية على الاستخفاف بمدارك التونسيين واستجهالهم، حيث بعث إليهم حكام سورية... بسفير غير صالح لتلك المهمة في تونس بالذات، فأبى رئيس الوزراء بورقيبة قبول ذلك السفير... وإذا بسورية إذ ذاك تبعث لتونس سفيرا أسوأ، فلم يسع الرئيس بورقيبة (الذي أصبح رئيسا للجمهورية) إلا قبول السفير الثاني حسما للشقاق والنكد، وأرسل إلى سورية بأواخر سنة 1957 سفيرا يعد من أكفأ رجاله هو الحبيب الشطي... فإذا بحكام سورية يتركون السفير الضيف السيد الشطي يتجمد في الفندق... ليستقبلوا صالح بن يوسف الهارب من حكم الإعدام بتونس لتآمره على رئيس جمهوريتها الحبيب بورقيبة، بل ويسمحون له بمقابلة رئيس الجمهورية السورية والسماح له بعد ذلك بعقد مؤتمر صحفي بدمشق يطعن برئيس جمهورية تونس."[2]

إنه يستحيل على المرء أن يفهم هذا الشاهد بمعزل عن صراع الأفكار وتناكرها ذلك أن بلاد الشام والعراق من المناطق العربية السباقة إلى الفكرة العربية بل هما منشأ هذه الفكرة لما عرفا به من تنوع عرقي وديني ومذهبي وطائفي فكان تبني الفكرة العربية سبيلا إلى تذويب الصراع السياسي المتولد عن هذا التنوع الطبيعي كما أن

[1] محمد الناصر النفزاوي، حوار الحضارات وتأثير أحداث 11 أيلول سبتمبر 2001، القدس العربي، مقال سلف ذكره.
[2] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 336.

العروبية تنفر من انقسام العالم العربي إلى عدد كبير من الدول وهو انقسام ترى فيه واقعا استعماريا، وعلى العكس من ذلك نجد الفكرة الوطنية ممثلة في الدولة البورقيبية التي إن كانت شأنها شأن الفكرة العربية تتميز بنظرة حديثة إلى العالم فهي تنفر من هذه الوحدة العربية التي لا تراعي خصوصية كل قطر عربي على هذا الأساس استمر الصراع بين تونس البورقيبية و"دمشق" القومية العروبية وفي ذلك يقول محمد علي الطاهر: "إن بعض حكام سورية سنة 1965 كانوا أشد حمقا وغباء من أسلافهم سنة 1957 حيث ضلّلوا وزير القصر الجمهوري التونسي وأخذوا موافقته على أن تكون زيارة الرئيس بورقيبة لسورية في الأسبوع الذي يصادف 8 آذار – مارس 1965 بين أيامه، وحدوده على أنه يوم عيد استقلال سورية، وهو حادث تاريخي معروف مشهور فوافق الجانب التونسي على ذلك بدون أن يدري أن حكام سورية يقصدون يوم انتصار جماعة حزبهم البعث المنتصر على السوريين من حكامها وليس 8 آذار سنة 1920 المعروف عنه أنه عيد سورية التاريخي الذي أعلن فيه المؤتمر السوري العام بدمشق استقلال سورية... وتصادف أن حاكم سورية... قد باح بالحقيقة أمام السيد محمد المنصف الصخيري نائب سفير تونس بدمشق... إذن فهناك غش وهناك فخ نصب لتونس، يجعل رئيسها كمن تعمد الانحياز إلى فريق من السوريين اغتصب الحكم في سورية... لذلك اقترح الرئيس بورقيبة تغييرا في أيام زيارته لدمشق... فإذا بالحاكمين يغضبون ويسخطون ويأبون تعديل شيء من أدوات الفخ المنصوب... فانفلتوا يسبون بورقيبة الذي لم يجد بدا من قطع علاقاته مع حكومة تقوم بسببه وشتمه."[1]

إن إصرار حكام سورية على حضور بورقيبة احتفالات حزب "البعث" الآخذ بفكرة القومية العربية ورفض بورقيبة ذلك دليلان قاطعان على شدة التباعد بين فكر مرجعه الإنسانية أوالبشرية وآخر مرجعه كل ما هو عربي. لذلك فإن على المرء أن يتوقف طويلا كلما اعترضه مغربا ومشرقا خلاف سياسي بين الدول العربية بعد الاستقلال أي في منتصف خمسينات القرن العشرين، وضمن هذا الإطار يمكن أيضا أن ننزل كذلك الصراع بين تونس البورقيبية ومصر الناصرية محضن الفكرة العربية

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص ص 336 – 337.

ونقصد ما حصل سنة 1958 أثناء اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية بالقاهرة كتب محمد علي الطاهر: "قال حسونة باشا: ولكن (صاحبك الرئيس بورقيبة) لا يزال مصرا على عدم حضور اجتماع اللجنة السياسية وعلى القطيعة أيضا، وكل ذلك بسبب الضجة التي عملها بمصر سفيره الحبيب الشطي... فقلت للأمين العام إن قصة الشطي الحقيقية كلنا نعرفها، برغم كونها كتمت بالضجيج المصطنع المبيت الذي تلقنه وقام بتمثيله السيد عبد الحميد غالب رئيس الوفد المصري في مجلس الجامعة يومها، وثورته المفتعلة في تلك الجلسة... ولكن هناك مسألة أخرى كانت تكمن بين كلام السفير الشطي وثورة السفير غالب، وهي قصة التجاء صالح بن يوسف... فحكاية هذا الرجل وجعلها سببا لكل هذا الذي جرى إنما يكمن وراءه شيء آخر أيضا."[1]

لقد رأينا سابقا صراع الوطنية البورقيبية ضد الفكرة العربية في شكلها "البعثي" السوري ونحن هنا نقف على وجه آخر من وجوه الصراع البورقيبي ضد الفكرة العربية في شكلها الناصري وبما أن لكل فكرة دعاة مدافعين عنها فإنهم يمتطون كل مناسبة لبيان أن فكرتهم هي سيدة الأفكار إذ لا يمكن أن نفهم ما حصل بين السفير التونسي "الحبيب الشطي" وسفير مصر "عبد الحميد غالب" الذي أدى إلى خلاف بين بورقيبة وجمال عبد الناصر وقطع العلاقات بين تونس ومصر إلا ضمن هذا الإطار، إذ أنه كلما تقدمنا في فترة الاستقلال تناكرت الأفكار وتباعدت الأقطار للاختلاف بين الأنظمة فكريا وسياسيا فكان الصدام بين الأحزاب السياسية من ناحية والأقطار من ناحية أخرى، خاصة إذا علم المرء أن تلك الفترة ميزتها غلبة الفكرة العربية، لذلك وجب على الباحث مراعاة هذه الخلافات الفكرية أساسا دون التوقف طويلا عند ظاهر الخلافات بين الأقطار مثل قضية لجوء صالح بن يوسف أو خلاف بين سفير وآخر فالمسألة أعقد من ذلك بكثير.

وقد يزداد الأمر وضوحا إذا تأمل الباحث نص الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر المعنون بـ"حقيقة ضجة الشطي أو الطريس" إذ كتب: "إن ضجة الشطي التي كان يجب أن تسمى بضجة الطريس لأن الذي أوجد هذه المفسدة وتسبب

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، ص 309.

فيها هو الشيخ عبد الخالق الطريس سفير المغرب بالقاهرة، وخلاصة ما وقع أن سفير تونس الحبيب الشطي وهو سفير مغربي قد تذاكر قبيل الجلسة بصورة خاصة مع الطريس السفير المغربي في أمر مغربي يهم سفيرين من المغاربة... فأطلع الشطي زميله الشيخ الطريس على نص كلمته التي سيلقيها في مجلس الجامعة، كما أطلعه على مذكرة الشكوى الرسمية التي سيقدمها ثاني يوم إلى المجلس فإذا بالطريس يغدر بزميله الشطي ويركض إلى السيد عبد الحميد غالب... ويحذره من خطاب الشطي... ويقول له إن هذا سيتعرض لمصر والجمهورية العربية... ولذلك وقعت الضجة ولكن أصلها... الطريس."[1]

إننا إزاء صراع فكري سياسي حقيقي بين الفكرة الوطنية ممثلة في الدولة البورقيبية.

- والفكرة العربية ممثلة في دمشق والقاهرة.
- والفكرة المغربية الميالة إلى التحالف مع المشرق العربي ممثلة في حزب الإصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق الطريس.

كتب محمد علي الطاهر مخاطبا عبد الخالق الطريس: "لأنك كنت السبب الحقيقي في العداوة المغربية أو القطيعة التي تسببت أنت بها بين الحكومة المغربية وبين تونس وكان ذلك منك للنكاية بشخص رئيسها الحبيب بورقيبة الذي كنت أعرف أنك تحمل له منذ القديم حسدا لا يد له فيه، سوى أنك في أيام مكتب المغرب العربي بالقاهرة وهو فيها يجاهد، كنت أنت تحمل له عداء مكبوتا نشأ عن تفوقه وعن تخلفك، وهذا لعمري شر أنواع الحقد الذي يمليه الغرور على بعض العقول... لأنك مهما تنفخت وتنفجت، ومهما نفشت من ريشك الواهن، فلن تستطيع اللحاق بموكبه، ولا أن تصل إلى ذرات غباره، ولا أن تلحق في سماء عليائه... بل إن حقدك على بورقيبة قد ظهر على أتمه يوم تسببت في تسميم جلسة جامعة الدول العربية سنة 1958 في القاهرة بذلك الشقاق المؤلم الذي أوجدته بدسائسك وسوء فعلك بين مصر وتونس."[2]

إننا نتحفظ إزاء ما أورده الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر عن حقيقة

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص ص 930 – 931.
[2] المصدر نفسه، ص 293.

عداء الطريس لبورقيبة، الذي اعتبره عداء شخصيا يرقى إلى فترة نشاط الزعماء المغاربة داخل مكتب المغرب العربي، ذلك أن المسألة ترتبط في تصورنا بما هو فكري بالأساس، إذ أنه بإمكان المرء أن يستعين بشهادة المناضل التطواني المغربي امحمد بن عبود (ت 1949) لفهم التوجه الإيديولوجي لعبد الخالق الطريس إذ كتب ابن عبود عن تضامن الحركة الوطنية في تطوان مع العالم العربي الإسلامي: "برز هذا التضامن على مستوى التعليم الحر بتطوان ذلك أن تأثر رواده بالنهضة العربية والسلفية واضح. أذكر منهم الحاج عبد السلام بنونة والفقيه محمد داود وعبد الخالق الطريس وسيدي التهامي الوزاني والشيخ المكي الناصري... لقد كان التضامن العربي الإسلامي واضحا في تطوان على النطاق السياسي ويظهر هذا بوضوح في اتجاه الأحزاب وعلى رأسها حزب الإصلاح الوطني."[1] بزعامة عبد الخالق الطريس الذي درس بالقاهرة، من هنا كان بديهيا أن يكون متأثرا برواد النهضة العربية والسلفية، ميالا إلى المشرق العربي ، على العكس تماما من بورقيبة .

لا يجب على المرء أن يستغرب صعوبة التعايش بين الطريس وبورقيبة ويمكننا أن نضيف نقطة أخرى أهم فرقت بين الرمزين، لأنها عنصر ضروري في تربة الحياة السياسية ونقصد تصور الطريس وبورقيبة شخصية مراكش وتونس ومن ثم بلاد المغرب. إنه التناقض الفكري الفعلي الكامن خلف هذا التصور، ونحن لن نكرر هنا التصور البورقيبي بل نكتفي بإيراد نظرة عبد الخالق الطريس التي ننزلها في ما كتب امحمد بن عبود عن "اعتناق" زعماء الحركة الوطنية المغربية خلال الأربعينات مبادئ القومية العربية يظهر هذا على مستوى الخطاب السياسي والممارسة السياسية معا."[2] لذلك فإن عداء الطريس لبورقيبة لا ينبع إلا من تناكر فكري مناطه ارتباط بلاد المغرب في نظر الطريس بالمشرق العربي وهو أمر لا يقول به الزعيم بورقيبة كما أسلفنا الذكر.

[1] امحمد أحمد بن عبود، "تطوان ومكتب المغرب العربي، "مقال ورد ذكره في كتاب" تطوان في عهد الحماية"، مرجع سلف ذكره، ص 126.

[2] المرجع نفسه، ص 134.

إن الواجب يدعونا أيضا إلى البحث عن الجانب الخفي الذي أوقد شرارة نفور الطاهر من الطريس وانتصابه مدافعا عن بورقيبة، يقول العروبي الإسلامي: "إن المجاهد الأكبر بورقيبة عندما أعطاه الله استقلال بلاده بعد جهادها، كان الوفاء أول شيء برز من شمائله فقد فكر قبل كل شيء في إخوان الجهاد القدماء، والذين وقفوا معه ومع بلاده فأخذ يتصل بهم ويجاملهم ويدعوهم لزيارته ويكرمهم... وأما أنت... فإن التنكر للأصدقاء والأولياء كان أبرز ما صدر عنك... والدليل على ذلك انك لم تتنازل إلى الرد على التحية التي أرسلتها إليك أنا بالتهنئة بما أفاء الله على المغرب وعليك، لأنك اعتقدت أن العرفان يكلفك شيئا من مقامك الذي ظننته يعلو إن تنكرت لفضيلة العرفان والوفاء."[1]

نود أن نتوقف في هذا المستوى من البحث عند مسألة لا يمكن إغفالها في طرح علاقة الطاهر بالساسة المغاربة منذ أواخر خمسينات القرن العشرين إلى سنة 1974 أي منذ بدء موجة الحركات الاستقلالية في العالمين العربي والإسلامي إلى تاريخ مماته، ونقصد مسألة "تضخم نفسية الطاهر بشكل يلفت الانتباه، فقد ملأ هذا التضخم حياته وشغل تفكيره، بشكل أضحت معه ممارسته السياسة مثقلة بنفسيته فكان سبب موته يقول الكاتب السوري زهير ماردني: "قال الطبيب لقد تضخم القلب حتى غطى على الرئة المثقوبة ... أي قلب يحمله هذا الرجل؟"[2]

ويمكن للمرء أن يعدد أسباب هذا التضخم النفسي ومنها ما لقيه الفلسطيني العروبي الإسلامي من الحكومة الناصرية التي ضيقت على الطاهر ومنعته من إعادة جريدته "الشورى" بل رفضت ممارسته أي نشاط سياسي بالقاهرة مما اضطره إلى مغادرة القاهرة نحو دمشق فارا بفكره ولا عجب من ذلك فمصر الناصرية تمثل وجها من وجوه الاتجاه العروبي، والطاهر كان عروبيا إسلاميا خاصة إذا علم المرء أن هذا قد حصل في فترة "عبد المجيد محيي الدين وزير الداخلية"[3] آنذاك الذي كان معاديا للتيار الإسلامي وللإخوان المسلمين كتب ممدوح حقي في هذا الصدد:

---

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 293.
[2] المصدر نفسه، ص 38.
3 لمصدر نفسه، ص 270.

في رياسة الوزراء

وفي منتصف يوليو ـ تموز ١٩٥٦ كنا في ضيافة الرئيس بورقيبه بتونس زرته في مكتبه برياسة الوزراء ، وها هـو حفظه الله يرحب بي ويكرمني ويتقدم لي من اعماق قلبه ، بعد ان حرمه الاستعمار هذا الابتسام طول ايام شبابه التي قضاها في السجون والتشريد والتنقيل والزمان ، ولكن المولى سبحانه لم يرجع ثوابه ، بل عجل له تحقيق استقلال تونس ، مستجيبا لجهاده المخلص المثمر ، ولذلك نجح وانتصر

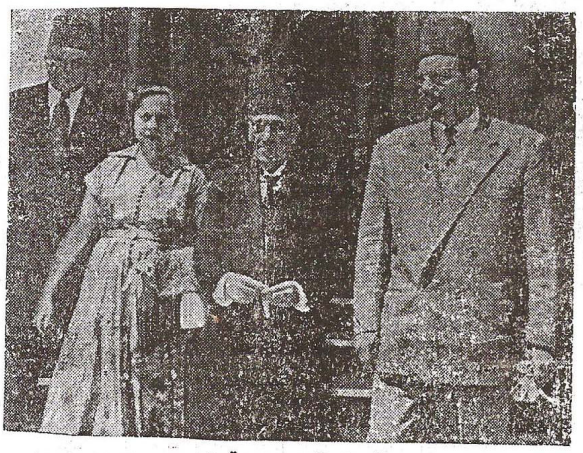

الى دار الزعيم بو رقيبه
منتصف تموز (يوليو) ١٩٥٦

محمد علي الطاهر وقرينته ينطلقان من الفندق الى منزل الزعيم بو رقيبه لاول مرة ، وقد وقف الى الخلف الاستاذ محمد بدره من كبراء تونس ، والى جانبها السيد حمادي البحري رئيس التشريفات .

محمد علي الطاهر، رسائل بورقيبةإلى صديقه محمد علي الطاهر، بيروت، 1966.

"استدعته إدارة المخابرات المصرية على شكل غير مستحب وطلبت منه الكف عن أي نشاط سياسي وفي ذلك تجاهل لجهاده مع تقييد لحريته أيضا، ثم استدعته مرة ثانية بواسطة البوليس السياسي وطالبته بمنع طلبة فلسطين من زيارته. ثم وضعوا عليه الرقابة بشكل ظاهر فقد كانوا يراقبون زواره وهاتفه ويفتحون رسائله البريدية... لذلك لم يجد أفضل من الابتعاد عن القاهرة... وأخذ يفكر في السفر إلى سورية ولبنان."[1]

فهل يمكن القول إن من بين أسباب انتصار الطاهر للبورقيبية في خلافها مع الفكرة العربية ممثلة في الناصرية عداء القومية الناصرية للإسلاميين وللعروبين الإسلاميين ومن بينهم محمد علي الطاهر؟ وهل كان ذلك أيضا من الأسباب الفاعلة في توجيه نظره أكثر إلى القبلة المغربية كلما ضاقت به أرض الفكرة العربية؟

إن هذا الواقع ينم عن حيرة حقيقية في نفس الفلسطيني سيعمقها تمرد ساسة دمشق خصوصا البعثيين منهم على العروبي الإسلامي مما سيجعله يصرح بيأسه الكامل والنهائي من السياسة والساسة في المشرق إذ يقول: "خلاصة القصة إن عصابة السلطان عبد الحميد البكباش السراج ما كانت تنظر لي بارتياح لشعورها بسوء رأيي فيه وفيها...فأرسلت لي أحد رجالها... ليشتمني بساحة المرجة في منتصف دمشق أمام الناس، ويقول لي على رؤوس الأشهاد إن لم تخرج من سورية فورا فأنا مكلف بإخراجك بالقوة والإهانة والبهذلة... كان ذلك في منتصف سنة 1957".[2]

لقد عاش الطاهر "على قلق كأن الريح تحته" توجهه من بلد إلى بلد آخر كما عاش بلا أرض ولا وطن في زمن لا حديث فيه عند المثقفين والرموز السياسية صباح مساء سوى عن الوطن والوطنية فلا غرابة إذا في أن يصفه طه حسين "بالغريب"ولا غرابة في أن يقول عنه ممدوح حقي: "كان حاله كحال من يقول:

وكنت كالمتمني أن يرى فلقا من الصباح فلما أن رآه عمي"[3]

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 760.
[2] المصدر نفسه، ص 743.
[3] المصدر نفسه، 270

من مواكب تحرير تونس في بنزرت 1963

محمد علي الطاهر، رسائل بورقيبة، مصدر سلف ذكره

إنه لا مناص من الإقرار بتدخل ضغط الواقع في تعديل مسار العلاقة بين الفكر والنفس وضمن هذا الإطار ننزل علاقة الطاهر ببورقيبة.

لقد بلغ هذا التأزم النفسي والإحساس بالانكسار أمام وطأة الزمن ذروته القصوى حينما كتب الطاهر سنة 1960: "عندما بدأت موجة "الاستقلالات" في إفريقيا تطغى على الاستعمار، هل فكرت الدول العربية لحظة في ما يجول بخواطر الفلسطينيين، الذين يرون انبعاث الأمم والشعوب بعد الموت وإطلاق سبيل المستعبدين في جميع أنحاء الدنيا، وكيف ينظر الفلسطيني الآن إلى نفسه وهو محروم من مجرد الوجود الإنساني بعد أن فقد وطنه أرضا وسماء؟

ألا يخطر ببال الدول العربية أن الفلسطيني هو الآخر إنسان يحس ويفهم ويعقل ويتألم حين يرى الأقطار المستعمرة قد تحررت وقامت من سباتها وإنه هو وحده الذي كان حيا فقتل ذبحا على مذبح الأنانية والغدر، أو على الأقل مذبح الاستهتار واللامبالاة.؟"[1]

إن الطاهر لم يكن في إمكانه شعوريا أو لا شعوريا أن يتحدث عن السياسة وعن التيارات السياسية من دون أن تكون عيناه موجهتين إلى فلسطين ونحن لا يمكننا أن نفهم هذا النص بمعزل عن حدة الشعور بالألم عند الطاهر لما حل بفلسطين وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بما كتبه أحمد بن سودة الذي كان صديقا حميما للفلسطيني محمد علي الطاهر: "وكأني به وهو ينفر بجهاده في كل واجهة إسلامية وإلى جانب كل قضية عربية ومع كل مجاهد من بلاد الإسلام، كان يقوم بعمل يشبه ما يقوم به تاجر حذق من استثمار أمواله "ليدعم رأسماله الأساسي وهو فلسطين." إلا أن شعبه شرد بأكمله و"قضيته بقيت محل نظر"، فمات الطاهر وفي "نفسه شيء" من فلسطين إذ تمطى له الزمن بصلبه وحال دون أن يعيش، عيشة مستقرة مما جعل "الجرح الفلسطيني هو المحبرة التي سقى منها قلمه في كل ما كتب. كان فلسطينيا حتى النخاع لذلك كان عربيا مسلما إلى آخر ذرة في دمه."[2] فقد ظل يبحث عن "النديم" وعن "الأهل" وعن "الوطن" وعن "السكن". فكان كلما مد زعيم يده إلى فلسطين اهتز طربا

[1] محمد علي الطاهر، خمسون عاما، مصدر سلف ذكره، ص 381.
[2] سميح شبيب، محمد علي الطاهر ، مرجع سلف ذكره ص 10.

بالعروبة والإسلام، لكنه سرعان ما تبين أن العالم العربي والإسلامي قد قاد فلسطين إلى سراب الخلّب لتتعمق معاناته وتزداد مأساته ولا يمكن للمرء أن يجد عبارة بليغة الوصف لحال الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر وحال شعبه أفضل مما نظم أديب إسحاق:"[1]

قــتل أمــرئ فــي غـابـــة جـــريـــمة لا تغتفر
وقــتل شعب كـــــامـــل مـــسألـــة فـــيها نظر

لذلك مات الطاهر، وفي نفسه شيء من هذا "النظر".، الذي ترجم تضخم نفسيته في كل ممارساته السياسية والفكرية وطرح علينا إشكالية حقيقية ملخصها: "إذا كان من المطلوب نظريا أن يطابق الإنسان بين فكره وسلوكه فإلى أي حد يمكنه واقعيا أن يحقق هذا التوافق"[2] خاصة في ظل واقع كالذي عاشه محمد علي الطاهر وفي ظل مجتمع كالذي عاش ضمنه الفلسطيني. إن النتيجة التي نصل إليها أن تفكير محمد علي الطاهر كان حريا بأن يقوده إلى ما انتهى إليه.

[1] محمد الناصر النفزاوي، الدولة والمجتمع، مرجع سلف ذكره، ص 5.
[2] محمد الناصر النفزاوي، محمد كرد علي، مرجع سلف ذكره، ص 140.

خـــاتـــــــمة

بعد الانتهاء من كتابة الموضوع علينا تلخيص أهم النتائج التي توصّل إليها بحثنا خاصة إن السؤال الذي قد يطرح علينا هو ما الذي يمكن أن يتبقى في ذهن قارئ هذا العمل؟

لقد حتّم علينا موضوع بحثنا قبل البدء في الحديث في علاقة محمد علي الطاهر بساسة بلاد المغرب قبل تأسيس الجامعية العربية وبعدها أن نبين القصد من صفة "العروبية الإسلامية" التي وصفنا بها الطاهر إذ بدت لنا استحالة الحديث عن علاقة الطاهر بالساسة المغاربة من دون التوقف عند ملامح تفكيره السياسية والاجتماعية التي تجعلنا نجزم إنه "عروبي إسلامي" و لم يكن عروبيا صرفا ولا إسلاميا صرفا.

قادنا هذا الأمر إلى تقسيم عملنا قسمين اثنين اخترنا أن يكون القسم الأول مدخلا نظريا أردناه موجزا قياسا إلى القسم الثاني من العمل. هذا قد حاولنا في القسم الأول قبل التعرض لتفكيره السياسي الإجتماعي أن ننطلق من المنشإ الجغرافي وصولا إلى انتمائه الإيديولوجي فبينا "فلسطينية" محمد علي الطاهر، لأنه عاش في مرحلة لم تتضح فيها بعد حدود فلسطين كما نعرف اليوم، إذ عاش الطاهر (1896-1974) المرحلة الأولى من حياته، وهي هامة في حياة المرء، التقسيم الإداري الثاني لبلاد الشام زمن الحكم العثماني (من أواسط القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الكبرى) ولقد أولينا ولاية بيروت العناية الفائقة لأن جزءا هاما مما سيعرف بفلسطين (متصرفية عكا ومتصرفية نابلس) كان تابعا لولاية بيروت إلى حدود الحرب الكبرى، أما الجزء الثاني من فلسطين (بين حدود ولاية بيروت الجنوبية وسيناء المصرية) فكان خاضعا مباشرة لسلطة الأستانة (ويضم قضائي يافا وغزة)، ولا شك أن المرء يتبين من خلال هذا التقسيم أهمية المنشأ الجغرافي حيث نشأ الطفل محمد علي الطاهر في عائلة مشدودة اجتماعيا وسياسيا وعقديا إلى دولة تيوقراطية اتخذت من فكرة "الجامعة الإسلامية" مرجعا لها زمن حكم عبد الحميد (1876-1909).

بدأ يتكون النسيج الفكري التقليدي الصرف للمثقف محمد علي الطاهر في (مدينة نابلس) لأن المثقف نتاج عصره وواقعه ونتاج تربة مخصوصة، ذلك أن مدينة نابلس كانت من المناطق الداخلية لولاية بيروت أي بقيت وفية وفاء لا يحدّ لنظام المجتمع الماقبل

رأسمالي الذي عرف ارتخاء تاما في المناطق الساحلية مثل بيروت التي بقدر ما انسجمت مع الحضارة الرأسمالية وتأسست فيها الجامعات الحديثة فإن ذلك تسبّب في ظهور نظرة حديثة إلى الأشياء وعلاقة مزعجة بالجامعة الإسلامية، وإذا أضفنا إلى تكوين الطاهر الصوفي، هذا النفور الشامي من فكرة الجامعة الإسلامية ممثلة في السلطنة العثمانية فإنه لا يمكن أن نستغرب انسجام هذا المثقف باعتباره شاميا مع نظرة الشوّام إلى الفكرة الإسلامية.

لقد تتبعنا ما كان عليه موقف محمد علي الطاهر من الأحداث التاريخية الهامة بين 1908 سنة الانقلاب العثماني وإعلان "المشروطية" وما كان عليه تفكيره السياسي ورؤيته للأشياء حتى إعلان الحرب الأولى. ولعل أبرز ما يميز هذه الفترة ظهور تيارات فكرية سياسية ثلاثة، انتمى الطاهر إلى واحد منها ونقصد به التيار العربي التركي الذي "تعامل مع روح العصر وتأثر بفكرة القومية وأحس بتهافت منطق الإبقاء على الكيانات الكبيرة متعددة الأجناس واللغات ووجد له بين العرب ممثلين منهم عبد الغني العريسي وجماعة المفيد ومحمد علي الطاهر مثلما وجد له ممثلين عند الترك (أقجورا وأحمد أغاييف) ولقد قام إدراجنا الطاهر ضمن هذا التيار على ثلاثة أمور على الأقل:

1) إن الطاهر كان ممّن يحملون جمعيات تركية "وزر تأكيد القطيعة بين العرب والترك.

2) كان الطاهر يشعر بتهافت منطق البقاء تحت سقف الجامعة الإسلامية زمن ولادة القوميات.

3) اتصال الفلسطيني محمد علي الطاهر باللبناني العروبي الإسلامي ذي الأصل الليبي عبد الغني العريسي سنة (1913-1914) إن هذه الحلقة (ونقصد العريسي وجريدة المفيد) كانت هامة في حياة الطاهر الفكرية والسياسية إذ تسربت بذرة التفكير العروبي الإسلامي إلى فكر الشاب محمد علي الطاهر فعبّر عن موقفه السياسي وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره وكان نصيرا للعروبيين الإسلاميين الذين حاربوا الدولة العثمانية الاتحادية لأسباب دينية وسياسية وبرروا في كل ما كتبوا تغيير وجهتهم إلى أرض الحجاز والجزيرة العربية حيث كان

الشعور العروبي الإسلامي قويّا، وحيث تنامى السعي إلى بناء دولة عربية مسلمة شبيهة بالدولة التي أفل نجمها مع بداية الدور العباسي لقد اعتنينا بهذا الموضوع في الفصل الثاني من هذا القسم الأول خاصة حينما تمكّن الرمز السياسي عبد العزيز آل سعود من افتكاك الزعامة من السياسي الشريف حسين سنة 1924 أي في هذه السنة التي تعد مفصلية بالنسبة إلى موضوعنا، لأنها، إضافة إلى ما قلنا، مثّلت تاريخ إلغاء الخلافة في الأستانة وتاريخ اكتساب الفلسطيني محمد علي الطاهر أولى وسائله الصحافية أي الوعاء الذي سيرشح بملامح تفكيره بعد أن فتق المرحلة الجنينية الممتدة إلى حدود سنة 1924 ونحن نقصد بذلك جرائده "الشورى" و "الشباب" و "العلم"، وما سيترك من كتب.

إن اعتبار سنة 1924 سنة مفصلية هو الذي يبرر، كذلك، اهتمامنا بعلاقة محمد علي الطاهر بالساسة المغاربة (1924-1974) وفعلا فإننا لا نعثر قبل هذا التاريخ على علاقة بين الطاهر وهؤلاء الساسة ومنذ هذا التاريخ نلاحظ نوعا من الالتقاء بين الطرفين في الغايات وكانا معا يعيشان أزمة ولاء وأزمة حيرة حضارية ذلك أن جيلا" "يعيش في ظل هيمنة ولاء من الولاءات بإمكانه أن يختار بين الولاء السائد والولاء الأقل المعارض لكن جيلا"[1] كجيل محمد علي الطاهر "عاش فترة انهيار الخلافة العثمانية وفترة إرهاب وشك وتعدد رؤى قومية ووطنية لم تبلغ مستوى الوضوح الذي يبرر انتماء غير مغامر"[2] لا يمكنه إلا أن يكون مناضلا "صوفيا" ولقد كان الفلسطيني محمد علي الطاهر ممن جاهر بأفكاره وأصرّ عليها ولم يبدّل تبديلا فكان مثقف نظر وإجراء اجتهد في بيان فكرة اعتبار الجنس واللغة من المقومات الثابتة في تحديد هوية بلاد المغرب لذلك وقف من الاستعمار و"أذنابه" ممن حاولوا إدماج بلاد المغرب وإلباسه لبوس حضارة مستعمريه (فرنسا وإيطاليا) موقفا صداميا من هنا رفض كل ظاهرة إسقاط ثقافي تغطي حقيقة الاستعمار كما فهمه الطاهر استعمار مهدد أيديولوجيا لطابع بلاد المغرب الحضاري (الدين، الجنس، اللغة) فجاءت علاقات الطاهر بالساسة المغاربة متسمة بالسمات التالية:

[1] محمد الناصر النفزاوي، محمد كرد علي، مرجع سلف ذكره ص 40.
[2] المرجع نفسه، ص 14

1) الرغبة في الابقاء على الطابع الحضاري لهذه البلاد، أي أن تسود فيها نظرة تقليدية إلى الأشياء، وأن يستنسخ فيها مجتمع شبيه بمجتمع القرن السابع الميلادي وان تكون ميالة إلى العروبيين الإسلاميين (هذا ما جعله مندغما في السنوسية في ليبيا و جمعية علماء المسلمين في الجزائر و "السلفية الجديدة" في مراكش).

2) تسرّب التفكير "الوطني النفعي" إلى فكر الطاهر وهو أمر قرب بينه وبين من يخالفه فكريا، وضمن هذا المستوى بحثنا في سر تقاربه مع التاريخي العقلاني التونسي الحبيب بورقيبة.

3) تضخّم نفسية الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر لابتلاع الصهيونية وطنه على مرأى ومسمع من العالمين العربي والإسلامي وخصوصا "المشرق العربي" جعله يفقد الثقة في السياسة والساسة (خصوصا ببلاد المشرق) وهو إحساس سيلازمه إلى حين مماته سنة 1974.

رغم ذلك لا ندعي أننا وضعنا حدا للتساؤلات حول الإشكالية التي طرحناها في مقدمة بحثنا والتي ملخصها، كيف أمكن أن توجد علاقة "حميمة" بين مفكرين سياسيين بهذا التنابذ الفكري السياسي أي بين العروبية الإسلامية ممثلة في محمد علي الطاهر) وبين الوطنية (ممثلة في الحبيب بورقيبة)؟ هذه الإشكالية كانت مدار بحثنا في الفصل الثاني من القسم الثاني من البحث.

وجدنا أن وعي "المصلحة" و "المنفعة" كان محركا أساسيا في فكر الحبيب بورقيبة وكذلك في فكر العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر إذ أن حاجة التاريخي العقلاني التونسي بورقيبة المادية أثناء وجوده بالقاهرة لصاحب الشورى، إضافة إلى بحث الحبيب بورقيبة عن معرّف بالقضية التونسية خصوصا إذا علم المرء صلة الطاهر بأبرز الرموز السياسية من ملوك ورؤساء ووزراء جعلانا نقتنع بأثر هذين العاملين الحاسم في حقيقة ما جمع الوطني بورقيبة بالعروبي الإسلامي الطاهر حتى وإن بدا ذلك للبعض كأنه شذوذ سياسي، وإن لم يكن ذلك كذلك في نظرنا لأنه مرتبط بتذكر "الأيادي البيضاء" زمن الشدّة.

أما فيما يتعلق بقبول العروبي الإسلامي الطاهر التاريخي العقلاني بورقيبة فإنه لا مناص من الإقرار بتدخل ضغط الواقع في تعديل مسار العلاقة بين الفكري والنفسي لان الطاهر لم يكن في إمكانه شعوريا أولا شعوريا أن يتحدث عن السياسة والساسة وعن علاقته بمختلف الرموز والتيارات السياسية دون أن تكون عيناه متجهتين صوب الوطن، لذلك لم يكن الفلسطيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر بريئا في مقاربته للرموز السياسية الفكرية المغربية خصوصا الحبيب بورقيبة، فهو يعلم وزن هذه الرموز وثقلها السياسي وكان يأمل عقب تضاؤل أمله في عرب المشرق أن تكون نصيرة لقضية فلسطين كما كان نصيرا لقضايا بلاد المغرب قبل الاستقلال وبعد الاستقلال. ومع ذلك فقد تحرك بعد موجة الاستقلالات وبقاء فلسطين تحت الاستعمار الصهيوني في الطاهر السؤال من جديد: "كيف ينظر الفلسطيني الآن إلى نفسه وهو محروم من مجرد الوجود الإنساني بعد أن فقد وطنه" لقد كانت نفسية الطاهر تزداد تضخما إلى أن مات سنة 1974 وهو يحمل همّه الفلسطيني وجرحه العربي الإسلامي.

الملاحق

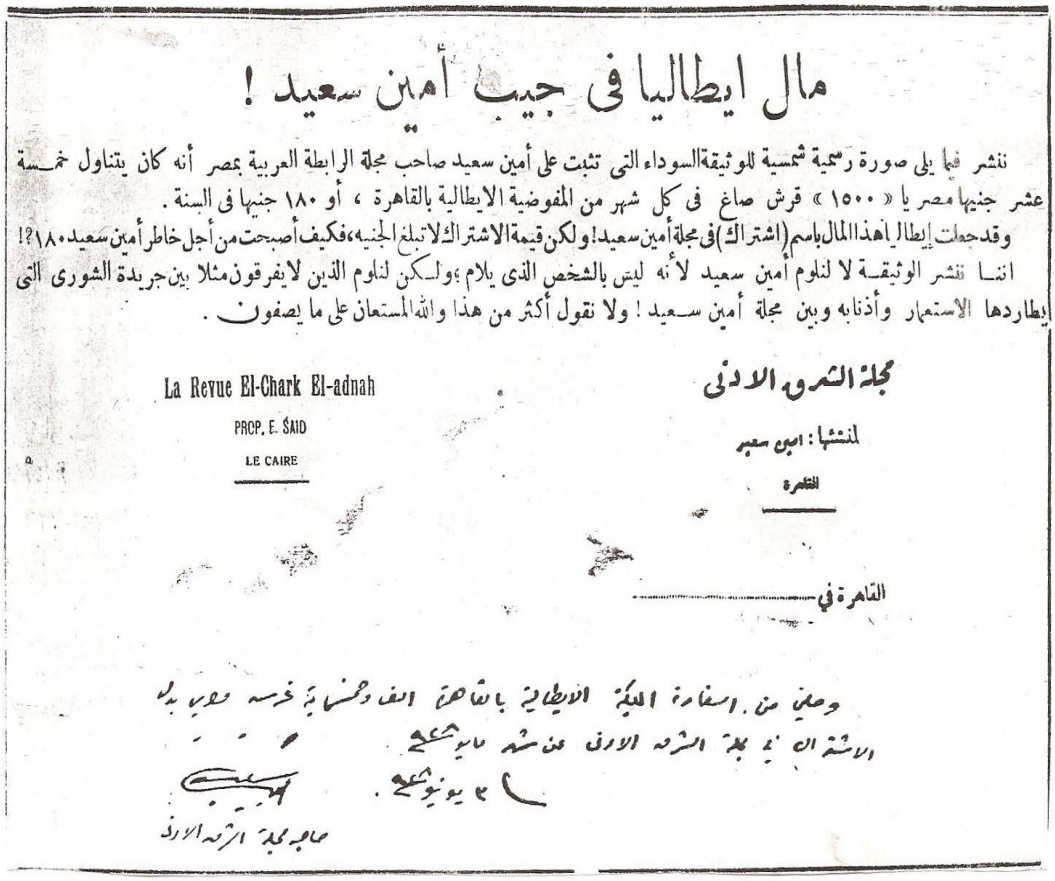

مال ايطاليا فى جيب أمين سعيد !

ننشر فيما يلى صورة رسمية شمسية للوثيقة السوداء التى تثبت على أمين سعيد صاحب مجلة الرابطة العربية بمصر أنه كان يتناول خمسة عشر جنيها مصريا « ١٥٠٠ » قرش صاغ فى كل شهر من المفوضية الايطالية بالقاهرة ، أو ١٨٠ جنيها فى السنة .

وقد جعلت إيطاليا هذا المال باسم (اشتراك) فى مجلة أمين سعيد! ولكن قيمة الاشتراك لا تبلغ الجنيه، فكيف أصبحت من أجل خاطر أمين سعيد ١٨٠؟!

اننا ننشر الوثيقة لا لنلوم أمين سعيد لأنه ليس بالشخص الذى يلام ؛ ولكن لنلوم الذين لا يفرقون مثلا بين جريدة الشورى التى يطاردها الاستعمار وأذنابه وبين مجلة أمين سعيد ! ولا نقول أكثر من هذا والله المستعان على ما يصفون .

La Revue El-Chark El-adnah

PROP. E. SAID

LE CAIRE

مجلة الشرق الادنى

لمنشئها : امين سعيد

القاهرة

القاهرة في .....

وصلنى من اسفارة الملكية الايطالية بالقاهرة الف وخمسمائة خمسة عشر بدل
الاشتراك فى مجلة الشرق الادنى من شهر مايو سنة
١٩٣٧ يونيو سنة .

صاحب مجلة الشرق الادنى

الشباب عدد 45-5 "340"، 24 مارس 1937

الوثيقة المنكورة وهي موجودة!

ماقول سمو الامير عبد الله؟

كانت صحف سورية قد نشرت وثيقة هي عبارة عن كتاب قالت أن سمو الأمير عبد الله أمير شرق الاردن قد أرسله الى معتمد بريطانيا في خلال الحرب السعودية اليمانية، وهو كتاب تنكره المصلحة العربية وتنكره المصلحة الاسلامية، فاذا بالديوان الاميري في عمان الذي يسمونه « بالديوان العالي » يصدر بيانا ينكر فيه صدور ذلك الكتاب ويكذبه فاذا بأحد أولاد الحلال يرسل الينا صورة شمسية لذلك الكتاب فكان من الطبيعي أن ننشره نصا ورسما وهذا هو، وفي ذيله صورة الاصل فليقرأ الناس وليحكموا، ولاحول ولاقوة إلا بالله :

حضرة صاحب المقام الجليل فخامة المندوب السامي لشرق الاردن

عزيزي صاحب الفخامة

لقد تحدثت مع المعتمد البريطاني بعد عودته من القدس في مسألة تحذير العشائر في جنوب شرق الاردن لضمان الحياد في حرب المملكة السعودية واليمن بالصورة التي قرر عليها القرار وبهذه المناسبة أوضحت لدولته نقاط نظري فيما إذا تغلب أحد الملكين على الآخر وما يمكن أن تحدث من هذا إذا ضم الغالب أرض المغلوب الى بلاده. فوعد أن يعرض كل أفكاري هذه لفخامتكم السامي وإتماما للفائدة أحرر لكم كتابي هذا باسط كل آرائي فيه بعد وضع لوحة عن الحالة أمام النظر

(١) ابتدأ الخلاف بين ابن سعود وابن حميد الدين منذ أكثر من سنة وتدخل المرحوم الملك فيصل في إصلاح ذات البين وأخذ الرد المعلوم من جانب ابن سعود

(٢) من هذا يعلم أن الاستعدادات كانت قائمة من عهد بعيد

(٣) ان الذين يسيرون السياسة في المملكة السعودية ليسوا من نجد ولا من الحجاز بل هم من سورية وفلسطين تنفيذاً لاغراض عصابة معروفة فهذا فؤاد حمزة أخذوه من معلمية احدى المدارس الأهلية — بفلسطين وأرسل بتوصية من الدكتور أمين الحسيني وذاك يوسف ياسين الذي كان كاتبا لدى رشيد طليع بك السكرتير والادارى حين تشكيل حكومة شرق الاردن ذهب بتوصية من حزب الاستقلال فيها بصورة دائمة بديوان السياسة للحكومة السعودية بارتباط مع مركز العصابة التي يمثلها اليوم في الحجاز أمين افندي الحسيني من فلسطين وهاشم الاتاسي من سورية وشكيب ارسلان وهو ممثل هذه العصابة في أوربا وهو الذي يعد المعروف لدى الرجال البريطانيين المشتغلين بمسائل الشرق وعلى علوبة باشا المصري الذي ذهب إلى الهند مع أمين الحسيني وهو من حزب الوفد المصري على ما أعتقد — ذهب هؤلاء باسم وفد السلام وهم الآن على موجب أخبار الصحف لدى المذاكرة التي تدور بين ممثل ملك اليمن عبد الله الوزير — وهم يحضرون مجلس يعلم ماهو آت. ان الذين كانوا يديرون سياسة بلاد العرب؟ فؤاد حمزة ومن هذا ياسين وفؤاد قد حضروا بالنسبة للظروف الحاضرة ليتمموا ما قد بدأ من قبل وبواسطة للقضاء على اليمن ورسم الخطة السياسية الجديدة للمملكة السعودية أما ما يديرونه في السعى حثيثا إلى هذه الاقطار بعد الاستعداد طبعا ووفقا للاغراض التي تلائم فيما يقبل وتوجيها العصابة ويمكن الجزم بان لهذه العصابة صلة بدولتين أوربيتين الاسبانية تسعى لتنفيذها هذه في سواحل البحر الاحمر من القديم — إنني مع اتباعي حرم معه يتين لهما كبرى المطامع الحياد المطلق أقول بانني لا أنظر بعين الارتياح الى ملخص رفيا لسياستكم ألا وهي الحالة من ناحيتي واعتقد وأجزم أن المملكة العراق ما هو جار وأصرح بخطورة الا فية أيضا ترى ما أرى وان

أ.

الدعاية التي تقوم بها صحف هذه العصابة في العراق وفلسطين أول نذير لما قلته راجيا من فخامتكم إعلامي بصورة واضحة عن مستقبل الوضع وكيفية المحافظة على حقوق البلاد كاملة غير منقوصة وإلا فالسكوت عن الحالة الراهنة لا يتناسب مع أمانتي لحقوق بلادي ولا مع صلتي الطيبة مع حكومة جلالته البريطانية.

عمان ٧ مايو سنة ١٩٣٤

صديق فخامتكم المخلص

امضاء عبد الله

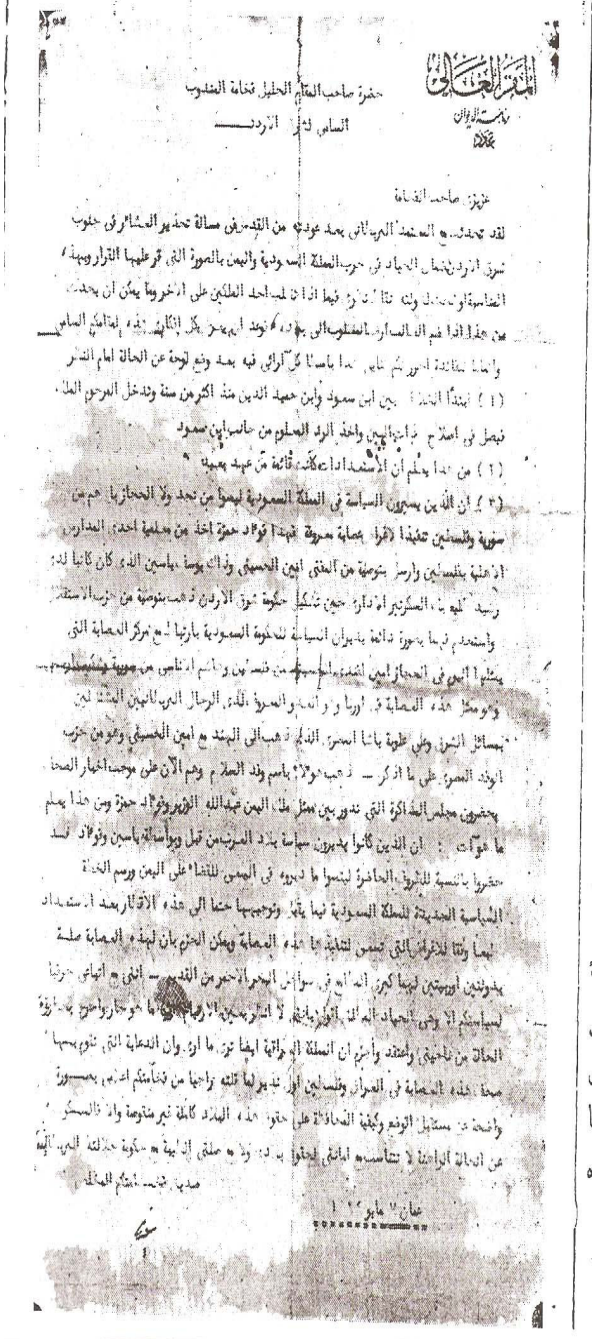

البريد العالي

حضرة صاحب المقام الجليل فخامة المندوب السامي لشرق الاردن

عزيزي صاحب الفخامة

لقد تحدثت مع المعتمد البريطاني بعد عودته من القدس في مسألة تحذير العشائر في جنوب شرق الاردن لضمان الحياد في حرب المملكة السعودية واليمن بالصورة التي قرر عليها القرار وبهذه المناسبة أوضحت لدولته نقاط نظري فيما إذا تغلب أحد الملكين على الآخر وما يمكن أن تحدث من هذا إذا ضم الغالب أرض المغلوب الى بلاده. فوعد أن يعرض كل أفكاري هذه لفخامتكم السامي وإتماما للفائدة أحرر لكم كتابي هذا باسط كل آرائي فيه بعد وضع لوحة عن الحالة أمام النظر

(١) ابتدأ الخلاف بين ابن سعود وابن حميد الدين منذ أكثر من سنة وتدخل المرحوم الملك فيصل في إصلاح ذات البين وأخذ الرد المعلوم من جانب ابن سعود

(٢) من هذا يعلم أن الاستعدادات كانت قائمة من عهد بعيد

(٣) ان الذين يسيرون السياسة في المملكة السعودية ليسوا من نجد ولا من الحجاز بل هم من سورية وفلسطين تنفيذاً لاغراض عصابة معروفة فهذا فؤاد حمزة أخذوه من معلمية احدى المدارس الأهلية — بفلسطين وأرسل بتوصية من الدكتور أمين الحسيني وذاك يوسف ياسين الذي كان كاتبا لدى رشيد طليع بك السكرتير والادارى حين تشكيل حكومة شرق الاردن ذهب بتوصية من حزب الاستقلال فيها بصورة دائمة بديوان السياسة للحكومة السعودية بارتباط مع مركز العصابة التي يمثلها اليوم في الحجاز أمين افندي الحسيني من فلسطين وهاشم الاتاسي من سورية وشكيب ارسلان وهو ممثل هذه العصابة في أوربا وهو الذي يعد المعروف لدى الرجال البريطانيين المشتغلين بمسائل الشرق وعلى علوبة باشا المصري الذي ذهب إلى الهند مع أمين الحسيني وهو من حزب الوفد المصري على ما أعتقد — ذهب هؤلاء باسم وفد السلام وهم الآن على موجب أخبار الصحف لدى المذاكرة التي تدور بين ممثل ملك اليمن عبد الله الوزير — وهم يحضرون مجلس يعلم ماهو آت. ان الذين كانوا يديرون سياسة بلاد العرب؟ فؤاد حمزة ومن هذا ياسين وفؤاد قد حضروا بالنسبة للظروف الحاضرة ليتمموا ما قد بدأ من قبل وبواسطة للقضاء على اليمن ورسم الخطة السياسية الجديدة للمملكة السعودية أما ما يديرونه في السعى حثيثا إلى هذه الاقطار بعد الاستعداد طبعا ووفقا للاغراض التي تلائم فيما يقبل وتوجيها العصابة ويمكن الجزم بان لهذه العصابة صلة بدولتين أوربيتين الاسبانية تسعى لتنفيذها هذه في سواحل البحر الاحمر من القديم — إنني مع اتباعي حرم معه يتين لهما كبرى المطامع الحياد المطلق أقول بانني لا أنظر بعين الارتياح الى ملخص رفيا لسياستكم ألا وهي الحالة من ناحيتي واعتقد وأجزم أن المملكة العراق ما هو جار وأصرح بخطورة الا فية أيضا ترى ما أرى وان

أ.

الدعاية التي تقوم بها صحف هذه العصابة في العراق وفلسطين أول نذير لما قلته راجيا من فخامتكم إعلامي بصورة واضحة عن مستقبل الوضع وكيفية المحافظة على حقوق البلاد كاملة غير منقوصة وإلا فالسكوت عن الحالة الراهنة لا يتناسب مع أمانتي لحقوق بلادي ولا مع صلتي الطيبة مع حكومة جلالته البريطانية.

عمان ٧ مايو سنة ١٩٣٤

صديق فخامتكم المخلص

امضاء عبد الله

الشباب عدد 26- 46 "381"، 12 جانفي 1938

وثيقة شرق الاردن ...

وماذا كان بعد نشرها

مساعى رئيس الديوان العالى الامير جميل ناصر لدى مدير الشباب
حوادث مصحوبة بشهود عيان

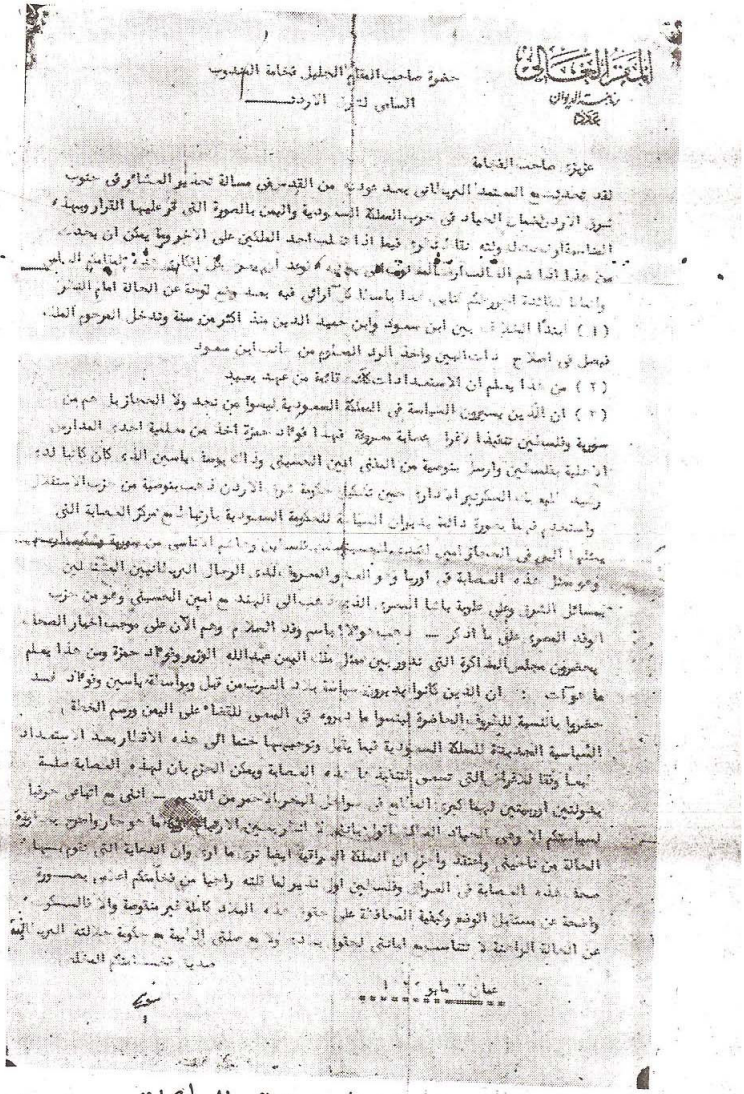

المقر العالي
رئيس الديوان

حضرة صاحب المقام الجليل فخامة المندوب السامي لشرق الاردن

عزيزي صاحب الفخامة

لقد تحدث سمو الامير عبد الله الى بعد عودته من القدس في مسألة تحية العلم في شرق الاردن فخماء الحياد في حرب المملكة السعودية واليمن بالصورة التي ترفعها القوات وبهذه المناسبة ولتجنب كل نقاش فيما اذا كان لاحد الطرفين على الاخر حق او لا يكون من حق احد الطرفين على الاخر فقد رأى سموه ان يعهد الى بمهمة [illegible] واني اذ اقوم الان بهذه المهمة لاراني فيه بعد واني لواثق كل الثقة امام السر
(١) ابتداء النزاع بين ابن سعود وابن حميد الدين منذ اكثر من سنة وتدخل المرحوم الملك فيصل في اصلاح ذات البين واحد الوفد المنوط من جانب ابن سعود
(٢) من هذا يعلم ان الاستعدادات كلها قائمة من عهد بعيد
(٣) ان الذين يسيرون السياسة في المملكة السعودية ليسوا من نجد ولا الحجاز بل هم من سورية وفلسطين تتلمذوا زغرا بعصابة سورية فهذا فؤاد حمزة أخذ من معلمة احد المدارس الاهلية بفلسطين وارسل سوسية من المغرب امين الحسيني وذاك يوسف ياسين الذي كان كاتبا لدى رشيد عالي الكيلاني وادار حين تشكيل حكومة شرق الاردن [illegible] واستعين في ما سورية دائما بديوان السياسة للحكومة السعودية بأرائها ثم مركز الدعاية التي يمثلها اليوم في الحجاز امين الحسيني [illegible] وعلى رأسهم وكيلهم وموطن هذه الدعاية في اوربا وامريكا والعمدة لهذه الرجال الربانيين الهمة لين بمسائل الشرق وعلى علوة باشا السري الذي ذهب الى الهند مع امين الحسيني وعلون من وفد الصحراء على ما اذكر — [illegible] باسم وفد السلام وهم الآن على موجب اخبار الصحف يحضرون مجلس البعثة الذي تداورين ممثل من اليمن عبد الله الوزير وفؤاد حمزة ومن هذا يعلم ما هو آت : ان الذين كانوا يهددون سياسة بلاد العرب من قبل ويواسلة ياسين وفؤاد حمد حضروا بالنسبة للثورة الحاضرة إنهم ما دبروه في اليمن للقضاء على اليمن ورسم الخطة السياسية الجديدة للمملكة السعودية فيما يتعلق وتوجيهها حتما الى هذه الاقطار بعد ان يتمداد بما وثقا للقرار التي تسمى بتنفيذ هذه الدعاية ويمكن الجزم بان لهذه الدعاية صلة بخولتين اوربيتين لهما كبير العالم في سواحل البحر الاحمر من القديم — انني مع احتياجي جزيا لسياستكم الا واني احياد الملك اقول بيانكم [illegible] ما هو حاجاتكم [illegible] الحالة من ناحية واعتقد واجزم ان المملكة الواقعة ايضا تراها ان وان الدعاية التي تقوم بها صحة هذه الدعاية في العراق وفلسطين اول ما يدعوها للتنه راجعا من فخامتكم اعتقد بضرورة واضحة عن مستقبل الوضع وكيفية المحافظة على حقوق هذه البلاد كاملة غير منقوصة واذ فالمسكر عن الحالة الراهنة لا تتناسب امانتي لحقوق بلادي ولا مع صلتي الودية مع حكومة جلالته البريطانية

مدير الشباب العام

عمان ٧ مايو ١٩٤٠

هذه هى الوثيقة الهائلة

مقدمة

لما نشرنا الوثيقة الخطيرة الصادرة من (المقر العالى) لسمو الامير عبد الله وبتوقيعه ، تحدينا حكومة شرق الاردن إن كانت تستطيع تكذيبها أو نفيها [illegible]

الاهرام ليساعده علي النشر فيها أوفي سواها من الصحف وان أسعد افندى لم يرد أن يتدخل ، فراح الامير جميل يرجو صحف مصر المحترمة ان تنشر له تكذيبا للوثيقة فأبت كلها مفاجئة وحديث طويل

الوثيقة ، فقلت له يمكنك أن تكتب لى ذلك كله فانشره لك . فقال بشرط أن لا تعلق على ما سنكتبه ، فقلت له لا شروط لكم عندى بل انا حر ويمكنك أن تأمر جريدتكم (الاردن) التى هي عندكم كالتيمس فى انجلترا بالنشر مع عدم التعليق فتصدع ، ، وأما انا فلا ! ،

فقال : أين حرية النشر إذن؟ فقلت إن حرية النشر ان اسمح لكم بالرد فى نفس جريدتى فماذا تريد فوق ذلك ؟ فقال أن تنشر فقط وتسكت وبذلك يكون قد حصل النشر من الطرفين . فقلت له كلا لأن حرية النشر لها حدود وليس لك أن تحديدها انت . فقال ولكن واجب الصحافي أن ينشر فقط فقلت ولكن الصحافى الذى يناضل عن قضية عامة هو كالمحامى الذى يدافع عن قضية خاصة من حقه ومن واجبه أن يلاحق الادلة الى النهاية . وأما ان كنت تريد من الصحافة أن تكون كصندوق البريد تنقل فقط وهى ساكتة لا تدرى فيكون مثلها كمثل الحمار يحمل اسفاراً ! فكان ضحك من الجميع . ثم نصحت له بأن يلجأ لجريدة أمين سعيد . .

ثم ماذا؟

وافترقنا فى تلك اللحظة حيث انصرفت على أن يبعث الأمير جميل الى الشباب برده ثم مضت أيام ولم يفعل ! فظننت أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد وانهم فضلوا أن يبتلعوا تلك الحادثة . وأما أنا فقد لزمت جانب الصمت على اعتبار أن مادار بيننا فى التليفون واعتذارى عن الاجتماع به ثم حديثنا فى دار عوني بك انما كان كله من الامور الخاصة

وقد بقيت على هذا الاعتقاد الى أن حدث شيء جديد وهو :

يلجأ إلى أمين سعيد !

نعم انهم قد لجأوا إلى أمين سعيد كما نصحت لهم وأنا أتهكم عليهم ! فقد جاءنى كتاب من أحدهم بشرق الاردن أن حكومتها قد وزعت مجانا فى تلك [illegible]

إن كانت تستطيع تكذيبها أو نفيها بادلة معقولة ، لا بالكلام وحده

ولم يمض على نشرها بضعة أيام حتى حدث حادث لم نر من المناسب ذكره اجابة لطلب الجانب الاردنى فكنا من هذه الجهة عند ظنه بنا ولكنه لم يكن عند ظننا فيه ...وقد أصاب!

أما وقد نكث الجانب الاردنى بما أخذه على نفسه فقد أصبحنا فى حل من نشر كل ما جرى . وليس علينا أدنى لوم فى اذاعته ما دام المولى سبحانه وتعالى قد أراد زيادة الفضيحة فنقول:

صدى الوثيقة

لقد كان لنشر تلك الوثيقة المهولة أشد صدى فى جميع أنحاء الشرق والعالم الاسلامي ، وخصوصاً فى الحجاز عند الحجازيين ، وعند الحجاج على اختلاف الوانهم وأجناسهم ، لان بعض أهل الخبر قد نقلوا الوثيقة من الشباب بالزنكغراف هى وما كتبناه عنها وطبعوا منها آلاف كثيرة وزعوها على الحجاج وأرسلوها الى البلاد الاخرى لان من حق العالم الاسلامى والعرب جميعا أن يطلعوا على تلك الوثيقة التى هزت مشاعر المخلصين والجازعين على أمتهم هزة عنيفة أليمة.

الامير جميل فى مصر

ويعد صدور عدد الشباب الذى نشرت فيه الوثيقة ببضعة أيام اذا بالتلفون فى احدى الليالى يقرع بادارتنا . فتناولت السماعة واذا به الامير جميل ناصر رئيس ما يسمى بالديوان العالى فى شرق الاردن وانه موجود الآن فى مصر ويطلب الاجتماع بى فسألته لماذا ؟ فقال للتحدث بشأن الوثيقة فقلت ان الوثيقة قد نشرت فأن كان لديك ما تريد نشره رداً عليها فارسله لى لأنشره وأما المقابلة فانى أعتذر عنها. وبذلك انتهت المحادثة بيننا . وكان عندى فى تلك الليلة من الزوار فضيلة العلامة الشيخ راغب أبو السعود الدجانى أحد اجلاء يافا والقاضى الشرعى فيها سابقا ، واحد اساتذة المعارف بالقدس فسمعا هذا الحديث فعلتهما الدهشة .

ومضى يومان ولم يصلنى شىء من الامير جميل للنشر ولكننى سمعت أنه لجأ الى صديقى الاستاذ اسعد افندى داغر المحرر السياسى الخارجى فى جريدة مفاجئة وحديث طويل

وكنت بعد ذلك فى زيارة الاستاذ عونى بك عبد الهادى الزعيم الفلسطينى نزيل مصر وكان هناك شقيقه الاستاذ فؤاد عبد الهادى المحامى وابن عمهما الاديب السيد منعم افندى عبد الهادى فاذا بالامير جميل يأتى لزيارة عونى بك وتبليغه سؤال سمو الامير عبد الله عن صحته وبرفقته الاستاذ أسعد داغر فلما قام عونى بك باجراء مراسم التعارف قال لى الامير جميل : كيف تجوز لك وانت عربى كريم أن ترفض زيارة عربى من قومك يريد الاجتماع بك بدلا من ان تزوره وهو ضيفك ؟ فشكرته على هذا الكلام اللطيف وقلت : يوجد مانع يحول دون اجتماعنا وهو انك رئيس الديوان الاميرى وانى صحافى نشرت ضدكم وثيقة فاجتماعنا لا محل له سوى أنك تريد التحدث بشأنها بينما هى منشورة وبأمكانكم ارسال ردكم عليها بالبريد فما هى فائدة اجتماعنا ؟ ! فقال لاقناعك ببطلانها ، فقلت ان اقناعى لا يكون بالكلام بل بالكتابة والنشر . فقال : هل تعتقد بصحة تلك الوثيقة ؟ فقلت كما اعتقد بالله وبوقوع وجودنا نتحدث هنا. فقال ما هى أسباب اقتناعك ؟

بعض الاسباب . .

فقلت أولا حالة صاحبها مع أهل فلسطين منذ جاء الى بلادنا وليته بقى فى الحجاز ، وسلوكه فى قضية فلسطين مع أهل فلسطين وتخذيلهم فى الثورتين الماضيتين ، ومنعه أهل الاردن فى الثورات السابقة من انجاد الفلسطينيين إلخ وخصوصا تحبيذه تقسيم فلسطين الذى ضجت لهوله الدنيا وتفطرت من فظاعته القلوب لما ينطوى عليه من اجلاء المسلمين عن مدنهم ومزارعهم وبيوتهم بل أنه هو الذى كان أول من اقترح تمزيق فلسطين ثم أن سلوكه فى مسألة ابن رفادة والحرب بين الملكين العربيين الامام ابن سعود والامام يحيى إلخ إلخ

وحرية النشر ! !

فأخذ الامير جميل يدافع ويرد ولكنه لم يقنع أحداً ثم قال ان الوثيقة مزورة وأن محمد بك المحيسن رئيس الديوان العالى السابق هو الذى لفق أن حكومتها قد وزعت مجانا فى تلك البلاد نسخا كثيرة من مجلة أمين سعيد المسماة بالرابطة العربية ، وأن ذلك العدد يحتوى رداً فى مسألة الوثيقة . ولما كانت مجلة الرابطة غير معروفة فى مصر فلم أستطع العثور عليها فطلبت نسخة منها من شرق الاردن فأرسلوها ! ويا للعجب من قوم يلجأون الى مجلة لا يعرفها أحد فى موطن صدورها !

وقد اطلعت على ذلك الرد وهو بامضاء مطلع فوجدته كله سفسطة وشتائم فلم أحفل به ، بل رأيت به سبيلا لنشر ما جرى . وقد أعجبنى من كل كلامهم آيات ختموا بها دفاعهم وها أنذا أنقلها لانها موجهة من الله اليهم وإلى كل من يشاكلهم

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا انفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)

صدق الله العظيم

محمد على الطاهر

الشباب عدد 93 – 53 "388"، 9 مارس 1938

محمد علي الطاهـــــر

١١٩ شارع الملكة نازلي بمصـــــر

١٩٥٠/١/٢٤

(91)

سيدي الاخ الاعز المجاهد الصادق والزعيم المخلص الاستاذ "الحبيب" بورقيبه حفظه الله

لا يجوز لك ان تظن انّ تقصيري في الكتابة اليك هو فتور في المودة او قلة في الوفاء ، كلا ، كلا فانت دائما موضع الحديث وعنوان كل مجلس ، ومثال لكل مخلص ، فنحن دائما في سيرتك ودائما في الحديث عنك والشوق اليك ، وثق من ان كل من يغشى دار الشورى يسأل عنك ويذكرك فاجيبهم مطمئنا معطرا مجالسي بسيرتك الطيبة

واني بعد ان قمت بكل واجب اقدر عليه بمناسبة استشهاد الاخوان الشهداء اتقدم اليك والى تونس العزيزة والى المغرب كله بواجب التعزية بفقدهم راجيا منه تعالى ان يجعل ارواحهم الزكية خير فداء للامة العربية جميعا وان لا يضيع على المغرب والمشرق ثمرة جهادهم واستشهادهم فقد كتبهم الله في الصديقين والشهداء فاسأله تعالى ان يحوطنا بسلامتك وسلامة كل مجاهد في المغرب العربي على الاخص والشرق العربي على الاعم والله لا يضيع مثقال ذرة والله مع الصابرين

هذا واني لا اكتمكم ان التفويض المرسل الى الاخ الطيب سليم بانابته عن الحزب في ادارة المغرب قد سبب شقاقا كبيرا وكم عملنا وسعينا لمنع ذيوع الخلاف لان الاخ الطيب على ما اعرف عنه بالامس انه رجل شديد المراس صعب القياد ، وقد تبين لي عندما تدخلت اخيرا بينه وبين اخوانه في الغربة والهجرة لن امتزاجه معهم فوق المستطاع فقد استعمل تلغرافكم اليه سلاحا يهددهم ويقلل من قيمتهم فهو مثلا لا يحب التريكي ولا يطيع الرويسي ولا يتصور وجه ابن جلون ولا رؤية ابن المليح . كما انه لا يقيم وزنا لطوبال ولا .. ولا .. ويعدهم اصفارا واشباحا ولا يحبذه الا الاخ الرشيد والسيد المكي فقط وكم رجوته التفاهم وكم ضربت له الامثال عن عواقب الشقاق ولكن بلا جدوى .

ولما ذاع نبأ البشرى بمقدم الاخ الاستاذ المنجي لمصر سررت كثيرا ورجوت الاخ الطيب ان يصبر الى حين وصوله ليضع حدا لهذه الحالة وقلت له ما دام اخوانك جميعا ينتظرون ويقبلون بحكمة فالواجب يقضي بالانتظار ولا ازال احثه على الصبر .

واني اشكرك ايها الاخ على تلغرافك الكريم بتهنئتي بالعهد الجديد وبنتظاركم للشورى فالهناء مشترك واسأل الله ان يوفق النحاس باشا وصحبه الى خير الاسلام والعرب بمنه وكرمه

وختاما احييكم وابثكم واخوانكم الكرام الامجاد السادة ابن يوسف والدكتور سليمان والاستاذ جلولي والاستاذ البلهوان وجميع مجاهدي تونس وابطالها اخلص التحية والشوق والدعاء

اخوكم = محمد علي الطاهر

لا يفوتكم ابلاغ سلامي للصديقين الحويتي والحواص مع اشواقي لان حبهما لك واخلاصهما لمبادئك مما يحببهما الى قلبي .

بطيه قصاصة من النداء اقرأوها ثم اعطوها الى الحرية لنشرها

هذه عينة من الرسائل التي كان يبعث بها محمد علي الطاهر وهو بمصر إلى الحبيب بورقيبة:

1950/01/24 (أ.و.ت)، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية (س.ت.ح.و)، صندوق (ص): 65، ملف (م): 1

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

طبرقه في ٢٥ فيفراير ١٩٥٢

عزيزي وأخي رمز الجهاد النزيه الذي لا يأتيه الكلل من أمامه ولا من خلفه الأستاذ محمد علي الطاهر أخذ الله بيده
وبعد فقد تسلمت بيد الأكبار والإجلال خطابك المؤرخ في ١٧ الجاري وأطلعت عليه رفقائي في الاعتقال
فسروا جميعا لما لمسوه فيه من إحساس فياض وشعور متدفق بالعزة والكرامة وآراء صحيحة صائبة في قرب زوال
عهد الاستعمار الغاشم مادامت الشعوب تكافح وتناضل متضامنة متكتلة كالبنيان المرصوص يشد بعضه
بعضا وما فتيا الرجال الأحياء متواصل لا يعتريه الكلل ولا الملل إلى أن يرجع الحق إلى ذويه أو تفنى الشعوب
الحرة دونها وهاته الحقيقة الناصعة تتجلى في حياتك العظيمة المفعمة بجلائل الأعمال فاحتفظ قوة للقيادة والزعامة
في مشارعك الأرضية ومغاربها أبقاكم الله ذخرا للعروبة والإسلام ومتعكم بالصحة والعافية حتى تجنوا ثمرة جهادكم
الطويل وتشاهدوا انهيار النظام الاستعماري الجائر في أقطار الدنيا كلها وما ذلك على الله بعزيز
رأيتم كيف أن حثالة المفسدين الذين كانوا يتظاهرون بالذكر الفكري ويتسترون على مقام المجاهدين العاملين
رأيتم كيف انهم انكمشوا وقعدوا عن العمل عندما هبت العاصفة وزلزلت الرجال إلى الميدان فلم يستهم العدو بسوء
ولم يسلط سيف نقمته الأعمى الذين كانوا يوالونهم بالتعاون معه وقد وردت برقية من السيد يوسف الرويسي
فيها تضامن وأكبار لجهادنا وآخر من السيد حبيب الزيكي فتغلبت على عاطفة الشفقة والرحمة ونسيان
مكروه فارسلت خطابا مطولا إلى الأستاذ علي البلهوان أنا نشد فيه أن ينسى الماضي وأن يتقبل انضمام
كل الإخوان الذين كانوا انشغلوا عن صفوف الأمة وأن لا يمانع في توحيد الصفوف وجبر الخواطر ويتعاون مع
كل الأحرار استعدادا صادقا للتعاون النزيه سواء من التونسيين أو من بقية المغاربة الذين كانوا يدعون لنا في الحقاء
ويتهمونا بالطمع الأنانية ذلك عملا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم لما نصره الله على الكافرين وتم له فتح
مكة المكرمة فبادر بتأليف قلوب أعداء المسلمين حرصا منه على توحيد صفوف الأمة العربية وتقويتها ساعدها
فتم لها بذلك اكتساح العروبة بأسرها ونشر الدين الحنيف في أرجاء الدنيا من المشرق إلى المغرب
وفي الختام أرجوك أن تطمئني على صحتك وعلى حريتك بعد إقالة وزارة النجار، إذا لا سيما وان صديقنا
الكبير لم يتمكن من الاستجابة إلى رغبتك قبل خروجه من الحكم والله يحفظكم ويرعاكم ويثبت أقدامكم
ويقر عينكم بالحسن جعله الله خير خلف لأكرم سلف وأتمنى على الله أن يجمع في القريب بيننا أجسادنا كما
جمع بين قلوبنا ويهدينا إلى صراطه المستقيم إنه سميع مجيب والسلام من أخيكم ومحبكم وداؤد عهدكم

الحبيب بورقيبة

عينة من الرسائل التي كان يبعث بها الحبيب بورقيبة إلى محمد علي الطاهر، محمد علي الطاهر، رسائل بورقيبة

قائمة المصادر والمراجع

المصادر بالعربية مرتّبة ترتيبا ألفبائيّا:

طاهر (محمد علي الـ): معتقل هاكتسب، مذكرات و مفكرات، مصر، المطبعة العالمية، 1950.

: ظلام السجن، مذكرات ومفكرات سجين هارب تنكر واختفى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1951

: خمسون عاما في القضايا العربية، القاهرة، مؤسسة دار الريحاني. [د.ت]

: محمد علي الطاهر، رسائل بورقيبة إلى صديقه محمد علي الطاهر، بيروت، 1966.

ا

:"السياسة "القاهرة، عدد 538، 24 جويلية 1924

عدد 542، 29 جويلية 1924

عدد 548، أوت 1924

عدد 553، 11 أوت 1924

:"الشباب"، القاهرة، عدد 26-46"381"،12 جانفي 1938

عدد (80-40) "74" 1 ديسمبر 1937،

عدد (100-60) "395"، 28 أفريل 1938

:"الشورى"، القاهرة، عدد 285، أوت 1930

عدد 316، 18 مارس 1931

عدد 334، 29 جويلية 1931

المراجع بالعربية مرتبة ترتيبا ألفبائيا:

- أبو الشيخ (أحمد): "الحاج أمين الحسيني وعلاقته بالحركات الوطنية المغاربية، الجزائر، تونس ليبيا والمغرب الأقصى (1924-1948)، شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر،إشراف الأستاذ الهادي التيمومي ك.ع. إ. إ، تونس 1999-2000 (غ.م.).
- انطنيوس (جورج): يقظة العرب، تاريخ الحركة القومية العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ط 6، 1980.
- براهمي (محمد الطاهر): محمد بن عبد الكريم الخطابي في المهجر المصري، ماجستير في الحضارة المعاصرة، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، ك.ع.إ.إ.، تونس، 2005 (غ.م.).
- بلحوله (محمد علي): الطيب التونسي رسالة ومواقف 1893-1993، تونس، مطبعة omega، 1995.
- بلقزيز (عبد الإله) والعربي مفضال، وأمينة البقالي، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية 1947- 1986 ، محاولة في التأريخ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1992.
- بن عاشور(محمد الفاضل): تراجم الأعلام، تونس، الدار التونسية للنشر، 1970.
- بوحوش (عمار): التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997.
- بوعياد (الحسن): الحركة الوطنية والظهير البربري لون آخر من نشاط الحركة الوطنية في الخارج، 1348هـ- 1930م، الدار البيضاء، دار الطباعة، 1979.

❖ تطوان في عهد الحماية، 1912 – 1956، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، منشورات المجلس البلدي، 1992.

❖ تيمومي (الهادي الـ): في أصول الحركة القومية العربية (1899-1920)، تونس، دار محمد علي للنشر، 2002.

: مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم في العالم الغربي من النهضة إلى العولمة، صفاقس، دار محمد علي الحامي للنشر، 2003.

❖ جلاّب (الهادي): علي باش حانبه (1876-1918) سلسلة مناضل وأثره عدد3 تونس، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية، 2005.

❖ جوليان (شارل اندريه): إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والقيادة الفرنسية، ترجمة المنجي سليم والطيب المهيري والصادق المقدم وفتحي زهير والحبيب الشطي ومراجعة فريد السوداني، تونس/ الجزائر، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976.

❖ حربي (محمد): جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1983.

❖ دروزة (محمد عزة): نشأة الحركة العربية، انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993.

: مذكرات محمد عزة دروزة 1887-1984، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج 1، 1993.

❖ داغر (أسعد): مصادر الدراسة الأدبية، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، 1983.

❖ رشيد (هارون هاشم الـ): جامعة الدول العربية، تونس، سيراس للنشر، 1980.

❖ روم (لاندو): تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، لبنان، دار الثقافة، 1980.

❖ سعيد (أمين): الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، القاهرة، مكتبة مدبولي [د.ت]

❖ شبيب (سميح): محمد علي الطاهر تجربته الصحافية في مصر من خلال صحفه الشورى، الشباب العلم، '1924-1939)، فلسطين، الاتحاد العام للكتاب والصحافيين، 1990.

❖ شرباصي (أحمد الـ): شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، بيروت، دار الجيل، ط2، 1978.

❖ شرعبي(منال الـ): أثر الحركة الوهابية السعودية في الحركة السلفية الجديدية في مراكش، شهادة الماجستير في الحضارة المعاصرة، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، تونس، ك.ع.إ.إ. 2006-2007 (غ.م.)

❖ شكري (محمد فؤاد): السنوسية دين ودولة، بيروت، دار الفكر العربي، 1948.

❖ صديق (محمد صالح الـ): أعلام المغرب العربي، موفم للنشر والتوزيع، 2000.

❖ عالم (عز الدين عبد السلام مختار الـ): تاريخ ليبيا المعاصر السياسي والاجتماعي، (1922-1948) دراسة في تاريخ الحركة الوطنية في المهجر بمصر،بنغازي ، دار الكتب الوطنية، 2000.

❖ عامل (مهدي): هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في استشراف ادوارد سعيد، بيروت، دار الفارابي، ط 3، 2006.

❖ عبد الهادي (عوني): مذكرات عوني عبد الهادي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2002.

❖ عبد (الله الطاهر): الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956،/ تونس، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، [د.ت].

❖ عبيد (خالد): مكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1949: شهادة الكفاءة في البحث، إشراف الأستاذ علي المحجوبي، تونس، ك.ع.إ.إ، 1989.(غ.م.)

❖ عريسي (عبد الغني الـ): مختارات المفيد، قدّم لها ناجي علّوش، بيروت، دار الطليعة، 1981.

❖ غلاّب (عبد الكريم): قراءة جديدية في تاريخ المغرب العربي، عصر الإمبراطورية، العصر التركي في تونس والجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج3، 2005.

❖ فاسي (علال الـ): الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الرباط، دار الطباعة المغربية، [د.ت]

❖ قدّاش (محفوظ): وقنانش محمد "نجم الشمال الافريفي" 1926-1937، الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، ط2، 1994.

❖ قيلبي (عبد القادر الـ): محي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن مجموعة وثائق انتقاها وأعدها للنشر عبد القادر القليبي مع تمهيد بقلم الأستاذ الشاذلي القليبي، تونس، سراس للنشر،2004.

❖ محجوبي (علي الـ): جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، تعريب عبد الحميد الشابي، تونس، بيت الحكمة، 1999.

❖ محفوظ (محمد): تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.

❖ مدني (أحمد توفيق الـ): كتاب الجزائر، الجزائر، دار الكتاب، ط2 1963.

: حياة كفاح، 1925-1954، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج2، 1982.

❖ مشيخي (هادية الـ): سياسي إباضي مغربي: سليمان الباروني، شهادة الماجستير في الحضارة المعاصرة، إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، تونس، ك.ع.إ.إ. 2006 (غ.م.).

❖ مناصرية (يوسف): الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

❖ مؤدب (جليلة الـ): ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية. الحبيب ثامر (ت1949)، علي الحامي(ت1949) محمد أحمد بن عبّود (ت1949) شهادة الماجستير في الحضارة المعاصرة إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، تونس، ك.ع.إ.إ.2006

❖ ناصري (مختار الـ): الحركة الوطنية التونسية بين البورقيبية واليوسفية 1934-1961 شهادة الكفاءة في البحث، إشراف الأستاذ عبد الجليل التميمي، تونس، ك.ع.إ.إ. 1991 (غ.م.).

❖ نفزاوي (محمد الناصر الـ): محمد كرد علي المثقف وقضية الولاء السياسي، تونس، دار الجنوب للنشر، 1993.

: التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918، تونس/ صفاقس، ك.ع.إ.إ./ دار محمد علي للنشر، 2000.

: الدولة والمجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده- فرح انطون، تونس، مركز النشر الجامعي، 2000.

: دروس تكميلية الحضارة المعاصرة (التفكير السياسي والاجتماعي في بلاد المغرب من حملة لويس دي بورمون (Louis de Bourmont) على الجزائر 1830 إلى اليوم، تونس، ك. ع. إ. إ.، 2006-2007.

: درس عام السنة الثانية من المرحلة الأولى عربية

بعنوان نظرة بورقيبة وعلال الفاسي إلى التاريخ، تونس، ك. ع

.إ. إ 2001-2002.

❖ هرسي (عادل الـ): الجزائريون في تونس (1956-1962)

ونشاطهم السياسي والثقافي، شهادة الدراسات المعمقة في الحضارة المعاصرة

إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي، منوبة، كلية الآداب، 2004

قائمة الندوات والدوريات مرتبة ترتيبا ألفبائيا:

أعمال المؤتمر العالمي الثالث حول السلطة وآليات الحكم في عصر بورقيبة بتونس والبلاد العربية، الحركات الوطنية التونسية والمغاربية، رقم 11، تونس، منشورات مؤسسة التميمي (د.ت.)

شؤون فلسطينية، عدد 39- نوفمبر 1974.

"الشباب"، القاهرة: عدد (54 - 14) "349" 26 ماي 1937.

عدد (83 - 43) "77" 22 ديسمبر 1937.

عدد (84 - 44) "79" 29 ديسمبر 1937.

عدد (98 - 58) "393" 13 أفريل 1938.

عدد (104 - 64) "399" 25 ماي 1938.

عدد (120 - 80) "415" 6 أكتوبر 1938.

عدد (105 - 439) 10 ماي 1939.

عدد (106 - 440) 10 ماي 1939.

"الشعب"، تونس، عدد 941، 27 أكتوبر 2007.

"الشورى"، القاهرة عدد 37، 2 جويلية 1925.

عدد 38، 16 جويلية 1925.

عدد 100، 7 أكتوبر 1926.

عدد 215، 20 فيفري 1929.

عدد 217، 6 مارس 1929.

عدد 230، 19 جوان، 1929.

عدد 263، 19 فيفري 1930.

عدد 264، 26 فيفري 1930.

عدد 273، 7 ماي 1930.

عدد 282، 16 جويلية 1930.

عدد 286، 13 أوت 1930.

عدد 295، 15 أكتوبر 1930.

عدد 316، 18 مارس 1931.

عدد 325، 28 مارس 1931.

"الطريق الجديد"، تونس، لسان الحزب الشيوعي التونسي، عدد 10 نوفمبر 2002.

"العمل"، تونس، 7 جوان 1934.

30 أوت 1934.

10 نوفمبر 1937.

9 ديسمبر 1937.

30 ديسمبر 1937.

الفكر العربي عدد 85 – 86، سنة 1986.

القدس العربي، عدد 8904، 20 نوفمبر 2001.

المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 35 – 36، ديسمبر 1984.

لسان الشعب، تونس، عدد 138، 2 أفريل 1924.

قائمة الموسوعات والمعاجم مرتبة ترتيبا ألفبائيا

الموسوعات والمعاجم العربية:

- لسان العرب لابن منظور، بيروت، دار صادر، ج3، 1997،
- معجم المؤلفات السياسية: ترجمة عرب محمد صاميلا، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2001.
- موسوعة أعلام العرب، بغداد، بيت الحكمة، 2000.
- موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، بيروت، دار الجيل، 2007.
- موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج7، 1994.
- الموسوعة العربية، دمشق، هيئة الموسوعة العربية، 1998.
- الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، ج2، المدارس والمذاهب والاتجاهات والتيارات، 1988.
- الموسوعة الفلسفية، دمشق، هيئة الموسوعية الفلسطينية، ج4، 1984.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية مرتبة ترتيبا أبجديا

- Abbas (Farhat): L'indépendance confisquée, 1962 – 1978, Paris, Flammarion, 1984.
- Balta (Paul): Le Grand Maghreb des Indépendances à l'an 2000, Paris, Edition La Découverte, 1990.
- Bessis (Sophie) et S. Belhasan; Bourguiba. A la Conquête d'un destin, Paris, J. Afrique livre, 1988.
- Bourguiba (Habib): La Tunisie et la France Vingt cinq ans de lutte pour une coopération libre, Tunis, Maison tunisienne de l'édition, 1954.
- Hammami (Ali): Idris, roman Nord-Africain, Algérie, Sned, 2eme Edition, 1976.
- Harbi (Mohamed): Le F.L.N. mirage et réalité des origines à la prise du pouvoir, Paris, Jeune Afrique, 1980.
- Julien (Charles – André); L'Afrique du Nord en marche, Algérie, Tunisie, Maroc, 1880 – 1952, Paris, Edition Omnibus, 2000.
- Lacouture (Jean): Cinq Hommes et la France, Paris, Edition du Seuil, 1961.

الموسوعة الأجنبية:

- Encyclopédie Universalis, Corpus 14, Lorraine, Mésopotamie, Paris, (s.d.)

فـــــــهرس

الأعـــــــــــلام

فهرس الأعلام مرتبة ترتيبا ألفبائيا

إبراهيمي (محمد بشير الـ) 95- 96- 99

ابن باديس (عبد الحميد) 95- 99

أبو اليقضان (إبراهيم) 99

أرسلان (شكيب) 21- 24- 29- 56- 57- 61- 62- 63- 64- 65- 67- 68- 74- 77- 79- 110- 111- 112

أغاييف (أحمد) 21- 22

أقجورا (يوسف) 21- 22

آل سعود (عبد العزيز) 09- 10- 21- 22- 34- 41- 42- 43- 46- 47- 48- 49- 52- 163

باروني (سليمان الـ) 20- 61- 62- 63- 64- 65- 67- 68- 69- 70- 72

بحري (يونس) 58

بن بلة (أحمد) 126

بن جلول () 95- 103- 104

بن علي (الشريف حسين)09- 21- 30- 34- 37- 38- 40- 42- 43- 44- 52- 108- 163

بن يوسف (صالح) 138- 141- 146- 147- 149- 151

بورقيبة (الحبيب) 07- 08- 10- 12- 77- 80- 81- 82- 83- 84- 85- 86- 87- 88- 89- 90- 91- 92- 93- 94- 123- 127- 128- 129- 133- 134- 135- 138- 139- 140- 141- 142- 143- 144- 145- 146- 147- 148- 149- 150- 151- 152- 153- 154- 155- 157- 158- 164- 165

بوعياد (الحسن) 111- 112- 113- 116- 117- 119

بيكو (جورج) 42
ثامر (الحبيب) 129- 134- 136- 138
ثاني (عبد الحميد الـ) 16- 18- 19- 20- 26- 33
ثعالبي (عبد العزيز الـ) 10- 71- 72- 74- 76- 77- 79- 82- 97
جمال (أحمد باشا) 22- 23- 30- 32- 68
حاج (مصالي الـ) 96- 97- 104- 105
حسيني (موسى كاظم الـ) 43
حصري (ساطع الـ) 09- 44
خان (آيت) 22- 23
خان (جنكيز) 22- 23
خطابي (عبد الكريم الـ) 08- 105- 106- 108- 109- 116- 126- 130- 131- 132- 133- 137- 141
دروزة (محمد عزة الـ) 17- 18- 19
رصافي (معروف الـ) 21
رمضان (عبان) 08
روم (لاند) 109- 110- 111
رويسي (يوسف الـ) 77- 134- 137- 138- 141- 144- 146- 147- 148
زاهري (سعيد الـ) 97
سعداوي (بشر الـ) 58
سعيد (أمين) 28- 60- 62- 67- 68- 69- 70
سنوسي (أحمد الشريف الـ)56- 57- 61
سنوسي (محمد بن علي الـ) 57
سيكس (مارك) 42
شطي (الحبيب الـ) 12- 149- 151- 152
شلاي (فاليسيان) 88

شنيق (محمد) 82- 137- 139- 140- 141- 142- 146
شهبندر (عبد الرحمان الـ) 69- 79
طاهر (محمد علي الـ) 07- 08- 10- 11- 12- 16- 17- 18- 19- 20- 21- 22-
23- 24- 25- 26- 27- 28- 29- 30- 31- 32- 33- 34- 37- 38- 40- 41- 42-
43- 44- 45- 46- 47- 48- 49- 50- 51- 52- 55- 56- 57- 58- 59- 60- 61-
62- 63- 64- 65- 67- 68- 69- 70- 71- 72- 73- 74- 75- 76- 77- 78- 79-
80- 82- 86- 90- 92- 93- 94- 97- 99- 100- 101- 102- 104- 105- 107-
108- 109- 111- 112- 113- 116- 117- 118- 119- 120- 121- 122- 123-
124- 127- 128- 129- 130- 131- 132- 133- 134- 135- 136- 137- 138-
141- 142- 143- 144- 145- 146-147- 148- 149- 150- 151- 152- 154-
155- 156- 158- 159- 161- 162- 163- 164- 165
طريس (عبد الخالق الـ) 12- 151- 152- 153- 154
طفيش (إبراهيم الـ) 97
طلعت (أحمد) 22- 23
عباس (فرحات) 95- 96- 163
عبد الناصر (جمال) 126- 151
عبده (محمد) 48- 49- 71- 100
عريسي (عبد الغني) 21- 23- 31- 32- 33- 38- 162
عقبي (الطيب) 95- 97
غلاب (عبد الكريم) 110- 114- 116
فاسي(علال ال) 08- 106- 113- 114- 115- 116- 117- 118- 133- 134-
138
فيلالي (صالح) 94- 95- 97
قليبي (محي الدين الـ) 10- 71- 72- 73- 74- 76
كامل (مصطفى) 28

كرد علي (محمد) 51- 59- 61- 68- 159- 163
كعاك (عثمان الـ) 55
ماطري (محمود الـ) 82
محمد على الطاهر (الحسن) 18
مدني (أحمد توفيق الـ) 07- 71- 74- 95- 99- 102- 103- 104
ميكيافلي 08
هيكل (حسين) 126
وايزمان (حاييم) 42

فهرس الموضوعات

الصفحة

الإهداء.....04.

شكر خاص.....05.

مقدمة.....06

القسم الأول: محمد علي الطاهر من الجامعة الإسلامية إلى العروبية الإسلامية.....14

الفصل الأول: محمد علي الطاهر حتى الحرب الكبرى (1896 - 1916).....15

الفصل الثاني: محمد علي الطاهر في خضم الصراع العروبي الإسلامي بين آل حسين وآل سعود (1916 - 1924).....35

القسم الثاني: محمد علي الطاهر وساسة بلاد المغرب (1924 - 1974).....53.

الفصل الأول: محمد علي الطاهر والساسة المغاربة (1924 - 1945).....54

الفصل الثاني: محمد علي الطاهر والساسة المغاربة (1945 - 1974).....124

خاتمة 160

الملاحق.....166

قائمة المصادر والمراجع.....173

فهرس الأعلام.....184

فهرس الموضوعات.....189